كارلوس رويث ثافون

قصر منتصف الليل

رواية لليافعين

ترجمة: معاوية عبد المجيد

الجمل الطائر



قصر منتصف الليل

معاوية عبد المجيد، مترجم سوريّ من مواليد دمشق عام ١٩٨٥، درس الأدب الإيطاليّ في جامعة سيينا في إيطاليا. علَّمَ اللغة الإيطاليّة في كليّة الآداب في جامعة دمشق. حصل على درجة الماجستير في الثقافة الأدبيّة الأوروبيّة عن قسم الترجمة الأدبيّة من جامعة بولونيا الإيطاليّة وجامعة مولوز الفرنسيّة. صدرت له ترجمات عديدة في العالم العربيّ، مثل **ضمير السيّد زينو** لإيتالو سفيفو، **الشعلة الخفيّة للملكة لوانا** لأمبرتو إيكو، **الرسائل الأخيرة لياكوبو أورتس** لأوغو فوسكولو. حاز عدّة جوائز عالميّة لعمله في مجال الترجمة الأدبيّة. وعن منشورات الجمل صدرت له أعمال الأديب الإسبانيّ كارلوس رويث ثافون: **ظل الريح**، **لعبة الملاك**، **سجين السماء**، **متاهة الأرواح**، **مدينة من بخار**، **أمير الضباب**.

الجمل الطائر

سلسلة متخصصة بأدب الأطفال والناشئة تصدر عن

منشورات الجمل

تم تصميم هذه النسخة بواسطة: **أشرف غالب**

كارلوس رويث ثافون: **قصر منتصف الليل**، رواية لليافعين، الطبعة الأولى

ترجمة: معاوية عبد المجيد

ص.ب: ٧٣١١١ – الشارقة – الإمارات العربية المتحدة

Carlos Ruiz Zafón: *El Palacio de la Medianoche*

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany

WebSite: www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com



EL PALACIO DE LA MEDIANOCHE

كارلوس رويث ثافون، أديبٌ إسبانيّ ولد في مدينة برشلونة عام ١٩٦٤. بدأ مسيرته الأدبيّة عام ١٩٩٣ مع سلسلة روائيّة لليافعين استهلّها برواية **أمير الضباب**، لتتلوها **قصر منتصف الليل**، ثمّ **أضواء سبتمبر**، ورواية **مارينا**. وفي عام ٢٠٠١ أصدر رائعته **ظلّ الريح**، وما لبثت أن نالت **اهتمامًا** عالميًّا وصُنِّفَت بين الكتب الإسبانيّة الأكثر مبيعًا على مستوى العالم، وحصل ثافون بموجبها على ثناء وتقدير، وعدد كبير من الجوائز والتكريم. ثمّ تابع عمله على سلسلة **مقبرة الكتب المنسيّة**، وأصدر **لعبة الملاك**، **سجين السماء**، **متاهة الأرواح**. وافته المنية في لوس أنجلس عام ٢٠٢٠ جرّاء إصابته بمرض سرطان القولون. وإحياءً لذكراه، تعاون أصدقاؤه في دار النشر بلانيتا على جمع أعماله القصصيّة في كتاب واحد حمل عنوان **مدينة من بخار**.

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

تحرير وتدقيق:

▪ **إسراء** ▪

▪ **mohamed** ▪

ترتيب وتصميم:

▪ أشرف غالب ▪



إلى ماريكارمن



كلمة المؤلِّف

صديقي القارئ،

إنَّني واحدٌ من أولئك الذين يتخطُّون المقدِّمات والتقديمات، ويُفضِّلون التوجُّه إلى صلب الموضوع مباشرةً. فإن كنتَ مثلنا أنت كذلك، فتجاوَزْ هذا التمهيد فورًا وارمِ بنفسك تمامًا في قلب الحكاية، فهذا هو الأهمُّ.

أمّا إذا كنتَ من النوع الآخر من القرَّاء (وأعترف أنَّني أفعل مثلهم أحيانًا) أولئك الذين يثيرهم الفضول، فاسمَحْ لي بأن أروي عليك بإيجازٍ شيئًا عن هذه الرواية، وأنا واثقٌ من أنَّه سيساعدك على وضعها في نصابها الصحيح.

إنَّ «قصر منتصف الليل» هي روايتي الثانية التي نُشِرَت عام ١٩٩٤، لتُشكِّلَ جزءًا من السلسلة الموجَّهة للشباب، مع «أمير الضباب» و«أضواء سبتمبر» والرواية المستقلّة «مارينا»، الصادرة جميعها قبل «ظلّ الريح» والحقُّ يقال، لم أفهم قطّ ما المقصود بهذا «الأدب الشبابيّ». وكلُّ ما أعرفه هو أنَّني عندما ألَّفتُها كنتُ شابًّا أكثر ممّا أنا عليه الآن، وأنَّني فكَّرتُ حينذاك: إن كنتُ أدَّيتُ عملي على أكمل وجه فإنَّ هذه الروايات كانت ستثير اهتمام القرَّاء الشباب الذين تتراوح أعمارهم ما بين تسعة أعوام وتسعين عامًا. إذ إنَّها حكاياتُ مغامرةٍ وغموض، ورواياتٌ قد يبدو أنَّ خوليان كاراكس بطل «ظلّ الريح» هو الذي كتبها في علّيَّتِهِ بالحيّ اللاتينيّ في باريس، وهو يُفكِّرُ بصديقه دانيال سيمبيري.



وبعد طبعاتٍ غير مُرضيةٍ على مدى أعوامٍ طويلة، ترى هذه الروايةُ النورَ أخيرًا مثلما أحَبَّ لها كاتبُها أن تصدر منذ المرَّة الأولى. وعادةً ما يميل الروائيُّ إلى إدماج مقاطع ناقصة وتصويب أخطاء تعجُّ بها روايته غير الناضجة، لتوليد انطباعٍ بأنَّ لديه موهبةً أكثر ممّا هي عليه في الواقع. لكنّي ارتأيتُ أنَّه من النزاهة أن أتركها على حالها لتعكس إمكانيّتي وصنعتي في تلك الفترة.

وأحد أسباب السعادة التي منحتها لي هذه المهنة على مرّ السنوات، هو إقبال كثيرٍ من القرَّاء اليافعين على قراءة هذه الروايات «الشبابيّة» الأربع، وكان من لطفهم أنَّهم راسلوني ليخبروني بأنَّهم تقرَّبوا من القراءة، وبعضهم تقرَّبَ من الكتابة، بعد أن عاشوا هذه المغامرات.

فإلى هؤلاء اليافعين، ومَن يكبرونهم سنًّا ويخوضون هذه الروايات وألغازها للمرَّة الأولى، أوجِّهُ أسمى عبارات امتنان هذا الراوي.

قراءةً ممتعة.

كارلوس رويث ثافون

يونيو ٢٠٠٦



لن أنسى أبدًا تلك الليلة التي أثلجت فيها السماءُ على مدينة كلكتا. كان التقويم في ميتم سانت باتريك يلفظ الأَيَّامَ الأخيرةَ من شهر مايو ١٩٣٢ ويُخلِّفُ وراءه واحدًا من أحَرِّ الشهور التي يذكرها تاريخ مدينة القصور.

كنّا ننتظر يومًا بعد يوم، بحزنٍ وخشية، قدومَ ذلك الصيف الذي سنتمُّ فيه عامنا السادس عشر، ما يعني فراقَنا وحلَّ نادي شوبار، النادي السرّيّ والمخصَّص لسبعة أعضاء حصرًا؛ كان هذا النادي ملجأنا خلال الأعوام التي أمضيناها في الميتم هناك حيث نشأنا بلا عائلة إلاّ نحن أنفسنا، وبلا ذكريات إلاّ القصص التي كنّا نرويها بعضنا على بعض حول موقد النار في قلب الليل، في باحة الدار القديمة والمهجورة الواقعة عند التقاء شارع القطن بشارع بريبرن: كان البيت عبارة عن حطام دارٍ كبيرة سمَّيناها قصر منتصف الليل لم أكن أعلم حينذاك أنَّها ستكون المرَّة الأخيرة التي أرى فيها المكان الذي ربيتُ في طرقاته وما زال سحره يلاحقني حتّى الآن لم أعد إلى كلكتا مطلقًا منذ ذلك العام، لكنّي لم أزل مخلصًا لم أعد إلى كلكتا مطلقًا منذ ذلك العام، لكنّي لم أزل مخلصًا للعهد الذي قطعناه جميعًا بلا كلمات، تحت المطر الأبيض المتساقط على ضفاف نهر هوغلي: «لن ننسى أبدًا ما شهدناه» علَّمتني السنون أن أُخزِّنَ في ذاكرتي ما وقع في تلك الأَيَّام وأن أحفظ الرسائل التي كنتُ أتلقَّاها من المدينة الملعونة، الرسائل التي ما فتئت تُذكي شعلةَ ذكراي. علمتُ من خلالها أنَّ قصرنا القديم قد هُدِمَ لكي تُشادَ على أنقاضه بنايةٌ تكتظُّ بالمكاتب، وأنَّ السيّد توماس كارتر، مدير ميتم سانت باتريك، قد تُوفِّيَ بعد أن أمضى الأعوام الأخيرة من حياته في الظلام، جرَّاء الحريق الذي أطفأ عينيه إلى الأبد.

وبين الحين والآخر وردتني أنباءٌ عن الاختفاء التدريجيّ للمَشاهِدِ التي عشناها في تلك الأَيَّام. إذ إنَّ سرابَ الزمنِ وشراسةَ المدينة التي كانت تلتهم نفسها، أدَّيا إلى محو كلِّ أثرٍ من أعضاء نادي شوبار.



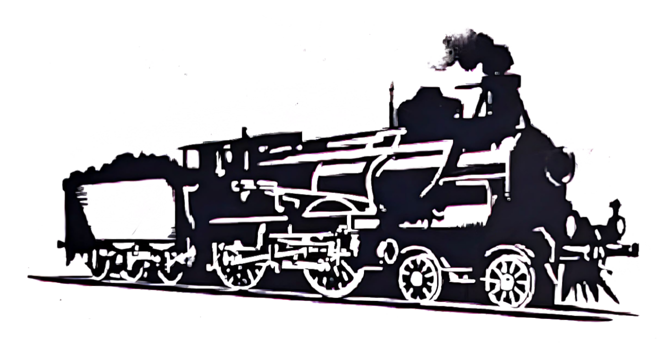
وهكذا تعذَّرَت عليَّ الخيارات، فاعتدتُ أن أحيا متخوِّفًا من تعرُّض هذه الحكاية للنسيان إلى الأبد، بسبب انعدام مَن يرويها.
وقد شاءت سخرية القدر أن أتولّى أنا، الأقلّ ملاءمةً لهذه الوظيفة والأسوأ موهبةً، مهمّةَ سرد هذه الحكاية وكشف السرّ الذي وحَّدَنا قبل أعوامٍ طويلةٍ وفرَّقَنا إلى الأبد في محطّة جيتر القديمة. وددتُ لو تعيَّنَ على أحدٍ غيري أن ينتشل هذه القصّة من النسيان، إلاّ أنَّ الحياة أثبتت لي مرَّةً أخرى أنَّ دوري هو دور الشاهد، لا دور البطل.
وقد احتفظتُ على مدار تلك الأعوام برسائل بِنْ وروشان النادرة، وخبَّأتُ الوثائق التي تُبيِّنُ مصيرَ كلِّ عضوٍ من نادينا السرّيّ، وقرأتُها مرارًا بصوتٍ جهيرٍ منعزلاً في مكتبي. ربّما لأنَّني كنتُ أدرك، بطريقةٍ أو بأخرى، أنَّ القدر جعلني خازنًا على ذاكرة أصدقائي جميعًا. ربّما لأنَّني كنتُ أدرك أنِّي لطالما كنتُ أكثرَ أولئك الفتية السبعة إحجامًا عن المخاطرة، وأقلّهم تألُّقًا وبسالة، لذا كنتُ أكثرهم إمكانيّةً للنجاة.
سأحاول إذًا، بمعنوياتي هذه، ويقيني بأنَّ ذاكرتي لن تخونني، سأحاول أن أُحيي الأحداث الملغزة والرهيبة التي وقعت خلال تلك الأيّام الأربعة المثيرة من مايو ١٩٣٢.
لن يكون التحدّي سهلاً، لذا أستجدي حسن نيّة قرّائي إزاء قلمي الأعسر عند لحظة انتشال ماضي ذلك الصيف من ظلمات مدينة كلكتا. لقد بذلتُ قصارى جهودي في إعادة بناء الواقع وفي العودة إلى الحوادث المريبة التي لا بدَّ أنَّها رسمت خطَّ مصيرنا. لم يبقَ لديَّ سوى الاختفاء عن المشهد وترك الكلمة للأحداث كي تتكلَّم عن نفسها.
لن أنسى أبدًا وجوه أولئك الفتية الفزعين في الليلة التي أثلجت فيها السماءُ على كلكتا. ولكن، كما علَّمني صديقي بِنْ أن أفعل دائمًا، سأستهلُّ الحكاية من بدايتها...







عودة الظلام



كلكتا، مايو ١٩١٦

بعد منتصف الليل بقليل، برَزَ من بين ضباب العتمة مركَبٌ يصعد على سطح نهر هوغلي مثل رائحة اللعنة. تبدَّى طيفُ رجلٍ ملتحفٍ بدثار، تحت ضياء القنديل الخافت والمعلَّق على الصارية، وكان يجدف بمشقّةٍ نحو الضفَّة البعيدة وهناك، في الغرب، تراءى طيفُ حصن ويليام في الميدان، تحت عباءة السُّحُب الرماديّة، على ضوء كفنٍ واسعٍ قوامُهُ أعمدةُ الإنارة ومواقدُ النيران الممتدّةُ إلى حيث يبلُغُ البصرُ كلكتا.

توقَّفَ الرجلُ قليلاً لالتقاط أنفاسه والتمعُّن في خيال محطّة جيتر، الضائعة في الظلمات التي تغطّي الضفَّة الأخرى من النهر. وكلَّما توغَّلَ مترًا في الضباب، اختلطت محطّةُ الفولاذ والزجاج بأبنيةٍ مثلها راسيةٍ بين روائع منسيّة. جالت عيناه في تلك الغابة من الأضرحة الرخاميّة التي اسودَّت منذ عقودٍ من الإهمال، والواجهات التي عرَّاها غضبُ الرياح الموسميّة من جلدِها وطمَسَ



لونَها الأصفر والأزرق والذهبيّ، ليجعلها كألوانٍ مائيّةٍ تتبدَّدُ في مستنقع. ولولا يقينه بأنَّ حياته ستنتهي خلال ساعات، وربّما دقائق، لما استطاع إكمال مسيره، تاركًا في أحشاء ذلك المكان الملعون المرأةَ التي أقسَمَ على حمايتها وإن كلَّفَهُ الأمرُ حياتَه. ففي تلك الليلة، بينما كان الملازم بيك يشرع في رحلته الأخيرة نحو كلكتا على متن مركبٍ قديم، كانت لحظات حياته تتلاشى تحت المطر المنهمر في كنف الظلام.

كان الملازم يتكبَّد الصعاب للوصول إلى الضفّة، وفي الأثناء يتناهى إلى مسمعه بكاءُ الطفلين المختبئين في أسفل المركب. التفَتَ بناظرَيه نحو الخلف، فإذا هو يلمح أضواء مركبٍ آخر تومض على بُعد مئة متر وتتقدَّم باتِّجاهه. تصوَّرَ ابتسامة مطارده العنيد المتلهِّف للطريدة.

تجاهَلَ دموعَ البرد والجوع التي يذرفها الطفلان، وكرَّسَ ما تبقّى لديه من قوىً لقيادة المركب نحو حافة النهر الذي يموت عند أعتاب المتاهة المبهمة والشبحيّة، ألا وهي طرقاتُ كلكتا. قرنان من الزمن يكفيان لإحالة الدغل الموحش، الذي كان ينمو حول الكاليغات، إلى مدينةٍ لا تجرؤ حتّى الآلهةُ على دخولها.

وفي غضون دقائق انهال الإعصار على كلكتا بغضب روحٍ مُدمِّرة. تتهالك المدينة بين براثن ما يُسمَّى الصيف الهنديّ، من أواسط أبريل وحتّى أواخر يونيو؛ وتعاني حرارةً تبلغ أربعين درجة، ومستويات من الرطوبة تصل حدَّ الإشباع وما هي إلاّ ثوانٍ حتّى



تهبط الموازين إلى ثلاثين درجة، تحت تأثير العواصف الكهربائيّة العنيفة، التي تُحوِّل السماء إلى ستارةٍ من بارود.

كانت عباءة المطر الغزير تحجب رؤية الأرصفة الهزيلة ذات الخشب المتعفِّن التي تتأرجح على النهر. لم يتوقَّف بيك عمّا هو فيه حتّى أحسَّ باصطدام مركبه بعوارض رصيف الصيَّادين. غرس العصا في القاع الوحليّ عندئذٍ واتَّجه إلى الطفلين، اللذين كانا يلتحفان غطاءً. وحينما حملهما بذراعيه، خدش بكاؤهما الليلَ كأنَّه أثر دماءٍ يُرشِدُ المفترس إلى ضحيَّته.

ضمَّهما بيك إلى صدره وقفز إلى الأرض وفي خلال عباءة المطر الغزير الذي ينهمر بشدّة، رأى المركبَ الآخرَ يقترب ببطءٍ على النهر مثل قارب الدفن أحسَّ بالفزع يجلد قلبه، فهَمَّ بالركض صوب الطرقات التي تحاذي الميدانَ من جهة الجنوب، واختفى بين ظلال تلك المنطقة التي كان سكَّانها المترفون - معظمهم أوروبّيون وبريطانيّون - يُسمُّونها «المدينة البيضاء».

كان لا يرجو إلاّ إنقاذ حياة الطفلين، لكنَّه ما زال بعيدًا عن مركز القطاع الشماليّ لكلكتا، حيث دار أريامي بوز. تلك المرأة العجوز، هي الوحيدة القادرة على مساعدته. توقَّفَ بيك برهةً وجال ناظراه في هول ظلمة الميدان، بحثًا عن ضياء أعمدة الإنارة البعيدة التي ترسم نجومًا خافقةً في شمال المدينة. فكَّرَ في أنَّ الطرقات المظلمة التي حجبها الإعصار ستكون خيرَ مخبأ له. شدَّ الملازم ذراعيه على الطفلين وابتعد ثانيةً نحو الشرق، يبحث عن مأوى بين ظلال القصور الفخمة في وسط المدينة. بعد لحظات، توقَّفَ



المركب الأسود الذي كان يطارده، بجانب الرصيف. قفز ثلاثة رجال إلى الأرض وأرسوا سفينتهم. انفتح باب قُمرة القيادة ببطء ليكشف عن شخصٍ ملتحفٍ بدثارٍ أسود اللون، وسار على الممشى الذي نصبَهُ الرجال على الرصيف، ومدَّ يده الموغلة في القفَّاز الأسود، مشيرًا إلى الوجهة التي اختفى فيها بيك، ورسم ابتسامةً لم يرها أيٌّ من رجاله تحت العاصفة.

***

كانت الطريق المظلمة والملتوية، التي تعبر الميدان وتحاذي الحصن، قد تحوَّلت إلى مستنقعٍ طينيٍّ تحت وابل المطر يذكر بيك على نحوٍ مبهمٍ أنَّه جالَ في تلك المنطقة من المدينة أيَّامَ حرب الشوارع التي خاضها بأمرٍ من الكولونيل ليويلين، في وضح النهار وعلى سرج حصان، رفقةَ كتيبةٍ من الجيش المتعطِّش للدماء.

وها هي سخرية القدر تدفعه إلى السير مجدَّدًا في ذلك المجال المفتوح، إذ سوَّاهُ اللورد كلايف بالأرض عام ١٧٥٨، لكي يتسنّى لمَدافِع حصن ويليام أن تقصف في كلّ الاتِّجاهات. لكنَّه في هذه المرَّة كان هو الفريسة.

ركض الملازم نحو الأشجار يائسًا، وما انفكَّ يشعر بنظراتٍ متربِّصةٍ تنهال عليه من مراقبين صامتين تحت الظلام، هم أهالي الميدان الليليّون. كان يعلم أنْ لا أحد سيعترض طريقه ليعتدي عليه وينتزع منه الدثار أو الطفلين اللذين كان يبكيان بين ذراعيه.



فأهالي ذلك المكان اللامرئيّون قادرون على شمٍّ أنفاس الموت الذي يتعقَّبه، وما كان لأيٍّ منهم أن يجرؤ على عرقلة مطارده.

اجتاز بيك البوّابة الحديد التي تفصل الميدان عن جادّة شورينغي وَوَلَجَ إلى شريان كلكتا الرئيس كانت الجادّة المهيبة تمتدُّ على مسار الدرب العتيق الذي كان، قبل ثلاثمئة عام، يقطع الدغل البنغاليّ باتِّجاه الجنوب، نحو الكاليغات، معبد كالي، الذي منح للمدينة اسمها.

أقفرت المدينة من جموع الليليّين الذين اعتادوا التسكُّع في ليالي كلكتا، عادوا إلى منازلهم بسبب المطر، فاتَّخذت المدينةُ شكلَ بازارٍ كبيرٍ قذرٍ ومهجور. كان بيك يعلم أنَّ الأمطار الغزيرة التي تحجب الرؤية وتستر حركته في قلب الليل، قد تنقطع بغتةً مثلما انهمرت فالعواصف التي تهبُّ من المحيط إلى دلتا نهر الغانج كانت سرعان ما تبتعد نحو الشمال أو الغرب، بعد أن تُفرِّغَ طوفانها المُطهِّرَ على شبه جزيرة البنغال، مُخلِّفةً وراءها أثر الضباب والطرقات الغارقة بالبِرَكِ الموبوءة التي يغطس فيها الأولاد حتى خصورهم ليلعبوا، وحيث تبقى العربات عالقةً تمامًا كالسفن الهائمة.

اتَّجه الملازم راكضًا صوب الطرف الشماليّ لجادّة شورينغي، إلى أن أحسَّ بعضلات ساقيه ترتجف وصار بالكاد قادرًا على تحمُّل عبء الطفلين. كانت أضواء القطاع الشماليّ تومض على مقربةٍ تحت ستارة المطر الكثيف. يعلم بيك أنَّه ما عاد بوسعه البقاء



على تلك الوتيرة كثيرًا، وما زالت دار أريامي بوز بعيدة. كان عليه أن يستريح.

توقَّفَ لالتقاط أنفاسه، مختبئًا تحت سلالم دكّان أنسجةٍ قديم، جدرانه محجوبة بلافتاتٍ تعلن عن هدمه الوشيك امتثالاً لأوامر السلطات. تذكَّرَ أنَّه فتَّشَه قبل أعوام، على إثر دعوى تقدَّمَ بها أحد التجَّار الأثرياء الذي أكَّدَ أنَّ الدكَّان بؤرةٌ خطيرةٌ لتعاطي الأفيون.

أمّا آنذاك فكانت المياه الآسنة ترشح من بين السلالم المتداعية، بمنظرٍ يوحي بالدم الأسود المتدفِّق من جرحٍ عميق. كان المكان يبدو مهجورًا ومقفرًا. رفع الملازمُ الطفلين على مستوى وجهه وتفحَّصَ أعينهما المذهولة؛ ما عادا يبكيان، إنّما يرتجفان بردًا. بات غطاؤهما منقوعًا. أخذ بيك تلك الأيدي الصغيرة بيديه مؤملاً بغمرهما بالدفء، في حين كان يتلصَّصُ من بين صدوع السلالم إلى الطرقات المؤدّية إلى الميدان. لا يذكر كم مجرمًا جنَّدَهم مطارِدُهُ، لكنَّه يعلم أنَّ مخزن مسدَّسه ليس فيه سوى رصاصتين، رصاصتين يتوجَّبُ عليه استعمالهما بكلّ ما أوتي من دهاء؛ فلقد نفدت ذخيرته في أنفاق المحطّة. لفَّ الطفلين بالجانب الأقلّ رطوبةً من الغطاء وأودعهما بعض الوقت على حيِّزٍ جافٍّ من الأرض يتبدّى تحت جوفٍ في جدار الدكَّان.

أخرج بيك مسدَّسه وأطلَّ برأسه ببطء من بين عتبات السلالم. كانت جادّة شورينغي خاوية، من جهة الجنوب، وتبدو مسرحًا شبحيًّا يترقَّب بداية العرض. حدَّقَ الملازم جيِّدًا فميَّزَ وهج



الأضواء البعيدة على الضفَّة الأخرى من نهر هوغلي. تراجع إلى الخلف إذ سمع خطواتٍ عجولةً على البلاط المغمور بالمياه، وعاد ليحتمي بالظلّ.

ظهر ثلاثة رجال من ظلام الميدان، هذا الميدان الذي يُعدُّ انعكاسًا قاتمًا لمنتزه هايد بارك بلندن، سوى أنَّه منحوتٌ في وسط دغلٍ استوائيّ.

لمعت شفرات سكاكينهم في العتمة كأنَّها ألسنةٌ من فضّةٍ متوهِّجة. سارع بيك إلى حمل الطفلين بذراعيه ثانيةً واستنشق بعمق، مدركًا أنَّه لو هرب في تلك اللحظة لهاجمه أولئك الرجالُ مثل قطيعٍ من الكلاب الجائعة في اللحظة نفسها.

ظلَّ متحجِّرًا ولصيقًا بحائط الدكَّان يراقب مطارديه الثلاثة، الذين توقَّفوا برهةً يبحثون عن أثرٍ له. تبادل القتلةُ كلماتٍ لم يفهمها، وأشار أحدهم لرفيقيه بالتفرُّق. ارتعش بيك حين تبيَّنَ أنَّ الذي أعطى الأمر يتَّجه مباشرةً نحو السلالم الذي كان مختبئًا تحتها. وفكَّرَ لوهلةٍ في أنَّ رائحة خوفه اقتادت الرجلَ إلى مخبئه.

جالت عيناه بلا أملٍ لعلَّه يجد فتحةً في سطح الحائط تحت السلالم لكي يهرب من خلالها. جلس القرفصاء بجانب الجوف حيث ترك الطفلين منذ قليل، وحاول أن يخلع الألواح المفكوكة المسامير والتي أضنتها الرطوبة. انزاح الخشبُ بلا صعوبة، وكان مثقلاً بالعفن، فأحسَّ بيك بهبوب رائحةٍ مثيرةٍ للغثيان تتصاعد من داخل سرداب ذلك المبنى المتهالك.



التفت ورأى المجرمَ، على بُعد عشرين مترًا من عتبات السلالم يحمل سكِّينه بيديه.

لفَّ الطفلين بدثاره ليحميهما وزحف إلى داخل الدكَّان. شُلَّت ساقه اليسرى فجأةً بفعل وخزة ألمٍ فوق ركبته بسنتمتراتٍ قليلة. تحسَّسَها بيده المرتجفة فلمست أصابعُهُ مسمارًا صدئًا وموجعًا ومغروسًا في لحمه. كبَتَ صرخةَ الوجع، وأمسك المعدن البارد، واجتثَّه بقوّةٍ فشعر بجلده يتشقَّق بينما تدفَّقَ دمه الفاتر من بين أصابعه. زاغ بصرُهُ قليلاً جرّاء تشنُّج الألم والغثيان. ثمَّ لهث وهو يمسك الطفلين من جديد، ونهض بمشقَّة. انفتح أمامه ممرٌّ شبحيٌّ تُجانِبُهُ مئات الرفوف، جميعها فارغة، لتُكوِّنَ شبكيّةً غريبةً تضيع في الظلمة. فلم يتردَّد في الركض نحو الطرف الآخر من الدكَّان، الذي كان بنيانه الجريح يقرقع تحت وطأة العاصفة.

***

عندما ظهر بيك إلى الهواء الطلق ثانيةً، بعد أن قطع مئات الأمتار في أعماق ذلك المبنى المتهالك، وجد نفسه على بُعد مئة متر أو أقلّ من بازار تيريتا، أحد المراكز التجاريّة الكثيرة في القطاع الشماليّ. بارَكَ حظَّه واتَّجه نحو الشبكة المعقَّدة من الأزقّة الضيِّقة والمتعرِّجة التي تُشكِّلُ قلبَ تلك المنطقة المكتظّة، ومشى باتِّجاه دار أريامي بوز.

استغرق مسيره عشر دقائق إلى حيث كانت تسكن آخِرُ امرأةٍ من آل بوز. كانت أريامي تعيش وحيدةً في دارٍ قديمة على الطراز



البنغاليّ، المبنيّة ما وراء الخضرة البرّيّة والكثيفة التي نَمَتْ على مدى أعوام في الفِناء، دون أن تتدخّلَ بها يدُ إنسان، وهذا ما يضفي عليها طابع المكان المغلق والمهجور ورغم ذلك، لم يتجرّأ أيٌّ من أهالي القطاع الشماليّ، المعروف باسم «المدينة السوداء»، على اجتياز حدود الفِناء ودخول مجالات أريامي بوز فمَن عرَفَها احترَمَها بقدر ما كان يهاب جانبها على الأقلّ وما مرَّ يومٌ على أهالي القطاع الشماليّ دون أن يتحدَّثوا بشأنها وشأن أسرتها. فحضورها بالنسبة إليهم كان مشابهًا لحضور شبح: جبَّارةٌ وخفيّة.

ركض بيك نحو البوّابة الحديد المؤدّية إلى الدرب الذي استولت عليه الأجمات في الفِناء، وسارع الخطى إلى الأعتاب الرخاميّة المتكسِّرة والصاعدة حتّى باب الدار. حمل الطفلين على ذراعٍ واحدة، وطرق بقبضته الأخرى مرارًا، مؤملاً في أن يطغى صخبُ العاصفة على صوت طرقاته.

طرق الملازمُ البابَ طوال دقائق، بينما راقب ناظراهُ الطرقاتِ الخاويةَ من خلفه، وتعاظمت خشيتُهُ من ظهور أحد مطارديه بين لحظةٍ وأخرى. وعندما انفتح الباب، التفت بيك وقد أعشى ضوءُ قنديلٍ بصرَه، وسمع اسمَهُ من صوتٍ لم يسمعه منذ خمسة أعوام. غطَّى بيك عينيه بكفِّهِ وعرف وجه أريامي بوز المنيع.

قرأت المرأةُ أفكارَهُ وحدَّقَت إلى الطفلين. وانغمر وجهُها بظلمة الألم. أخفض بيك عينيه.



- لقد ماتت، يا أريامي. - غمغم - كانت قد ماتت حتّى قبل وصولي...

أغمضت أريامي عينيها وتنفَّست بعمق. لاحظ الملازمُ أنَّ أسوأ مخاوفه تتعزَّزُ في روح المرأة مثل دفقةٍ حامضة.

- ادخل. - قالت في النهاية وأفسحت له المجال وأغلقت الباب خلفها.

سارع بيك إلى وضع الطفلين على طاولة ونزع ملابسهما المبلَّلة. جاءت أريامي بثيابٍ ناشفة، دون أن تنبس بكلمة، وألبسَتِ الصغيرين بينما أذكى الملازمُ النارَ لكي ينعما بالدفء.

- إنَّهم يطاردونني يا أريامي. - قال - لا يمكنني البقاء.

- أنت تنزف. - لاحظت المرأة، وأشارت إلى الجرح الذي أحدثه المسمار في ذلك الدكَّان.

- مجرَّد خدشٍ سطحيّ. - كَذب بيك - لا يؤلمني.

دنت أريامي منه ومدَّت يدها لتلامس وجهه المتعرِّق.

- كنتَ تحبُّها كثيرًا...

أشاح بيك نظره نحو الصغيرين ولم يُجِب.

- كان من الممكن أن يكونا ابنيك. - قالت أريامي - ربّما كانا سينعمان بحظٍّ أوفر.



- عليَّ أن أغادر. - أنهى الملازم - إن بقيتُ هنا، فلن يكفُّوا عن البحث حتّى يعثروا عليّ.

تبادلا نظرةً مقهورة، مدركَين المصير الذي سيلقاه بيك ما إن يعود إلى الطريق. أمسكت أريامي يد الملازم بيدها وشدَّت عليها.

- لم أكن أُحسِنُ معاملتك يومًا. - قالت له - كنتُ أخشى على ابنتي، من حياةٍ كانت ستعيشها بجانب ضابطٍ بريطانيّ. لكنّي كنتُ على خطأ. أعتقد أنَّك لن تغفر لي أبدًا.

- لم يعد لهذا الأمر أهمّيّة. - ردَّ بيك - عليَّ أن أغادر. فورًا.

اقترب للمرَّة الأخيرة من الطفلين اللذين ينعمان بدفء النار. نظر إليه الصغيران بفضولٍ مَرِحٍ وأعينٍ متألِّقةٍ وباسمة. باتا في مأمن. توجَّهَ الملازم نحو الباب وتنهَّدَ بعمق فبعد دقائق السلام القصيرة تلك، راوده إعياءُ التعب والألمُ المريرُ في ساقه لقد استنزف قواه لإيصال الطفلين حتّى هناك فشَكَّ آنذاك في قدرته على مواجهة المحتوم كان المطر في الخارج ما يزال يجلد النبات ولا أثر لمطارده أو لرجاله.

- مايكل... - قالت أريامي خلف ظهره.

توقَّفَ الشابُّ دون أن يلتفت.
- ابنتي كانت على دراية. - كذبت أريامي - كانت على دراية. وإنَّني واثقةٌ من أنَّها كانت تبادلك الحبّ بطريقةٍ أو بأخرى. الذنب ذنبي لا غير. لا تُضمِرْ لها ضغينة.



أومأ بيك بصمت وأغلق الباب خلفه. ظلَّ بضع ثوانٍ تحت المطر، ثمَّ اطمأنَّت روحُهُ، واستأنف مسيره نحو مطارديه. عاد أدراجه حتّى وصل إلى حيث خرج من الدكَّان المهجور ودخل في ظلال المبنى القديم مجدَّدًا، يبحث عن مخبأ ينتظر فيه.

وبينما كان يتوارى في الظلام، تحوَّلَ الألمُ والإرهاق تدريجيًّا إلى شعورٍ بالنشوة والسلام. كانت شفتاه ترسمان ابتسامةً مصطنعة. لم يعد لديه دافعٌ، أو أملٌ، باستكمال حياته.

***

لامست الأصابعُ الطويلةُ والحادَّةُ رأسَ المسمارِ الدامي الناتئ من اللوح الخشبيّ المكسور، عند مدخل سرداب الدكَّان. وبينما كان رجاله ينتظرونه صامتين خلف ظهره، رفع الشخصُ الذي يخفي وجهه في القلنسوة السوداء سبَّابتَه ببطءٍ إلى شفتيه ولعق قطرة الدم المتخثِّرة والقاتمة، وتلذَّذَ بطعمها كأنَّها دمعةُ عسل. وبعد، التفت نحو الرجال الذين اشتراهم قبل سويعات بحفنةٍ من النقود وعهدٍ بدفعةٍ أخرى عند إنجاز العمل، وأشار إلى داخل المبنى. سارع القتلة إلى اقتحام الفتحة التي أحدثها بيك قبل قليل. وابتسم ذو القلنسوة في الظلام.

- اخترتَ مكانًا غريبًا لتموت فيه، أيُّها الملازم بيك. - قال في سرِّه.

كان بيك مختبئًا خلف عمودٍ من الصناديق الفارغة في أعماق السرداب، ورأى الأشخاص الثلاثة يدخلون المبنى. ومع أنَّه لم يكن يلمح سيِّدَهم من هناك، كان متيقِّنًا من أنَّه يترقَّب في الجانب



الآخر من الحائط. كان يحسُّ بحضوره. أخرج بيك المسدَّسَ ولقَّمَ إحدى الرصاصتين، مُخفِّفًا من صوت السلاح بدثاره المبلَّل. بات مستعدًّا لاستئناف مسيره لمواجهة الموت، لكنَّه لم يكن ينوي فعلها بمفرده.

خفَّفَ الأدرينالين الذي كان يتدفَّق في شرايينه ألمَ ركبته النافذَ حتّى أحاله إلى نبضةٍ بكماء وغائرة. فوجئ بيك بسكينته، فابتسم ثانيةً وظلَّ متماسكًا في مخبئه. لاحظ تقدُّمَ الرجال الثلاثة المتمهِّلين على امتداد الممرّ ما بين الرفوف الفارغة، إلى أن توقَّفوا على بُعد عشرة أمتار منه.

رفع أحدهم يده بعلامة التوقُّف، وأشار إلى آثارٍ على الأرض. وضع بيك مسدَّسه على مستوى صدره، مصوِّبًا نحوهم، وضغط على الزناد.

تفرَّقَ الرجال الثلاثة من جديد. أحاط اثنان منهما بالمسار المؤدّي إلى عمود الصناديق ببطء، بينما تقدَّمَ الثالثُ باتِّجاهٍ مستقيمٍ نحو بيك. عدَّ الملازم في سرِّه حتّى خمسة، ورفس عمود الصناديق على المعتدي ليباغته، فأسقطه على الأرض. ركض نحو الفتحة التي دخلوا منها، لكنَّ أحد القتلة حاول أن يقطع عليه الطريق في منتصف الممرّ، ولوَّحَ بشفرة السكّين على بُعد شبرٍ من وجهه. وقبل أن يتسنّى الوقت للقاتل المأجور لكي يبتسم منتصرًا، غزَّ بيك قصبة المسدَّس تحت ذقنه.

- ألقِ السكّين. - صرخ الملازم.



رأى الرجلُ عينيه الجليديَّتين ونفَّذَ ما أُمِرَ به. أمسكه بيك من شعره بعنفٍ، واستدار نحو الرجلين دون أن يُخفِضَ سلاحه، جاعلاً من جسد رهينته درعًا. اقترب القاتلان منهما ببطءٍ حذر.

- أيُّها الملازم، وفِّرْ علينا هذا المشهد وسلِّمْنا ما نبحث عنه. - همس صوتٌ مألوفٌ من خلف ظهره - فهؤلاء الرجال النزيهون أرباب أُسَر.

التفت بيك بناظرَيه نحو ذي القلنسوة الذي كان يبتسم في العتمة على بُعد أمتارٍ قليلةٍ منه. كان بيك في يومٍ ليس ببعيدٍ قد اعتبر ذلك الوجهَ وجهَ صديق؛ واستصعب آنذاك أن يرى فيه قاتله.

- سأفجِّرُ رأسَ هذا الرجل يا جافاهال. - كان بيك يئنُّ.

أغمض الرهينةُ عينيه مرتجفًا.

شبك ذو القلنسوة يديه نافدَ الصبر وأطلق زفرة انزعاجٍ خفيفة.

- افعلها إن أردت، أيُّها الملازم. - ردَّ جافاهال - لكنَّك إن فعلتَها لن تخرج حيًّا من هنا.

- إنَّني جادٌّ فيما أقول. - ردَّ بيك، وضغط الفوَّهة تحت ذقن المرتزق.

- بالتأكيد، أيُّها الملازم. - قال جافاهال بنبرةٍ مسالمة - أطلِقِ النار إن كنتَ تجرؤ على قتل إنسانٍ بدمٍ بارد ومن دون إذن جلالته. أمّا



بخلاف ذلك، فبإمكانك أن تلقي المسدَّس أرضًا لعلَّنا نتوصَّل إلى اتِّفاق يُرضي كلينا.

كان القاتلان قد توقَّفا هناك متحجِّرين، ومستعدّين للانقضاض عند أوَّل إشارةٍ من ذي القلنسوة. ابتسم بيك.

- حسنًا. - قال في النهاية - ما رأيك بهذا الاتِّفاق؟

دفع بيك رهينته أرضًا والتفت نحو ذي القلنسوة، ورفع المسدَّس. قطع دويُّ الطلقة الأولى السردابَ بأكمله. ظهرت يد جافاهال بقفَّازها من بين غيمة البارود وكانت كفُّهُ ممدودةً. خُيِّلَ إلى بيك أنَّه يرى الطلقة المسحوقة تلتمع في الظلمة وتنصهر ببطء في خيطٍ من معدنٍ سائلٍ ينزلق بين الأصابع الحادّة مثل حفنة رمل.

- تصويبٌ خاطئ أيُّها الملازم. - قال ذو القلنسوة - جرِّبْ مجدَّدًا. ولكنْ من مسافةٍ أقرب هذه المرّة.

ودون أن يعطيه الوقت ليُحرِّك إصبعًا، أمسك ذو القلنسوة يد بيك المسلَّحة وصوَّبَ المسدَّس على وجهه، وسط عينيه.

- ألم يُعلِّموك هذه المهارة في الأكاديميّة؟ - همس له.

- كنّا صديقين في زمنٍ مضى. - قال بيك.

ابتسم جافاهال باحتقار.

- ذاك زمنٌ مضى وانقضى، أيُّها الملازم.



- فليغفر لي الربّ. - انتحَبَ بيك وضغط على الزناد من جديد.

وفي لحظةٍ بدت له أبديّةً، رأى الطلقةَ تثقب جمجمة جافاهال وتُسقِطُ القلنسوة عن رأسه. اجتاز الضوءُ الجرِحَ على ذلك الوجه المتجمِّد والمبتسم. ثمَّ انغلق الثقبُ الذي فتحته الطلقة تدريجيًّا على نفسه، وشعر بيك أنَّ المسدَّس ينزلق من بين أصابعه.

تثبَّتَت عينا خصمه الناريّتان على عينيه، وانبجس لسانٌ طويلٌ وأسود من بين شفتيه.

- لعلَّك لم تدرك الأمر بعد أيُّها الملازم، أليس كذلك؟ أين الطفلان؟

لم يكن سؤالاً، إنَّما إيعاز.

نفى بيك برأسه، وقد أخرسَهُ الرعبُ.

- كما تشاء.

قبض جافاهال على يده فأحسَّ بيك بعظام أصابعه تتفجَّر تحت اللحم. وانهار على ركبتيه لفرط الألم، منقطع الأنفاس.

- أين الطفلان؟ - ردَّدَ جافاهال.

حاول بيك أن يلفظ كلمة، لكنَّ النار التي تصاعدت ممّا كان يعتبرها يدَهُ شلَّت لسانه.



- هل قلتَ شيئًا أيُّها الملازم؟ - غمغم جافاهال وجلس القرفصاء بجانبه.

أومأ بيك.

- جيِّد، جيِّد. - ابتسم العدوُّ - سأصارحك: عذابك لا يمتعني. ساعدني لنضع له حدًّا.

- لقد مات الطفلان. - قال بيك بمشقّة.

أحسَّ الملازم بعبوس الاستياء يطغى على وجه جافاهال.

- كلاّ. كلاّ. كنتَ تتصرَّف بحكمة أيُّها الملازم. لا تُفسِدِ الأمر.

- لقد ماتا. - ردَّ بيك.

رفع جافاهال كتفيه وهزَّ رأسه.

- حسنًا. - قال - لم تترك لي خيارًا آخر. ولكن قبل أن ترحل، عدني بأنَّك لن تنسى أنَّك لم تفعل شيئًا لإنقاذ كيليان عندما كانت حياتها بيديك.

رجالٌ على شاكلتك كانوا السبب في موتها. لكنَّ أيَّامهم انتهت. وأنت آخِرُهُم. والمستقبل لي.

وجَّهَ بيك نظرة استعطافٍ نحو جافاهال، ولاحظ أنَّ حدقتيه تنحسران في ثقبين ضيِّقين بحلقتين ذهبيّتين. ابتسم الرجل، وبدأ ينزع القفّاز عن يده اليمنى بعنايةٍ فائقة.

- مع الأسف، لن تعيش بما يكفي لتشهد على ذلك. - أضاف جافاهال - إيّاك أن تتوَّهمَ ولو للحظةٍ بأنَّ بطولتك هذه أفادت في شيء أنت غبيّ، أيُّها الملازم بيك ولطالما كان لديَّ هذا الانطباع بحقّك، وها أنت ذا في ساعة موتك تُؤكِّده تمامًا آمل أن يكون هناك جحيمٌ للأغبياء، يا بيك، لأنَّني سأرسلك إلى هناك بالضبط.

أغمض الملازم عينيه وأحسَّ بأجيج النار قرب وجهه. ثمَّ شعر بعد لحظةٍ لا تنتهي بأنَّ الأصابع المستعرة تشدُّ على عنقه وتخنق آخِرَ أنفاسه.

وتناهى إليه من البعيد صوتُ ذلك القطار اللعين، وصراخٌ شبحيٌّ لمئات الأطفال ما بين ألسنة اللهب. ومن ثَمَّ الظلام.

***

طافت أريامي في أرجاء الدار وأطفأت الشموع التي تضيء ملاذها شمعةً تلو أخرى. ولم تُبقِ إلاّ على ضياء النار الخجول الذي يعرض هالاتٍ متقلِّبةً على الجدران العارية. كان الطفلان نائميَن في دفء الجمر، ولا صوت يقطع السكون المميت الذي يُخيِّم على الدار قاطبةً، سوى نقر المطر على الدفَّات المغلقة وأجيج النار المتوقِّدة. دموعٌ صامتةٌ تنساب على وجهها وتسقط على إزارها المُذهَّب، بينما تأخذ بيدها المرتجفة صورة ابنتها كيليان من بين الأغراض التي تحفظها في صندوق المجوهرات المصنوع من البرونز والعاج.



كان مصوِّرٌ عجوزٌ ومتنقِّلٌ، ينحدر من بومباي، قد التقط لها تلك الصورة قبل زواجها بقليل، ورفض في المقابل أيَّ أجرة. وكانت تظهر في الصورة تمامًا مثلما تذكرها أريامي، محاطةً بذلك النور العجيب وكأنَّه يسطع من كيليان ويُبهِر كلَّ مَن عرفها، مثلما سحرت عينَ المصوِّر الخبير، الذي أطلق عليها لقبًا سيبقى عالقًا في ذاكرة الجميع: أميرة النور.

وبطبيعة الحال لم تكن كيليان أميرةً حقيقيّةً، ولم تكن مملكتها تتعدّى الطرقات التي نشأت فيها. وفي اليوم الذي غادرت فيه دار آل بوز لتسكن مع زوجها، ودَّعَها أهالي ماتشوبازار والدمع في المقل بينما كانوا يشاهدون مرور العربة البيضاء التي ستحمل معها أميرة المدينة السوداء إلى الأبد. كانت مجرَّد فتاة عندما اختارها القدر ولم تعد.

جلست أريامي بجانب الطفلين قبالة الموقد وضمَّت الصورة القديمة إلى صدرها. زأرت العاصفة من جديد فاستعادت أريامي قوّة غضبها لكي تتَّخذ قرارها. لم يكن مطارِدُ الملازِمِ بيك سيرتضي بتصفيته. أمدَّتها شجاعة الشابّ بوقتٍ إضافيٍّ ثمينٍ لا يمكنها أن تهدره مهما كان السبب، ولا حتّى للبكاء على ذكرى ابنتها. فلقد علَّمتها التجربة أنَّ المستقبل ما كان ليمنحها مزيدًا من الوقت لتندم على الأخطاء التي ارتكبتها في الماضي.

***



أعادت الصورة إلى صندوق المجوهرات وأخذت القلادة التي طلبت صوغها من أجل كيليان قبل أعوام، جوهرةٌ لم تتمكَّن يومًا من التباهي بها. صيغت من حلقتين ذهبيّتين، شمسٌ وقمر، تتركَّب الأولى على الثانية فتُشكِّلان قطعةً واحدة. ضغطت على مركز القلادة فانفصل الجزآن. أدخلت أريامي النصفين في سلسلتين ذهبيّتين كلٍّ على حدة، وعقدت على عنق كلِّ طفلٍ منهما سلسلة.

وكانت في الأثناء تُفكِّر في القرارات التي ينبغي لها اتِّخاذها. ما من طريقةٍ لإنقاذهما سوى تفريقهما وإبعاد أحدهما عن الآخر، ومحو ماضيهما وإخفاء هويَّتهما عن الناس وعن نفسيهما أيضًا، على الرغم من فداحة الطريقة ومرارتها. فليس بالإمكان الإبقاء عليهما معًا دون أن يُكشَفَ أمرهما عاجلاً أم آجلاً. ولا يسعها مواجهة هذا الخطر مهما كلَّفَ الثمن. وكان عليها أن تجد حلاًّ لهذه المعضلة قبل طلوع الضوء.

حملت أريامي الطفلين بين ذراعيها وطبعت على جبين كلٍّ منهما قبلةً حنونة. كانت أيديهما الصغيرة تداعب وجهها وأصابعهما الناعمة تلامس دموعها التي غطَّت وجنتيها، في حين كانت نظراتهما المبتسمة تُحدِّق إليها دون أن تعي شيئًا. ضمَّتهما ثانيةً ثمَّ أعادتهما إلى المهد الصغير الذي أعدَّته لهما كيفما اتَّفق.

وما إن وضعتهما حتّى أشعلت شمعة وجاءت بورقةٍ وقلم. كان مصير حفيديها بيديها آنذاك. سحبت نفسًا عميقًا وشرعت بالكتابة. كانت تسمع صوت المطر في البعيد وباتت غزارته



تتناقص وضوضاء العاصفة تهاجر نحو الشمال، لتبسط فوق كلكتا عباءةً لا حدود لها مطرَّزةً بالنجوم.

***

ظنَّ توماس كارتر أنَّ مدينة كلكتا، وقد أمضى فيها سنواته الثلاث والثلاثين الأخيرة، لن تُدهِشه بمفاجآتٍ جديدةٍ ما إن يناهز الخمسين عامًا.

وفي فجر ذلك اليوم من شهر مايو عام ١٩١٦، وبعد عاصفةٍ غير موسميّةٍ لا مثيل لها في ذاكرته، وصلته المفاجأة إلى أبواب ميتم سانتباتريك على شكل سلَّةٍ تحوي طفلاً ورسالةً مختومةً وموجَّهةً إلى عنايته حصرًا.

كانت المفاجأة مزدوجة. ففي المقام الأوَّل، لم يكن هناك في كلكتا كلِّها مَن يتجشَّم عناء إيداع طفلٍ على باب ميتم؛ فالمدينة مليئةٌ بالأزقَّة ومكبَّات النفايات والآبار ولا حاجة للذهاب بالطفل إلى الميتم. وفي المقام الثاني، لا أحد كان يكتب رسائل تقديم كتلك، ممضيَّةً ولا شكوك تطاول هويَّة كاتبها.

تفحَّصَ كارتر نظَّارته في عكس الضوء ونفخ على العدستين ليسهل عليه تلميعهما بمنديلٍ من قطنٍ خامّ وبائدٍ، يستعمله لتلك العمليّة ما لا يقلُّ عن خمس وعشرين مرَّةً في اليوم، خمس وثلاثين خلال أشهر الصيف الهنديّ.



كان الطفل مسترخيًا في الطابق السفليّ، في غرفة فينديلا، كبيرة الممرِّضات، وتحت رقابتها اليَقِظة، بعد أن فحصه الدكتور وودويرد، الذي انتُزِعَ من نومه قُبَيل الفجر، ولم يحصل على إيضاحاتٍ أخرى، باستثناء تذكيره بقَسَمِ أبقراط.

كان الطفل سليمًا بالعموم. بدت عليه بعض مظاهر الجفاف، ولكن لا أثر للحمّى التي اعتادت أن تقضي على آلاف الرُّضَّع الذين مثله لتحرمهم من حقّ بلوغ السنّ التي يتعلَّمون فيها لفظ أسماء أمَّهاتهم. ولم يكن معه شيء عدا القلادة الذهبيّة على شكل الشمس والتي حملها كارتر بيده، وتلك الرسالة. رسالةٌ تعيَّنَ عليه اعتبارها حقيقيّةً، مع انعدام احتمالاتٍ أخرى، وكانت تضعه في موقفٍ مُلزِم.

أغلق كارتر على القلادة في الدرج الأوَّل من المكتب وأخذ الرسالة من جديد، ليعيد قراءتها للمرَّة العاشرة.

السيّد كارتر الموقَّر،

أجدني مرغمةً على التماس عونك في أحلك الظروف، وأناشدك باسم الصداقة التي على حدّ علمي جمعتك لما يزيد على عشرة أعوام بزوجي المتوفّى. ففي تلك الآونة لم يُفوِّت زوجي فرصةً إلّا وامتدح نزاهتك وأمانتك الفريدة. لذا أرجوك اليومَ أن تصغي إلى توسُّلاتي، مهما بدت لك غريبةً، بالسرعة القصوى، والكتمان المطلق إن أمكن.



إنَّ الطفل الذي أجدني مرغمةً على إيداعك إيَّاه قد فقد والديه على يد مجرمٍ كان قد أقسَمَ على قتل كليهما وإبادة نسلهما لا أستطيع ولا أعتقد أنَّه من المناسب أن أطلعك على الأسباب التي دفعته لتنفيذ هذا الجرم يكفيك قولي بوجوب إبقاء مسألة الطفل سرًّا، لا ينبغي لك إبلاغ الشرطة أو السلطات البريطانيّة تحت أيّ ظرف، فللمجرم صلاتٌ بكلا الجهازين ولن يتأخَّر أيٌّ منهما في إيصاله إلى حيث يبتغي.

لا يمكنني والحال هذه أن أتولّى رعاية الطفل، لأنَّه قد يلقى مصير أبويه. لذا أرجوك أن تتكفَّلَ بأمره، وأن تعطيه اسمًا وأن تربِّيه على المبادئ القويمة التي تضمنها مؤسَّستكم، عسى أن يصبح في الغد شخصًا شريفًا ونزيهًا مثلما كان والداه.

أُدرِكُ أنَّ الطفل لن يعرف شيئًا عن ماضيه، لكنّي أجد هذا في غاية الأهمّيّة. لا أملك وقتًا كافيًا لإمدادك بتفاصيل أخرى، وأجدني مرغمةً على تذكيرك ثانيةً بالصداقة والأمانة اللتين عثرتَ عليهما لدى زوجي لأسوِّغَ لنفسي هذا الطلب.

أتوسَّل إليك أن تُمزِّق هذه الرسالة عندما تنتهي من قراءتها، إضافةً إلى أيّ أثرٍ من شأنه أن يكشف مكان الطفل. يؤسفني أنّني لم أستطع أن أطلب منك هذا الطلب شخصيًّا، فخطورة الوضع حالت دون ذلك.
إنّي على ثقةٍ من أنَّك ستَّتخذ الإجراء المناسب، فتقبَّلْ منّي امتناني أبد الدهر.

أريامي بوز



قطعتْه طرقاتٌ على الباب عن القراءة. نزع كارتر نظّارته، طوى الرسالة بعناية ووضعها في درج المكتب، وقَفَلَهُ.

- تفضَّل. - قال.

أطلَّت فينديلا، كبيرة الممرِّضات في ميتم سانت باتريك، بمظهرها الحازم والمرتاب أبدًا. لم تكن نظرتها تشي بالخير.

- في الأسفل سيِّدٌ نبيلٌ يودُّ مقابلتك. - قالت بإيجاز.

عبَسَ كارتر.

- ماذا يريد؟

- لم يشأ أن يمدَّني بأيّ تفصيل. - أجابت الممرِّضة، لكنَّها ألمحت بوضوحٍ أنَّ حدسها أنبأها بأنَّ الشبهات تحوم حول تلك التفاصيل عمومًا، هذا إن كانت هناك تفاصيل.

دخلت فينديلا المكتب، بعد صمتٍ قصير، وأغلقت الباب وراءها.

- أعتقد أنَّه جاء بخصوص الطفل. - غمغمت بنبرةٍ قلقة - لكنّي لم أخبره بشيء.

- هل تكلَّم مع أحدٍ غيرك؟ - تحرَّى كارتر.

نفت فينديلا برأسها. أومأ كارتر ودسَّ مفتاح الدرج في جيب بنطلونه.



- بوسعي أن أخبره أنَّك غير موجود الآن. - اقترحت فينديلا.

درس كارتر تلك الإمكانيّة برهةً، لكنَّه ارتأى في حال صحَّت شبهات فينديلا (وهذا ما يحدث غالبًا)، قد يساهم في هذه الحالة بتعزيز فكرة أنَّ الميتم يخفي أمرًا مّا. فاتَّخذ قراره فورًا.

- كلاّ. سأستقبله يا فينديلا. دعيه يصعد، وتأكَّدي من ألاَّ يتحدَّثَ إليه أحدٌ من الموظَّفين. تكتُّمٌ مطلقٌ حول هذه المسألة. مفهوم؟

- مفهوم.

سمع كارتر خطوات فينديلا تبتعد في الممرّ، في حين عاد يُلمِّع نظَّارته ويتحقَّق من أنَّ المطر ينقر على زجاج النافذة من جديد، وبلا هوادة.

***

كان الرجل يرتدي دثارًا أسودَ طويلاً، ورأسه ملفوفة بعمامةٍ عليها قلادة على شكل أفعى. وكان سلوكه المدروس يوحي بأنَّه تاجرٌ مترفٌ من شمال كلكتا، وملامحه تدلُّ على نحوٍ مّا على أنَّه هندوسيّ، حتّى لو عكست بشرته شحوبَ مريض، بشرة رجلٍ لم تصله أشعّة الشمس إطلاقًا. تمازجت أعراقٌ متعدِّدةٌ في كلكتا، فهنالك البنغال، والأرمن، واليهود، والأنغلوساكسون، والصينيّون، والمسلمون، فضلاً عن جماعاتٍ لا تُحصى وفدت إلى أرض كالي بحثًا عن الثروة أو الملاذ. فكان ذلك الوجه يبدو أنَّه ينتمي إلى كلٍّ من تلك الأجناس أو لا في الآن ذاته.



أحسَّ كارتر بعيني الرجل الثاقبتين مسدَّدتين إلى ظهره وتُمعِنان فيه وهو يُقدِّم فنجان الشاي من الطبق الذي جاءت به فينديلا.

تفضَّل بالجلوس. - دعاه كارتر بلطف - سُكَّر؟

- مثلما تحتسيه حضرتك.

لم يكن صوت الغريب يشي بأيّ لكنةٍ أو تعبير. ابتلع كارتر ريقه، طبع على شفتيه ابتسامةً ودودة والتفت إلى الضيف بفنجان الشاي. انغلقت أصابعه الطويلة والحادّة كالمخالب، بقفّازه الأسود، على الخزف الساخن بلا تردُّد. جلس كارتر على مقعده وحرَّك السُّكَّر في الفنجان.

- يؤسفني إزعاجك في هذه الساعة، سيّد كارتر. أتصوُّر أنَّك مشغولٌ للغاية، لذا سأوجز. - قال الرجل.

أومأ كارتر بإجلال.

- ما سبب زيارتك إذًا، سيّد... - بادر.

- أدعى جافاهال، سيّد كارتر. - أفصح الرجل المجهول - سأكون صريحًا مع حضرتك. قد يبدو سؤالي غريبًا: هل عثرتم، في الليلة الماضية أو صباح هذا اليوم، على مولودٍ لا يتعدَّى عمره أيَّامًا؟

قطَّب كارتر جبينه وأبدى أفضل تعبير عن الفجاءة، لا شديد الوضوح ولا شديد الغموض.



- مولود؟ لا أظنُّ أنّي فهمت.

غُمِرَ وجهُ الرجل، الذي قال إنَّه يدعى جافاهال، بابتسامةٍ عريضة.

- حسنًا، لا أدري من أين أبدأ. المؤكَّد أنَّها مسألةٌ محرجة. أعوِّل على كتمانك، سيّد كارتر.

- لك ذلك، سيّد جافاهال. - ردَّ المدير وهو يشرب رشفةً من الشاي.

استراح الرجل، الذي لم يمسَّ فنجانه بعد، وتهيَّأ لتوضيح مطالبه.

- لديَّ أعمالٌ تجاريّةٌ ضخمة في مجال النسيج شمال المدينة. من الممكن القول بأنّي رجلٌ ميسور الحال. يصفني أحدهم بالثريّ، ولا يخطئ في هذا. هناك عائلاتٌ كثيرة تعتمد عليَّ، ويُشرِّفني أن أعينها جميعًا، بحدود إمكانيّاتي.

- كلُّنا نفعل ما باستطاعتنا، نظرًا إلى الحالة العصيبة. - أضاف كارتر، دون أن يحيد ناظراه عن عينيه السوداوين العميقتين.

- بالتأكيد. - تابع المجهول - إلاّ أنَّ ما جاء بي إلى هنا، إلى مؤسَّستكم النبيلة، قضيَّةٌ أليمة أودُّ أن أجد لها حلاً في أقرب وقت. منذ أسبوع، أنجبت إحدى الفتيات التي تعمل في واحدةٍ من ورشاتي طفلاً. وعلى ما يبدو أنَّ والد الطفل محتالٌ أنجلوهنديٌّ كان يتردَّد إليها، وحالما ورده نبأ الحمل طمس كلَّ أثرٍ يقود إليه.



ويبدو أنَّ أهل الفتاة ينحدرون من دلهي، يبدو أنَّهم مسلمون، محافظون، ولم يكونوا على درايةٍ بالموضوع.

أومأ كارتر متعاطفًا.

- ومنذ يومين، أبلغني أحد المدراء عندي بأنَّ الفتاة هربت من المنزل في نوبة جنون، يبدو أنَّها فكَّرت أن تبيع الطفل. - تابع جافاهال - أرجو ألاَّ تحكم عليها بالسوء، فهي فتاةٌ رائعة، لكنَّها لم تحتمل كلَّ الضغوطات التي انهالت عليها. ولا ينبغي لك أن تتفاجأ. فهذا البلد، مثل بلدك أيضًا، سيّد كارتر، عديم التسامح مع نقاط ضعف البشر.

- وحضرتك تظنُّ أنَّ الطفل هنا، سيّد جاهافال؟ - سأله المدير، محاولاً العودة إلى صلب الموضوع.

- جافاهال. - صوَّب الضيفُ اسمَه - اسمعني حضرتك، الأمر الوحيد المؤكَّد هو أنَّني، ما إن وردتني الوقائع، شعرتُ بمسؤوليّتي. فالفتاة في نهاية المطاف كانت تعمل عندي. ولقد استعنتُ برجلين موثوقين للبحث عنها في طول المدينة وعرضها، واكتشفنا أنَّها باعت الصغير لمجرمٍ حقير يتاجر بالأطفال ويستخدمهم في التسوُّل. حقيقةٌ مؤلمة، لكنَّها معتادةٌ في هذه الأيّام مع الأسف. قبضنا عليه لكنَّه استطاع الهرب في اللحظة الأخيرة، في ظروفٍ لا أجد الساعة مناسِبةً للحديث فيها. حدث هذا ليلة أمس، في منطقة مجاورة من الميتم. فمن المنطقيّ أن أفترض أنَّه ترك الطفل في الحيّ، إذ خشي ممّا كان سيلقاه.



- مفهوم. - أعرب كارتر - وهل أحطتَ السلطات المحلّيّة علمًا بالمسألة، سيّد جافاهال؟ فالاتجار بالأطفال جرمٌ يعاقب عليه القانون بشدّة، ولا بدَّ أنَّ حضرتك تعرف ذلك.

شبك المجهول يديه بعضهما ببعض وتنهَّد.

- كنتُ آمل أن أحلَّ المشكلة دون الحاجة إلى هذا الخيار. - قال - لا أخفيك، إن فعلتُها ورَّطتُ الفتاةَ وظلَّ الطفلُ بلا أبٍ أو أمّ.

قيَّمَ كارتر حكاية الغريب وأومأ ببطء، أكثر من مرَّة، دليلاً على تفهُّمه. لم يُصدِّق أيَّ حرفٍ من كلِّ هذه القصّة.

- يؤسفني أنَّني لا أستطيع مساعدتك يا سيّد جافاهال. لسوء الحظّ، لم نعثر على أيّ طفل ولم يردنا خبرٌ بأنَّ شيئًا من هذا النوع قد وقع في المنطقة. - فصَّلَ كارتر - بأيّ حال، اترك لي عنوانك، وسأتواصل معك حالما يستجدُّ الموضوع، مع أنّي أسأجد نفسي مضطرًا لإبلاغ السلطات في حال دخل طفلٌ هذه المؤسَّسة. هذا هو القانون، ولا يسعني تجاهله.

حدَّقَ الرجل إلى كارتر بصمتٍ بضع ثوانٍ، دون أن يرفَّ له رمش. واجه المدير نظرته دون أن تتبدَّل ابتسامته ولو قليلاً، رغم أنَّه شعر ببطنه ينغلق ونبضه يتسارع كما لو أنَّه يواجه أفعى تتأهَّب للانقضاض عليه. وفي النهاية ابتسم الغريب، وأشار إلى الراج بهافان، مبنى الحكومة البريطانيّة، ذلك القصر المهيب الذي يتبدّى في البعيد تحت المطر.



- أنتم البريطانيّين تحترمون القانون، وهذا مبعث فخرٍ لكم. ألم يكن اللورد ويلزلي مَن نقل مقرَّ الحكومة في العام ١٧٩٩ إلى ذلك القطاع لإعطاء قانونكم زخمًا جديدًا؟ أم كان ذاك في العام ١٨٠٠؟ - سأله جافاهال.

- لا أظنُّني خيرَ عليمٍ بتاريخ هذه المدينة. - علَّقَ كارتر، مرتبكًا من المنحى الذي سلكه جافاهال في المحادثة.

قطَّبَ الزائر حاجبيه مستهجنًا ذلك الإقرار بالجهل بكلّ احترامٍ وهدوء.

- كلكتا مدينةٌ قامت قبل مئتين وخمسين عامًا تقريبًا، تاريخها قصيرٌ حتّى إنَّ أقلَّ ما نفعله تجاهها هو أن نحفظه عن ظهر قلب، سيّد كارتر.

ولكن بالعودة إلى موضوعنا، أرجِّحُ العام ١٧٩٩. وهل تعلم ما سبب النقل؟ قال الحاكم ويلزلي إنَّ الهند ينبغي أن تُحكَمَ من قصرٍ مهيمنٍ لا من بناية محاسبين؛ وبأفكار أميرٍ لا بذهنيّة تاجر بهار. أعتقد أنَّها رؤيةٌ عظيمة.

- بلا شكّ. - أكَّد كارتر وهو ينهض على قدميه، بقصد التخلُّص من هذا الزائر الغريب الأطوار.

- وستكون أعظم، إن أمكن، لو كانت في إمبراطوريّةٍ تَعُدُّ الانحطاطَ فنًّا لتكون كلكتا أهمَّ متاحفه. - أضاف جافاهال.



أومأ كارتر موافقًا دون أن يدري على ماذا.

- يؤسفني إن أهدرتُ وقتك، سيّد كارتر. - اختتم جافاهال.

- بل على العكس. - ردَّ المدير - يؤسفني إن كنتُ عاجزًا عن تقديم العون. ففي ظرفٍ كهذا، يجدر بالجميع أن يبذلوا قصارى جهودهم.

- تمامًا. - أكَّدَ جافاهال وهو ينهض بدوره - أشكرك مجدَّدًا على لطفك. أودُّ أن أطرح عليك آخِرَ سؤال.

- سأجيب بكلّ سرور. - ردَّ كارتر، آملاً في قرارة نفسه أن تحين لحظة تخلُّصه من حضرة ذلك الفرد.

- لغاية أيّ سنٍّ يبقى الأولاد عندكم، سيّد كارتر؟

لم يتمكَّن المدير من إبداء تعبيرٍ عن الفجاءة على هذا الطلب.

- آمل أنّي لم أتجاوز حدودي بهذا السؤال. - سارع جافاهال إلى التوضيح - وإن كان كذلك، فأرجوك أن تتجاهله. مجرَّد فضول.

- على الإطلاق. هذا ليس سرًّا. يبقى نزلاء ميتم سانت باتريك تحت سقفنا لغاية اليوم الذي يتمّون فيه عامهم السادس عشر. تنتهي فترة الرعاية الشرعيّة عند ذلك الحدّ. يصبحون بالغين، أو هكذا يعتبرهم القانون، ومستعدّين للاضطلاع بحياتهم. فهذه مؤسَّسةٌ متميِّزة، كما ترى.



أصغى إليه جافاهال باهتمام وبدا أنَّه يتفكَّر في الموضوع.

- أتصوَّر مدى حزنك وأنت تراهم ينصرفون بعد أن اعتنيتَ بهم طوال هذه السنوات. - لاحظ جافاهال - فحضرتك بمقام والد هؤلاء الأولاد جميعًا والحال هذه.

- هذا يُشكِّلُ جزءًا من عملي. - كذب كارتر.

- بالتأكيد. ولكن، المعذرة على جسارتي، كيف تعرفون عمر الطفل الذي لا أبوان له ولا عائلة؟ أتصوَّر أنَّها مسألةٌ تقنيّة...

- يُسجَّلُ عمرُ الطفل وفقًا لتاريخ دخوله الميتم، أو بناء على حسبة تقريبيّة تجريها المؤسَّسة. - فسَّرَ كارتر، ممتعضًا من مناقشة إجراءات الميتم مع ذلك الغريب.

- هذا يجعل منك إلهًا صغيرًا، سيّد كارتر. - علَّقَ جافاهال.

- رأيٌ لا أوافق عليه. - ردَّ المدير بجفاء.

أحسَّ جافاهال بالاستياء الذي طغى على وجه كارتر.

- المعذرة على جسارتي. سررتُ بمعرفتك، بكلّ الأحوال. قد أعود لزيارتك في المستقبل، وقد أقدِّمُ مساهمةً لمؤسَّستكم النبيلة. ربّما أعود بعد ستّة عشر عامًا وأتشرَّف بالتعرُّف على الأطفال الذين دخلوا اليوم أسرتك الكبيرة...



- سأكون مسرورًا باستقبالك، إن كان هذا ما تريده. - قال كارتر، وهو يرافق الرجل إلى الباب - يبدو أنَّ المطر يعاود الهطول بشدّة. لعلَّك تبقى هنا ريثما ينقطع.

التفت الرجل نحو المدير ولمعت جوهرتا عينيه بكثافة. كأنَّ تلك النظرة تُقيِّمُ كلَّ إيماءات كارتر وتعابيره منذ دخل المكتب، ناهيك بحشر أنفه فيما لا يعنيه، وتحليله المتأنّي لكلّ كلمةٍ لفظها. ندم كارتر على اقتراحه بأن يبقى مزيدًا من الوقت في السانت باتريك. ففي تلك اللحظة رغب في أشياء قليلة في الدنيا من بينها أن يغيب هذا الرجل عن ناظريه. وما همُّهُ لو كنس الإعصار شوارع المدينة.

- سينقطع المطر قريبًا جدًّا، سيّد كارتر. - أجاب جافاهال - شكرًا بكلّ الأحوال.

كانت فينديلا، الدقيقة كالساعة، تنتظر في الممرّ نهاية المقابلة، فلمحت الزائرَ يخرج. وما زال المدير بجانب نافذة مكتبه يراقب الشخصَ الغامضَ يبتعد تحت المطر إلى أن رآه يختفي بين الأزقّة عند سفح التلّ. ظلَّ واقفًا بناظرَين ثابتين إلى الراج بهافان، مقرّ الحكومة. وما هي إلاّ دقائق حتّى انقطع المطر فعلاً، مثلما تنبَّأ جافاهال.

صبَّ توماس كارتر لنفسه فنجانًا آخر من الشاي وجلس على أريكته يتأمَّل المدينة. كان قد نشأ في مكانٍ مشابهٍ للمكان الذي يديره حينذاك، في طرقات ليفربول. وكان ما بين أسوار تلك المؤسَّسة قد تعلَّمَ ثلاثة أمور سترافق حياته بأكملها: منح الأشياء



المادّيّة قيمتها التي تستحقُّها، محبّة الأدباء الكلاسيكيّين، وأخيرًا وليس آخِرًا، كشف الكذَّاب من على بُعد ميل.

ارتشف الشاي بلا عجالة وقرَّر البدء بالاحتفال بعيد ميلاده الخمسين، طالما أنَّ كلكتا ما زالت تعِدُهُ بالمفاجآت اقترب من الخزانة الزجاجيّة وأخرج علبةً من السيجار يحتفظ بها من أجل المناسبات المشهودة أمسك عود ثقاب وأشعل سيجارًا ثمينًا بكلّ ما يتطلَّبه الاحتفال من استرخاء.

ثمَّ استغلَّ هذه الشعلة التي جاءت في أوانها، وأخرج من الدرج رسالة أريامي بوز وحرقها. وبينما كانت الورقة تستحيل إلى رماد في إناءٍ صغيرٍ نُقِشَت عليه الأحرف الأولى من ميتم سانت باتريك، استمتع كارتر بالتبغ وإذ كان في شبابه من محبّي بنجامين فرانكلين، قرَّر أن يسمّي النزيل الجديد بِنْ، وأن يبذل جهوده كلَّها لكي يتسنّى للطفل أن يجد في هذا المكان العائلة التي سلبها منه القدر.



قبل المضيّ في سرد هذه الحكاية والدخول في تفاصيل أحداثها الأهمّ، التي وقعت بعد ستّة عشر عامًا، لا بدَّ لي من التوقُّف قليلاً لتقديم بعض شخصيّاتها. وأقول إنَّ بعضنا لم يكن قد وُلِدَ بعد، وآخرين كانت أعمارهم لا تتجاوز الأيَّام، حين وقعت كلُّ تلك الأحداث في طرقات كلكتا. لا شيء كان سيجمعنا ويوحِّدنا تحت سقف ميتم سانت باتريك سوى كوننا بلا عائلة أو بيت.

تعلَّمنا أن نعيش بالاستغناء عن هذين الشيئين، أو بالأحرى بابتكار عائلةٍ وبيتٍ لنا. عائلةٌ وبيتٌ نختارهما بأنفسنا، حيث لا وجود للصدفة أو الكذب. لا أحد منّا نحن السبعة كان يعرف أبًا غير السيّد توماس كارتر وخطاباته عن الحكمة المكنونة في صفحات دانتي وفرجيل، ولا أمًّا غير مدينة كلكتا، بأسرارها التي تسكن طرقاتها تحت نجوم شبه جزيرة البنغال.

كان لنادينا اسمٌ بديع، لا أحد يعرف أصله عدا بِنْ، الذي أطلق الاسم على هواه، مع أنَّ بعضنا شكَّ في أنَّه استمدَّه من أحد قوائم وكلاء الشحن إلى بومباي. بأيّ حال، أُسِّسَ نادي شوبار في لحظةٍ معيَّنةٍ من حياتنا، عندما لا تمدُّنا ألعاب الميتم تحدّياتٍ أكثر إغواءً. لذا كان دهاؤنا متطوِّرًا لدرجة أنَّنا كنّا نتسلَّل من الميتم في قلب الليل، بعد حظر التجوُّل الذي تفرضه فينديلا الصارمة، متوجِّهين إلى مقرّ نادينا، في الدار السرّيّة للغاية، المسحورة والتي يكثر حولها الحديث، الدار المهجورة التي شغلت طوال عقودٍ الناصيةَ ما بين شارع القطن وشارع بريبرن، في قلب المدينة السوداء، على بُعد كتلتين سكنيَّتين عن نهر هوغلي.



وللحقيقة، أقول إنَّ تلك الدار، التي أسميناها باعتزازٍ «قصر منتصف الليل» (نسبةً إلى موعد اجتماعاتنا وجلساتنا)، لم تكن مسحورةً قطّ. على أنَّ شهرتها كمكانٍ سحريّ لم تكن بعيدةً عن عملنا السرّيّ. فأحد أعضائنا المؤسِّسين، سراج، المهنيّ المصاب بالربو والمثقَّف الضليع بقصص الأشباح والرؤى والسحر بمدينة كلكتا، أَلَّفَ خرافةً مشؤومةً ومعقولةً حول ساكنٍ سابقٍ ومزعوم. وهذا ما ساعدنا على إبقاء ملاذنا السرّيّ نظيفًا وخاليًا من الدخلاء.

كانت الحكاية، باختصار، تتعلَّق بتاجرٍ عجوزٍ يظهر متدثِّرًا بعباءةٍ بيضاء ويجوب أنحاء الدار دون أن تطأ قدماه الأرض، بعينين متَّقدتين كالجمر وأنيابٍ ذئبيّةٍ تبرز من بين شفتيه، متعطِّشًا للأرواح المتهوِّرة والمتطفِّلة.

أسهم بِنْ بتفصيل العينين والنابين، بطبيعة الحال، وذلك لشغفه باختلاق الحبكات المتوحِّشة التي تضاهي حبكات الأدباء الكبار المفضَّلين لدى السيّد كارتر، بمن فيهم سوفوكليس وهوميروس الدمويّ.

وعلى الرغم من تسميته التي توحي بالمرح، كان نادي شوبار انتقائيًّا ومشدَّدًا ككلّ الأندية الموجودة في الأبنية الإدواردية في وسط مدينة كلكتا، المتشبِّهة بالأندية اللندنيّة: فصالونات الكسل ومشروب البراندي حكرٌ لأهمّ الأرستقراطيّين الساكسون. أمّا هدفنا، في ظلّ انعدام أجواء الجلالة تلك، فكان أنبل من ذلك.



نشأت فكرة النادي لتنفيذ مهمَّتين لا يجدر التهاون بهما الأولى، أن نضمن العون لكلٍّ من الأعضاء السبعة، والحماية والسند غير المشروط، مهما كان الظرف أو الخطر أو الخطب والثانية، أن نتشارك المعارف التي يحصل عليها كلٌّ واحدٍ منّا ونضعها في خدمة الجميع، لنتهيَّأ لليوم الذي كنّا فيه سنواجه العالم كلٌّ بمفرده.

وكان كلُّ الأعضاء قد أقسموا باسمهم وشرفهم (لم يكن لدينا أقارب لنُدرِجَ أسماءهم في الحلفان) على احترام هذين الهدفين وصون سرِّ الجماعة. لم تُقبَلْ عضويّةُ منتسبين جدد خلال سبعة أعوامٍ متواصلة على تأسيسه. غير صحيح: أجرينا استثناءً واحدًا وحسب، لكنَّني إذا تحدَّثتُ في هذا الشأن الآن استبقتُ الأحداث...

لم يكن هناك نادٍ اتَّحد أعضاؤه وأعطوا قيمةً قصوى للقَسَم الذي قطعوه كنادينا فبخلاف النبلاء الأثرياء من ساكني حيّ مي فير الراقي، لا أحد منّا كان لديه منزل أو عشيقة تنتظره عند مخرج قصر منتصف الليل وبخلاف الهيئات العريقة لطلبة كامبردج السابقين، كان نادينا يقبل عضويّة النساء أيضًا.

سأبدأ إذًا من المرأة الأولى التي أقسمت بصفتها عضوًا مؤسِّسًا لنادي شوبار، مع أنْ لا أحد منّا كان ينظر إليها على أنَّها امرأة (حتّى البطلة نفسها، التي كان عمرها تسعة أعوام). كانت تدعى إيزوبيل، وعلى حدّ قولها كانت قد وُلِدَت على خشبة مسرح. كانت تحلم بأن تصبح سارا برنار الجديدة، وأن تغري الجمهور من برودوي إلى شافتسبوري، وأن تجعل من نجمات صناعة السينما الوليدة في



هوليوود وبومباي عاطلات عن العمل. وكانت تجمع قصاصات من الجرائد وبرامج المسرح، وتكتب مسرحيّات (مونولوجات نشطة، على حدّ تعبيرها) وتُمثّلها على مرآنا جميعًا بنجاحٍ باهر. وكانت تؤدّي بامتيازٍ أدوارَ نساء فاتنات على شفير الهاوية. كانت إيزوبيل أفضل عقلٍ يُدبِّر للجماعة، فضلاً عن بِنْ، وذلك رغم تصرُّفاتها الغرائبيّة والميلودراميّة.

أمّا أفضل السيقان، فكانت لروشان. لا أحد كان يركض برشاقته، فقد ترعرع في حارات كلكتا تحت رعاية اللصوص والمتسوِّلين وكافّة الحيوانات في دغل الشقاء ذاك، أقصد الأحياء التي بُنِيَت في توسُّع المدينة جنوبًا. جاء به توماس كارتر إلى الميتم وهو في ربيعه الثامن، وبعد عدّة عمليّات فرار وعودة، قرَّر روشان أن يبقى معنا. ومن بين مواهبه المتعدِّدة كسر الأقفال. لا يوجد قفلٌ في الأرض يصمد أمام تقنيّاته.

تحدَّثتُ عن سراج، خبيرنا بالبيوت التي اجتاحتها الأشباح. كان سراج، رغم الربو وضعفه الجسديّ وصحّته المتردّية، يمتلك ذاكرةً موسوعيّةً خصوصًا بما يتعلَّق بقصص غموض المدينة (وفيها ما لا يقلّ عن مئة قصّة). فإذا كان بِنْ يتولّى سرد حكايات الأشباح التي تذكي سهراتنا، فإنَّ سراج هو الموثِّق لها. من شبح حصان الهاستنغ هاوس إلى طيف قائد ثورة العام ١٨٥٧ ، مرورًا بالأحداث المرعبة لما عُرِفَت بتسمية ثقب كلكتا الأسود (حيث مات أكثر من مئة رجل اختناقًا، بعد أن أُسِروا أثناء حصار حصن ويليام)، لا حادثة أو واقعة مشؤومة من تاريخ المدينة بوسعها الإفلات من



سيطرة سراجوتحليله وأرشيفه. ومن نافل القول أنَّ شغفه هذا كان مدعاةً للبهجة والفرح في نفوس الأعضاء الآخرين. غير أنَّ سوء حظّه يتمثَّل في عشقٍ لإيزوبيل يحاذي الجنون. لا تمرُّ ستّة أشهر إلاّ وسبَّبَت اقتراحاتُه بالزواج مستقبلاً (والمرفوضة في كلّ مرَّة)أزماتٍ عاطفيّةً للجماعة وحرَّضت نوبات الربو لدى العاشق المنبوذ.

كانت مشاعر إيزوبيل مكرَّسةً حصرًا لمايكل، الفتى الطويل القامة، والنحيل والصموت، الذي يهب نفسه لفترات كآبةٍ طويلة بلا سببٍ واضح، وكانت ميزته في أنَّه عرف والديه ويتذكَّرهما، وقد لقيا حتفهما في أحد فيضانات دلتا الغانج، عندما انقلب بهما مركبٌ مكتظٌّ بالناس كان مايكل يتكلَّم قليلاً ويصغي كثيرًا وهناك طريقة وحيدة لمعرفة ما الذي يُفكِّر فيه، وذلك بالإمعان في عشرات الرسوم التي يصنعها خلال اليوم. ولطالما ردَّدَ بِنْ بأنَّه لو كان ثمّة أكثر من مايكل واحد في الدنيا، كان سيسعه استثمار ثروته (التي لم يجمعها بعد) في أسهم الشركات الورقيّة.

وكان صديق مايكل المفضَّل يدعى سيث، الفتى البنغاليّ القويّ، ذا المظهر الصارم الذي لا يبتسم أكثر من ستّ مرَّات في السنة مع بعض التحفُّظات أحيانًا كان سيث دارسًا في أيّ شيء يصل إلى متناول يده، قارئًا نهمًا للأدباء العظام المفضَّلين لدى السيّد كارتر ومولعًا بالفلك. وعندما لا يكون معنا، يبذل قصارى جهوده في بناء تلسكوب غريب، لا يريك حتّى أصابع قدميك على حدّ وصف بِنْ.



وفي المقابل لم يستسغ سيث حسَّ الدعابة اللاذع الذي تفرَّدَ به بِنْ.

لم يبقَ لي سوى بِنْ، ورغم أنّي تركتُه للختام، أجدني أستصعب الحديث عنه. كان بِنْ في كلّ يوم يُظهِرُ شخصيّةً مختلفة. يتبدَّل مزاجه في كلّ نصف ساعة، وينتقل من لحظات صمت طويلة بوجهٍ حزين إلى فترات نشاط مفرط تنتهي بإرهاقنا جميعًا. ذات يوم أراد أن يصبح كاتبًا؛ وفي اليوم التالي مخترعًا وعالم رياضيّات؛ وفي اليوم اللاحق بحّارًا أو غطّاسًا؛ وفي الأيّام المتبقّية كلّ تلك المهارات وغيرها أيضًا كان يبتكر نظريّاتٍ رياضيّة لا يتمكّن هو نفسه من تذكّرها، ويكتب قصص مغامرات خرقاء لدرجة أنّه يُمزِّقها بعد أسبوعٍ من كتابتها، يدفعه إحساسٌ بالخزي من تأليفها كان يمطرنا جميعًا بأفكارٍ غرائبيّة وألعاب كلماتٍ معقّدة يرفض أن يُكرِّرها. بِنْ صندوقٌ لا قاع له، مليءٌ بالمفاجآت والألغاز، والأضواء والظلمات. كان وما زال صديقي المفضَّل، حتّى لو أنّنا لا نلتقي منذ عقود.

أمّا أنا، فلا يوجد الكثير لأرويه سمُّوني يان ببساطة كان لديَّ حلمٌ واحد، حلمٌ متواضع: أن أدرس الطبَّ وأن أمارس مهنة الطبيب وكان القدر معي كريمًا وحقّقَ لي هذا الحلم مثلما كتب بِنْ ذات مرّة في إحدى رسائله: «كنتَ مارًّا من هناك ورأيتَ ما حدث».

أذكر أنّنا، في أواخر شهر مايو ١٩٣٢، كنّا نحن أعضاء نادي شوبار السبعة نتمُّ أعوامنا الستّة عشر. موعدٌ مصيريٌّ، مخيف، ورغم ذلك ننتظره بفارغ الصبر.



ففي عمر الستّة عشر عامًا، بناء على قواعده، كان الميتم يعيدنا إلى المجتمع المدنيّ لكي نكبر رجالاً ونساءً ونصبح راشدين مسؤولين. لكنَّ لهذا الموعد معنىً آخر، استوعبناه جيِّدًا: كان يعني حلَّ نادي شوبار نهائيًّا. فاعتبارًا من ذلك الصيف، كان طرقاتنا ستتباعد، ورغم عهودنا وأكاذيبنا الودودة التي كنّا نبيعها لأنفسنا، كنّا نعلم أنَّ الرابط الذي جمعنا سينحلُّ قريبًا مثل قلعة رمل على شاطئ البحر.

أحتفظ بذكرياتٍ كثيرة من الأعوام التي أمضيناها في ميتم سانت باتريك، وما زلتُ حتّى اليوم أضحك على طرائف بِنْ والقصص الخياليّة التي تشاركناها في قصر منتصف الليل ولكن ربّما، من بين كلّ الصور التي ترفض التلاشي في مجرى الزمن، ثمّة صورةٌ أذكرها دومًا بكثافةٍ عالية، ولطالما خلتُني أراها، في الليل، في المهجع الذي كنت أتقاسمه مع كلّ الأولاد الآخرين في الميتم، صالة كبيرة وطويلة، مظلمة، سقوفها مرتفعة ومقبَّبة، تُذكِّرُ بمهاجع المستشفيات. أتخيَّل أنَّ الأرق الذي عانيتُه مدّة عامين قبل رحلتي إلى أوروبا جعلتني متفرِّجًا لما يحدث حولي، فيما الآخرون نيام.

هناك إذًا، في ذلك المكان الخالي من الزينة، بدا لي أنّني أرى ذلك النور الباهر وهو يقطع الصالة. وكنت أحار فيما ينبغي فعله، فأحاول النهوض واللحاق بانعكاسه إلى آخِر المهجع، وفي تلك اللحظة أتمعَّن فيه ثانيةً، بالطريقة نفسها التي حلمتُ برؤيتها في مناسبات أخرى.

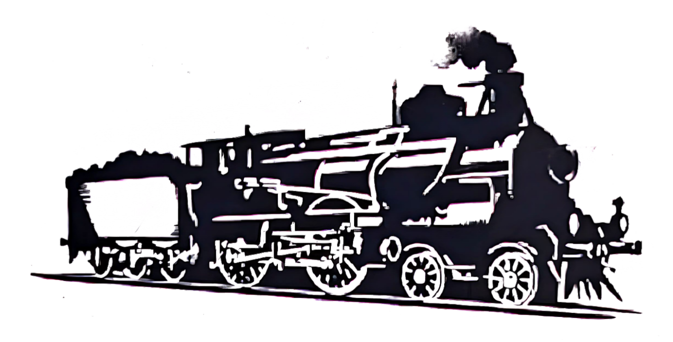


طيفٌ متبدِّدٌ لامرأةٍ متَّشحةٍ بملاءة من نورٍ شبحيٍّ تنحني ببطءٍ على السرير الذي ينام عليه بِنْ. وكنتُ أفعل المستحيل لإبقاء عينيَّ مفتوحتين وأخال أنَّني أرى تلك المرأة النورانيّة تداعب صديقي بأسلوبٍ أموميّ. كنتُ أتبصَّر في وجهها البيضويّ والشفيف والمحاط بهالةٍ بخاريّةٍ متألِّقة. كانت السيّدة ترفع عينيها وتنظر إليّ. وبمعزلٍ عن شعوري بالخوف، كنت أهيم في بئر تلك النظرة الحزينة والجريحة. كانت أميرة النور تبتسم لي، ويتبدَّد طيفها في الهواء خلال مطرٍ من دموعٍ فضّيّة.

احتفظتُ في مخيّلتي بفكرة أنَّ تلك الرؤية تُجسِّد طيف والدة بِنْ التي لم يعرفها. وفي إحدى زوايا قلبي عشَّشَ أملٌ صبيانيٌّ بأن يحرسني ذلك الملاك أيضًا إذا استطعتُ أن أنام. كان هذا هو السرّ الوحيد الذي لم أبح به لأحد، بمن فيهم بِنْ.



الليلة الأخيرة لنادي شوبار



كلكتا، ٢٥ مايو ١٩٣٢

طوال الأعوام التي أمضاها على رأس ميتم سانت باتريك، كان توماس كارتر قد قدَّمَ دروسًا في الأدب والتاريخ والحسابيَّات، ببراعةٍ متعاليةٍ يتقنها مَن ليس خبيرًا في شيء ورغم ذلك يفقه في كلّ شيء. وكانت المادّة الوحيدة التي لم يفلح في تأهيل تلاميذه عليها هي مادّة الوداع. إذ كانت تمرُّ أمام عينيه، عامًا بعد عام، تلك الوجوهُ المتفائلةُ والمتخوِّفةُ للذين سينتزعهم القانونُ باكرًا من تأثير السيّد كارتر ورعاية المؤسَّسة التي يديرها. فكلَّما رآهم يدخلون عتبة الميتم، اعتاد كارتر مقارنتهم بكتبٍ صفحاتُها بيضاء، يتولّى مَهمَّة أن يكتب عليها الفصولَ الأولى لحكايةٍ لن يُسمَحَ له بإتمامها أبدًا.

لا أحد يضاهي السيّد كارتر في الظهور بمظهرٍ حازمٍ وصارم، عصيٍّ على التعبير عن المشاعر والخطابات العاطفيّة، لإخفاء خشيته من ذلك الموعد المحتوم الذي ستهرب فيه تلك الكتب من على



سطح مكتبه إلى الأبد. ستنتقل حينذاك إلى أيدي أشخاصٍ غير معروفين، وتغدو فريسةً لأقلامٍ منعدمة الضمير لتدمغها بخاتمةٍ غامضة، لا شأن لها بالأحلام والتطلُّعات التي رافقت طيرانَ أحداقهم في تحليقٍ منفردٍ لتجوب شوارع كلكتا.

أرغمته الخبرة على عدم تلبية رغبته في رؤية تلاميذه يستهلُّون مشوارهم لحظةَ استغنائهم عن إرشاده. فالوداع بالنسبة إلى كارتر عادةً ما كان مريرًا بسبب الخيبة التي يتحقَّق منها عاجلاً، وهي أنَّ الحياة بعد أن حرمت أولئك الأولاد من ماضيهم، يبدو أنَّها سرقت منهم المستقبل أيضًا.

وفي ذلك المساء الدافئ من شهر مايو، وبينما كان يسمع أصواتهم في الحفلة المتواضعة التي نُظِّمَتّ في باحة الميتم الداخليَّة، نظر توماس كارتر من عتمة مكتبه إلى أضواء المدينة تلتمع تحت قبّة النجوم وأسراب الغيوم السوداء الهاربة نحو الأفق البعيد، مثل بقع حبرٍ في كأس ماءٍ شفيف.

ومرَّة أخرى، رفض الدعوة للمشاركة بالحفلة، وظلَّ صامتًا وغارقًا في مقعده، لا ضوء سوى انعكاسات إنارة القناديل التي علَّقتها فينديلا والأولادُ على أشجار الباحة وواجهة المبنى، مثلما تتزيَّن السفنُ عند إنزالها المياه. لم ينقصه الوقت للإدلاء بكلمات الوداع في الأيَّام التي سبقت تنفيذ القرار الرسميّ بإرجاع الأولاد إلى الشارع الذي لطالما حماهم منه.



ولم تتأخَّر فينديلا بالطرق على بابه، بحسب ما أصبح عرفًا في الآونة الأخيرة. دخلت من دون أن تنتظر إجابة، على غير المعتاد، وأغلقت الباب خلفها. حدَّق كارتر إلى وجه كبيرة الممرِّضات المزدانة بابتسامةٍ استثنائيّة، فابتسم تحت العتمة.

- هرمنا يا فينديلا. - قال مدير الميتم.

- أنت هرمت يا توماس. - صوَّبت فينديلا - أمَّا أنا فدخلتُ طور النضج. ألا تنوي النزول؟ سيُسرُّ الفتيةُ برؤيتك. سبق أن أوضحتُ لهم أنَّك لم تُخلَق للحفلات... ولكنَّهم إن كانوا لم يسمعوا كلامي طوال تلك الأعوام، فلن يستطيعوا أن يبدؤوا بذلك الآن.

أضاء كارتر مصباح المكتب ودعا المرأة للجلوس بإيماءةٍ منه.

- منذ متى ونحن نعمل معًا، فينديلا ؟ - سألها.

- منذ اثنتين وعشرين سنة، سيّد كارتر. - حدَّدت - أكثر ممَّا تحمَّلتُ زوجي المسكين، فلترقد روحه بسلام.

ابتسم كارتر على الدعابة.

- وكيف استطعتِ أن تتحمَّليني طوال هذه المدّة؟ - أراد أن يعرف
- لا تتردَّدي في الإجابة. فاليوم عطلة وأشعر أنَّني ودود.

هزَّت فينديلا كتفيها وأخذت تلاعب شريطة زينة قرمزيّة علقت بشعرها.



- لا بأس بالراتب، كما أنّي أحبُّ الأولاد. ألن تنزل؟

نفى كارتر برأسه.

- لا أريد أن أفسد فرحة الأولاد. - فسَّر - ثمَّ إنّي لن أستطيع تحمُّل فكاهات بِنْ الغرائبيّة ولو لدقيقةٍ واحدة.

- بِنْ هادئٌ جدًّا هذا المساء. - قالت فينديلا - الأمر محزنٌ، كما أتصوَّر. لقد جمع الأولاد ثمن التذكرة ليان.

أشرق وجهُ كارتر. كان أعضاء نادي شوبار (الذي كان كارتر على درايةٍ بوجوده السرّيّ، خلافًا لكلِّ التكهُّنات) يوفِّرون المال منذ أشهر لشراء تذكرة رحلةٍ بحريّة إلى ساوثهامبتون لصديقهم يان كهديّة الوداع. وقد أعرب يان على مدى سنوات عن رغبته في دراسة الطبّ، ما دعا بِنْ وإيزوبيل لحثِّ كارتر لمراسلة عدّة مدارس بريطانيّة وكتابة رسائل توصية ومناشدة لكي يحصل الفتى على منحة دراسيّة. وكان نبأ المنحة قد وصل منذ سنة، لكنَّ تكلفة الرحلة إلى لندن تجاوزت كلَّ التوقُّعات.

وإزاء هذه المعضلة، اقترح روشان السطو على شركة نقلٍ بحريٍّ تقع على بُعد كتلتين سكنيّتين عن الميتم. واقترح سراج اللجوء إلى اليانصيب. في حين سحب كارتر مبلغًا من مدَّخراته الشخصيّة المتواضعة، وكذا فعلت فينديلا ، لكنَّ هذا لم يكن كافيًا .

لذا قرَّر بِنْ أن يؤلِّف مسرحيّةً من ثلاثة فصول بعنوان «أشباح كلكتا» (خربشة عجائبيّة يلقى فيها حتّى عمّالُ الديكور مصرعهم).



أدَّت إيزوبيل البطولة بدور الليدي وبندمير، وبقيّة أعضاء المجموعة بأدوارٍ ثانويّة، وتولّى بِنْ نفسه الإخراج المتصنِّع، وقُدِّمَت المسرحيّةُ في عدّة مدارس من المدينة، وحصدت نجاحًا جماهيريًّا واسعًا، يساوي ما حصلت عليه من انتقاداتٍ لاذعة. وبهذه الطريقة جُمِعَ ما تبقّى من المبلغ لتمويل رحلة يان. وبعد العرض الأوَّل، هام بِنْ بمديحٍ متَّقدٍ للفنّ التجاريّ وفطرة الجمهور المعصومة في تبيُّنِ روائع الأعمال.

- ترقرقت عيناه دمعًا عندما أعطوه التذكرة. - قالت فينديلا.

- يان فتًى رائع، قليل الثقة بنفسه نوعًا ما، لكنَّه رائع. وسيحسن استخدام التذكرة والمنحة الدراسيّة. - أكَّد كارتر مفتخرًا.

- طلب مقابلتك. أراد أن يشكرك على المساعدة.

- هل قلتِ له إنَّني دفعتُ مالاً من جيبي؟ - سألها كارتر قَلِقًا.

- نعم فعلتُها، لكنَّ بِنْ كذَّبني قائلاً بأنَّك أهدرتَ ميزانيّة هذا العام لتوفي ديونك من القمار. - حدَّدت فينديلا.

ما زال صخب الحفلة طاغيًا على الباحة. عبس كارتر.

-هذا الولد شيطان. لو لم يوشك على المغادرة لطردتُه.

- أنت تحبُّه يا توماس. - ضحكت فينديلا وهي تقوم على قدميها
- وهو يعلم ذلك.



اتَّجهت نحو الباب والتفتت حين وصلت إلى العتبة. لم تكن تستسلم بسهولة.

- لِمَ لا تنزل؟

- ليلةً سعيدة، فينديلا!

- يا لك من عجوزٍ مملٍّ فعلاً.

-دعي عنك العمر، وإلَّا وجدتُني مجبرًا على التخلّي عن نبلي...

غمغمت فينديلا بكلماتٍ غير مفهومة عن انعدام الجدوى من وجوده وتركته وحيدًا. أطفأ مدير الميتم مصباح مكتبه ثانيةً، ودنا بهدوء من النافذة ليتلصَّص على الحفلة من بين فتحات الدفَّة الخشبيَّة: حديقةُ الشعلات المتوهِّجة، والقناديل تضيء وجوهًا مألوفةً وباسمةً تحت البدر. زَفَرَ كارتر. لا يعلمون أنَّ لكلٍّ منهم تذكرةً للذهاب إلى مكانٍ مَا، سوى أنَّ يان وحده كان يعرف وجهة رحلته.

✵✵✵

- عشرون دقيقة تفصلنا عن منتصف الليل. - أعلن بِنْ.

كانت عيناه تلمعان وهو يراقب الشعلات المتوهِّجة كيف تنثر مطرًا من خطوطٍ متَّقدة في الهواء.



- آمل أن تكون لدى سراج حكاياتٌ جيّدة للسهرة. - قالت إيزوبيل وهي تتفحَّص قعر الكأس تحت العتمة، كأنَّها تتوقَّع أن تجد فيه شيئًا مَا.

- سيكون لديه أروع الحكايات. - طمأنها روشان - فهذه ليلتنا الأخيرة. نهاية نادي شوبار.

- أتساءل ما الذي سيحلُّ بالقصر. - قال سيث.

لم يشر أحدٌ منهم إلى الدار المهجورة بتسميةٍ أخرى منذ أعوام.

- احزر. - تدخَّلَ بِنْ - مخفر أو مصرف. أليس هذا ما يبنونه كلَّما هدموا بناءً في كلّ مدن العالم؟

انضم سراج إليهم وراح يُقيِّمُ تنبُّؤات بِنْ المشؤومة.

-لعلَّهم يفتتحون مسرحًا. - علَّقَ الفتى السقيم وهو يرنو إلى حبّه المستحيل، إيزوبيل.

رفع بِنْ عينيه إلى السماء وهزَّ رأسه. لا يرى سراج حدود الكرامة إذا تعلَّقَ الأمر بالتودُّد لإيزوبيل.

- ربما لن يمسُّوه. - قال يان، الذي ظلَّ يصغي إلى أصدقائه ويسترق النظر إلى ما كان مايكل يرسمه على ورقةٍ صغيرة.

- ماذا ترسم يا كانال الصغير ؟ - استفسر بِنْ بنبرةٍ لطيفة.



رفع مايكل عينيه عن الرسمة للمرَّة الأولى فرأى أصدقاءه ينظرون إليه كما لو كان قد سقط من السماء توًّا. ابتسم باستحياء وعرض اللوحة على جمهوره.

-نحن. - فسَّرَ المصوِّر الرسميّ للنادي.

حدَّقَ أعضاء نادي شوبار الستّة إلى الصورة لمدّة خمس ثوانٍ طويلة بصمتٍ خَشوعٍ. وكان بِنْ أوَّل من أشاح بصره. عرف مايكل في وجه صديقه ذلك التعبير العنيد الذي يراوده كلَّما نزلت به الكآبةُ على نوباتٍ مستغربة.

-أهكذا يبدو أنفي؟ - اعترض سراج - أنفي ليس هكذا. يبدو سنَّارة صيد!

- بل هذا هو أنفك! - أكَّد بِنْ، وطبع على وجهه ابتسامةً - خدعت الجميع ما عدا مايكل - لا تحزنْ، فلو أنَّه رسمك بمقطعٍ جانبيٍّ، لما نجَمَ عن ذلك سوى خطٍّ مستقيم.

- أرني! - قالت إيزوبيل وهي تستحوذ على الرسمة لتتفحَّصها تحت ضوء قنديلٍ مرتعش - أهكذا ترانا ؟

أومأ مايكل بنعم.

- رسمتَ نفسك وأنت تنظر إلى جهةٍ مختلفةٍ عن الآخرين. - لاحظ يان.

- مايكل يرى دومًا ما لا يراه الآخرون. - قال روشان.



- وما الذي رأيتَهُ فينا ولم يره أحد، مايكل؟ - سأله بِنْ .

اقترب بِنْ من إيزوبيل وعاين الصورة. كانت خطوط قلم الرصاص الناعمة قد جمعتهم معًا قبالة بركة مياهٍ تنعكس وجوهُهم على سطحها. وفي السماء بدرٌ كبير، وفي الخلفيّة غابةٌ تمتدُّ إلى البعيد. تفحَّصَ بِنْ انعكاس الوجوه وقارنها بوجوه أصحابها الواقفين أمام البركة. لم تكن التعابير متطابقةً بين الوجوه وانعكاساتها. قطع عليه صوتُ إيزوبيل سلسة أفكاره.

- هل لي أن أحتفظ بها يا مايكل؟

- ولماذا أنتِ بالذات ؟ - اعترض سيث.

حطَّ بِنْ يده على كتف الفتى البنغاليّ المكتنز وتوجَّهَ إليه بنظرةٍ خاطفةٍ ومكثَّفة.

- دعها لها.

أومأ سيث موافقًا وربَّتَ بِنْ على كتفه، بينما كان يرى بطرف عينه سيّدةً عجوزًا، أنيقة الهندام، ترافقها فتاةٌ من عمره تقريبًا ، تجتازان عتبة باحة الميتم وتتَّجهان نحو المبنى الرئيس.

- هل من مشكلة ؟ - سأله يان هامسًا.

نفى بِنْ برأسه.



- لدينا زيارة. - قال دون أن ينزع نظره عن العجوز والفتاة - أو شيءٌ من هذا القبيل.

***

عندما طرق بانكيم الباب، كان توماس كارتر قد لاحظ وصول تلك المرأة ومرافقتها وهو يتلصَّص على الحفلة عبر النافذة. أضاء مصباح المكتب وأمر مساعده بالدخول.

كان بانكيم شابًّا تتَّضح على تقاسيم وجهه السماتُ البنغاليّة، ناهيك بعينيه الحيويَّتين والثاقبتين. وكان قد ترعرع في الميتم، وعاد إليه ليُدرِّسَ الرياضيّات والفيزياء بعد أعوامٍ طويلة أمضاها في مدارس الناحية. وكان مآله السعيد أحد الاستثناءات النادرة التي ترفع معنويّات كارتر عامًا بعد عام. ليس له أن يتخيَّل مكافأةً على جهوده أفضل من رؤية بانكيم هناك، شابًّا راشدًا، يؤهِّلُ فتيةً آخرين في القاعات نفسها التي ارتادها في صغره.

- يؤسفني إزعاجك، توماس. - قال بانكيم - هناك سيّدةٌ في الأسفل، تقول إنَّها في أمسِّ الحاجة إلى مقابلتك. قلتُ لها إنّ حضرتك غير موجود، وإنَّنا نحيي حفلةً هذا المساء، لكنَّها لم تشأ أن تُصدِّقني وألحَّت بعنف، كي لا نقول شيئًا آخر.

نظر كارتر إلى مساعده مذهولاً، ثمَّ نظر إلى الساعة.

- نحن في منتصف الليل تقريبًا. - قال - مَن هي هذه المرأة ؟



رفع بانكيم كتفيه.

- لا أعرف مَن تكون، كلُّ ما أعرفه أنَّها لن تنصرف من هنا ما لم تسمح لها بمقابلتك.

- ألم تقل ما الذي أتى بها إلى هنا ؟

- لكي تُسلِّمك هذه وحسب. - قال بانكيم وأعطى لكارتر سلسلةً صغيرةً وبرَّاقة - أضافت أنَّ حضرتك تعلم الأمر جيّدًا.

أخذ كارتر السلسلة وتفحَّصها على ضوء المصباح. كان فيها قلادة، حلقةٌ تُمثِّل قمرًا ذهبيًّا. تأخَّرت الصورة بضع ثوان قبل أن تضيء في ذاكرته. زمَّ كارتر شفتيه وأحسَّ بغصَّةٍ في فؤاده. كانت لديه قلادة تشبه تلك، مخبَّأة في محفظة مجوهرات وقد أقفل عليها داخل الخزانة الزجاجيّة في مكتبه. قلادةٌ لم يرها منذ ستَّة عشر عامًا.

- هل من مشكلة، توماس ؟ - سأله بانكيم، قَلِقًا من تبدُّل التعبير الذي لاحظه على وجه كارتر.

ابتسم مدير الميتم قليلاً ونفى برأسه، ووضع السلسلة الصغيرة في جيب قميصه.

- لا شيء. - أجاب باقتضاب - دعها تصعد. سأستقبلها.

نظر إليه بانكيم مذهولاً حتى ظنَّ كارتر لوهلةٍ أنَّ تلميذه القديم يكاد ينطق السؤال الذي لا يريد أن يسمعه. لكنَّ بانكيم هزَّ رأسه



مذعنًا، وخرج من المكتب بعد أن أغلق الباب برفق. مضت دقيقتان فإذا أريامي بوز تدخل خلوة توماس كارتر، وتنزع الحجابَ الذي يغطّي وجهها.

***

لاحظ بِنْ أنَّ الفتاة كانت تنتظر بفارغ الصبر تحت قوس المدخل الرئيس لمبنى ميتم سانت باتريك. وعندما ظهر بانكيم ثانيةً وطلب من العجوز أن تتبعه، أمرت الفتاةَ بأن تنتظرها بجانب الباب كتمثال. كان من الواضح أنَّ العجوز جاءت لزيارة السيّد كارتر، افترض بِنْ آخذًا بالحسبان ضحالة الحياة الاجتماعيّة للمدير أنَّ زيارات منتصف الليل التي تقوم بها نساءٌ ذوات جمالٍ غامض، بصرف النظر عن العمر، تندرج في عِداد الزيارات غير المتوقَّعة. ابتسم وركَّزَ انتباهه على الفتاة مجدَّدًا. كانت طويلة ورشيقة، ترتدي ثيابًا بسيطةً على الرغم من خروجها عن المعهود، تبدو مفصَّلةً بأسلوبٍ شخصيّ، أي لم تشترها من إحدى أسواق المدينة السوداء. لم يستطع بِنْ رؤية وجهها جيِّدًا من تلك المسافة، لكنَّه بدا منحوتًا بملامح ناعمة، وبشرتها ناصعة.

- هل من أحدٍ هنا ؟ - همس يان في أذنه.

أشار بِنْ إلى الفتاة برأسه، دون أن يرفَّ له رمش.

-شارفنا على منتصف الليل. - أضاف يان - سنجتمع في القصر بعد قليل. الجلسة الختاميّة، أذكِّرُك.

أومأ بِنْ سارحًا.

- مهلاً. - قال واتَّجه نحو الفتاة بخطواتٍ واثقة.

- بِنْ! - ناداه يان من خلفه - ليس الآن...

لكنَّه تجاهل نداء صديقه. إذ كان فضوله لحلّ ذلك اللغز أقوى من كلّ بروتوكولات النادي الرسميّة. اعتمد ابتسامته الأرقَّ التي توحي بأنَّه تلميذٌ مثاليٌّ وذهب مباشرةً نحو الفتاة.

- مرحبًا. أنا مساعد السيّد كارتر، مدير الميتم. - قال بِنْ بنبرةٍ مرحة - هل يمكنني فعل شيءٍ من أجلكِ؟

- في الحقيقة، لا. لأنّ... زميلك رافق جدَّتي لدى المدير. - قالت الفتاة.

- جدَّتك؟ - سألها بِنْ - مفهوم. آمل أَلَّا يكون في الأمر مكروه. أقصد، إنَّنا في منتصف الليل، فتساءلتُ ما إذا وقعت مشكلةٌ كبيرة تستدعي المجيء في هذه الساعة.

رسمت الفتاة ابتسامةً واهنة وأومأت نافيةً. فبادلها بِنْ الابتسامة. لم تكن فريسةً سهلة.

- اسمي بِنْ. - قال بنبرةٍ مؤدَّبة.

- شير. - ردَّت الفتاة وهي تنظر إلى الباب، كأنَّها تنتظر عودة جدَّتها بين لحظةٍ وأخرى.



فرك بِنْ يديه.

- حسنًا، يا شير. قال - بينما يرافق زميلي بانكيم جدَّتك إلى مكتب المدير السيّد كارتر، بوسعي أن أعرض عليكِ ضيافتنا. فالمدير يلحُّ دومًا على أداء واجبنا بحسن ضيافة زوَّارنا.

- ألستَ صغيرًا لتكون مساعد المدير ؟ - تقصَّت شير، متحاشيةً نظرات الفتى.

- صغير؟ - ردَّد بِنْ - شكرًا على الإطراء، ولكن يؤسفني أن أخبركِ بأنَّني سأتمُّ ثلاثة وعشرين عامًا عمَّا قريب.

- ما كنتُ لأتخيَّلَ ذلك.

- شؤونٌ وراثيّة. - فسَّر بِنْ - فبشرة الجميع في عائلتي تقاوم الشيخوخة. خذي أمّي على سبيل المثال: عندما تتجوَّل معي في الشارع، يحسَبونها شقيقتي.

- حقًّا؟ - سألته وهي تكتم ضحكةً رنَّانة. لم تُصدِّق أيَّ كلمةٍ من تلك الحكاية.

- والآن، بخصوص ضيافة ميتم سانت باتريك؟ - ألحَّ بِنْ - أحيينا اليوم حفلة وداع لبعض الأولاد الذين سيغادروننا. وهذا محزن، لكنَّ هناك حياةً بأكملها في انتظارهم. وهذا مؤثِّر.

ثبَّتَت شير عينيها اللامعتين على بِنْ، ورسمت شفتاها ابتسامةً توحي بعدم التصديق.



- جدَّتي طلبت منّي أن أنتظرها هنا.

- هنا ؟ - أشار الفتى إلى الباب - هنا، بالضبط ؟

أومأت شير من دون أن تفهم.

- انظري. - بادر بِنْ بالحديث وهو يُلوِّح بيديه - يؤسفني أن أخبرك بالأمر، ظننتُ أنَّه من غير الضروريّ التحدُّث فيه. أعرف أنَّ ما سأقوله يعطي صورةً غير مستحسنة عن مؤسَّستنا، لكنَّ احتمال انهيار الواجهة قائم.

نظرت إليه مذهولةً.

- انهيار؟

أومأ بِنْ بتعبيرٍ متأسِّف.

- إنَّه أمرٌ محزنٌ في الواقع. - أكَّد مستاءً - هنا، في النقطة التي تقفين فيها تمامًا، كانت السيّدة بوت، طبَّاختنا العجوز، حفظها اللّه، قد سقطت عليها قرميدةٌ من الطابق الثاني، قبل أقلّ من شهر.

ضحكت شير.

- لا يبدو لي هذا الحدث المؤسف مدعاةً للضحك، إن سمحتِ لي بإبداء الملاحظة. - قال بِنْ بجدِّيَّة.

- لا أصدِّق أيَّ كلمةٍ مِمَّا تقول. لستَ مساعد المدير، وليس عمرك ثلاثة وعشرين عامًا، ولم يسقط على الطبَّاخة وابلٌ من القرميد



قبل شهر. - تحدَّته شير - أنت كاذب ولم تنطق بأيٍّ كلمة صادقة منذ بادرتَ إلى الكلام.

قيَّمَ بِنْ الموقف. كان الجزء الأوَّل من حيلته ضعيفًا، مثلما كان متوقَّعًا، ويستوجب تعديلاً رزينًا لحديثه شرط أن يُبنى على الفطنة.

- حسنًا، أعترف بأنَّ الخيال شرد بي قليلاً، ولكن، ليس كلُّ ما قلتُه كذبًا.

- آه، حقًّا؟

- لم أكذب بما يخصُّ اسمي، على سبيل المثال. أدعى بِنْ. وكنتُ صادقًا حتَّى في عرض الضيافة.

افترَّت من شير ابتسامةٌ عريضة.

- كان يسعدني أن أقبل عرضك يا بِنْ. ولكن يتوجَّب عليَّ الانتظار هنا. حقًّا.

فرك بِنْ يديه وعبَّرَ بما ينمُّ عن استسلامٍ هادئ.

- لا بأس. سأنتظر معكِ. وإن سقط القرميد، فليسقط عليَّ أيضًا.

رفعت شير كتفيها بلامبالاة، وأومأت وهي تُوجِّه ناظرَيها نحو الباب من جديد. مرَّت دقيقةٌ طويلةٌ دون أن يفتح أحدٌ منهما فمه.

- الطقس حارٌّ هذا المساء. - بادر بِنْ.



التفتت شير ورمته بنظرةٍ قاسية نوعًا ما.

- هل تنوي البقاء هنا طوال الليل؟ - سألته.

- فلنبرم اتِّفاقًا. تعالي لشرب كأس من الليموناضة اللذيذة والباردة معي ومع أصدقائي، ثمَّ أتركَكِ تذهبين وشأنكِ. - اقترح بِنْ.

- لا أستطيع يا بِنْ. حقًّا.

- سنذهب على بُعد عشرين مترًا من هنا. - أضاف - بإمكاننا أن نضع جرسًا على الباب.

- هل الأمر مهمٌّ جدًّا بالنسبة إليك؟ - سألته.

أومأ بِنْ بنعم.

- إنّه أسبوعي الأخير في هذا المكان. أمضيتُ هنا حياتي كلَّها، وسأكون وحيدًا من جديد في غضون خمسة أيَّام. وحيدٌ حقًّا. لا أدري إن كنتُ أستطيع قضاء أمسيةٍ أخرى كهذه، مع أصدقائي. لا يمكنكِ أن تفهمي معنى ما أقول.

حدَّقت إليه شير طويلاً.

- أفهمك بالتأكيد. قالت في النهاية - فلنذهب لشرب الليموناضة.

✵✵✵



ترك بانكيم السيّدة في المكتب وخرج ولم يكن مطمئنًّا كفاية. صبَّ كارتر لنفسه كأس براندي صغيرة وعرض مثلها على ضيفته. رفضت أريامي وانتظرت أن يشغل مكانه على المقعد، عند النافذة الزجاجيَّة التي تطلُّ على احتفال الأطفال، الذين لا يعرفون مدى الصمت المطبق في ذلك المكتب. رطَّبَ كارتر شفتيه بالمشروب ووجَّه نظرةً مسائلةً للمرأة العجوز. لم يُغيِّر الزمنُ ملامح القوّة في وجهها، كما أنَّ عينيها ما زالتا تنبئان بنيران وجدانها التي تُذكِّر بأنَّها كانت زوجة صديقه المفضَّل، في حقبةٍ بدت حينذاك بعيدةً جدًّا. نظر كلٌّ منهما إلى الآخر طويلاً، في صمت.

- أسمعكِ. - قال المدير في النهاية.

- منذ ستَّة عشر عامًا استودعتُك حياة طفل، يا سيّد كارتر. - بدأت أريامي كلامها بصوتٍ خفيض، لكنَّه حازم - كنتُ مرغمةً، وكان أصعب قرار اتَّخذته في حياتي، وأعرف أنَّك لم تخذلني خلال هذه الأعوام. لم أشأ أن أتدخَّل في حياة الصبيّ، مدركةً عدم وجود أفضل مكانٍ من هذا يأوي إليه، تحت رعايتك. ولم تتسنَّ لي الفرصة لأشكرك على ما صنعته من أجله.

- إنَّما أدَّيتُ واجبي. - ردَّ كارتر - لكنِّي لا أظنُّ أنَّ هذا سبب مجيئكِ اليوم، في هذه الساعة من الليل.

- كان يسعدني أن أقول إنه كذلك، ولكن غير صحيح. - قالت أريامي - جئتُ لأنَّ حياة الفتى في خطر.

- بِنْ.



- هذا الاسم الذي أطلقتَه حضرتك عليه. إنَّ الصبي مدينٌ لك بكلِّ ما يعرفه وكلِّ ما وصل إليه، سيّد كارتر. - قالت أريامي - ولكن، هناك أمرٌ لا يسعني ولا يسعك أن نحميه منه طويلاً: الماضي.

تشابكت عقاربُ ساعة توماس كارتر عند منتصف الليل بالضبط. أنهى كأس البراندي التي صبَّها لنفسه وألقى بنظرةٍ من النافذة إلى الباحة. كان بِنْ يخاطب فتاةً لم يرها المدير من قبل.

- أكرِّر: أسمعكِ. - قال.

عدَّلت أريامي جلستها وضمَّت يديها، وبدأت حكايتها...

***

- خلال هذه الأعوام الستَّة عشر، قطعتُ البلاد بالطول والعرض بحثًا عن مأوىً موقت وملاذٍ أمين. ومنذ أسبوعين نزلتُ أقلَّ من شهر لدى بعض أقاربي ريثما أشفى من مرضٍ مباغت، وتلقَّيتُ رسالةً في إقامتي الموقتة في دلهي. لم يكن أحدٌ يعلم ولا بوسعه أن يعلم أنَّني وحفيدتي كنَّا هناك. وحين فتحتُها رأيتُ أنّها تحتوي على ورقةٍ بيضاء، ليس فيها أيُّ كلمة. فظننت أنَّه خطأ، أو مزحة ربَّما، إلى أن دقَّقتُ في المظروف. كان عليه ختم مكتب البريد الرسميّ بكلكتا. الحبر باهتٌ ومن الصعب فهم كلِّ ما كان مكتوبًا، لكنّي استطعتُ أن أحدِّدَ التاريخ. ٢٥ مايو ١٩١٦.

حفظتُ الرسالة التي على ما يبدو استغرقت ستَّة عشر عامًا لكي تقطع الهند قاطبةً وتصل إلى باب ذلك البيت، المكان الذي لا



يعرف أحدٌ كيف يدخله غيري، ولم أعد إليها حتَّى ذلك المساء نفسه. لم يخذلني بصري المنهك: كان التاريخ هو ما ظننتُ أنِّي رأيتُه على الختم الباهت، إلَّا أنَّ شيئًا تغيَّر. فعلى الصفحة التي كانت بيضاء من قبل ظهرت جملةٌ مكتوبةٌ بحبرٍ أحمر وطازج، حتَّى إنَّ الأحرف كانت تتبعثر على الورقة بمجرّد ملمس الأصابع. «ما عادا طفلين الآن، أيتّها العجوز. لقد عدتُ لاسترداد ما هو لي. فلا تعترضي طريقي». كانت هذه هي الكلمات التي قرأتُها في تلك الرسالة قبل أن أقذفها إلى النار.

ففهمتُ في تلك اللحظة مَن أرسلها، وفهمتُ أنَّ لحظة نبش الذكريات القديمة التي تعلَّمتُ تناسيها في الأعوام الأخيرة قد حانت. لا أعرف إن كنتُ قد حدَّثتُك عن ابنتي كيليان، سيّد كارتر. لقد بتُّ عجوزًا تنتظر نهاية أيَّامها، لكنِّي في السابق كنتُ أُمًّا أنا أيضًا، أُمًّا لإحدى أجمل الفتيات اللواتي وطئت أقدامُهنَّ طرقات هذه المدينة.

أذكر تلك الأيَّام بأنَّها أسعد أيَّام حياتي. تزوَّجتْ كيليان واحدًا من أكثر الرجال تألُّقًا الذين أنجبهم هذا البلد، وذهبا للعيش معًا في الدار التي شيَّدها بنفسه في القطاع الشماليّ من المدينة، دارٌ ليس لها مثيل. كان زوج ابنتي، لاهافاج تشاندرا تشاترغي، مهندسًا وكاتبًا. كان أوَّلَ مَن خطَّطَ مشروع الشبكة التلغرافيّة في هذا البلد، سيّد كارتر، أوَّلَ مَن خطَّطَ منظومة الكهرباء التي ستكتب مستقبل مدننا، أوَّلَ مَن بنى الشبكة الحديديّة في كلكتا... أوَّلَ مَن نَفَّذ كلَّ ما خطَّطَ له.



لكنَّ سعادتهما لم تدم طويلاً. فَقَدَ تشاندرا تشاترغي حياته في الحريق الرهيب الذي دمَّر محطَّة جيتر القديمة، على الضفَّة الأخرى من نهر هوغلي. لا بدَّ أنَّك رأيتَ ذلك المبنى. إنَّه مهجورٌ اليوم، لكنَّه في زمانه كان إحدى أشهر المنشآت في كلكتا. هيكليَّته الحديديّة ثوريّة، محفورةٌ بالأنفاق، ومتعدِّدة المستويات، ومزوَّدة بأنظمة تهوية وتوصيلاتٍ هيدروليكيّةٍ إلى السكك جذبت مهندسين من شتَّى أصقاع الأرض لرؤيتها متعجِّبين.

كلُّها من ابتكار المهندس تشاندرا تشاترغي.

وفي يوم الافتتاح الرسميّ، احترقت محطّة جيتر لسببٍ مبهم، وشبَّت النيران في قطارٍ كان ينقل أكثر من ثلاثمئة طفلٍ يتيم إلى بومباي، وظلَّ دفينًا في ظلمات الأنفاق تحت الأرض. لم يخرج أحدٌ حيًّا ذلك القطار، وما زال هامدًا بين ظلال بين سراديب تلك المتاهة الأرضيّة في الضفة الغربيّة من كلكتا.

سيبقى المساء الذي مات فيه المهندس داخل ذلك القطار مشهودًا لدى الأهالي باعتباره أسوأ مأساة عاشتها المدينة. يراه كثيرون رمزًا لتخييم الظلام عليها إلى الأبد. انتشرت شائعاتٌ تَتَّهم مجموعةً من رؤوس الأموال البريطانيّة بالضلوع في الحريق، إذ كانوا يتآمرون لإضرار خطّ السكك الجديد ، بوصفه خطرًا يُهدِّد نقل البضائع عن طريق البحر، الذي تشتهر به كلكتا منذ أيام اللورد كلايف والشركة الاستعماريّة. القطار هو المستقبل. وخطوطه هي الطريق الذي ستسير عليه هذه البلاد وهذه المدينة



نحو غدٍ متحرِّرٍ من الغزو البريطانيّ. لكنَّ هذه الأحلام، مساء حريق محطة جيتر، تحوَّلت إلى كوابيس.

بعد أيّامٍ على رحيل المهندس تشاندرا، خضعت ابنتي كيليان، التي كانت تنتظر مولودًا، لتهديداتٍ شخصيّةٍ غريبة ظهرت من ظلمات كلكتا: مجرمٌ أقسَمَ على قتل زوجة وذريّة الرجل الذي اعتبره مسؤولاً عن كلّ مصائبه. هو المجرم الذي سبَّبَ الحريق الذي فقد فيه تشاندرا حياته. فتطوَّعَ ضابطٌ شابٌ من الجيش البريطانيّ، وكان قد طلب في السابق يد ابنتي، الملازم مايكل بيك، تطوَّعَ لإيقاف ذلك المجنون، لكنَّ المهمّة اتَّضحت أنَّها أعقد ممّا توقَّع.

وفي المساء الذي كانت فيه ابنتي ستضع حملها، دخل رجالٌ إلى الدار وأخذوها معهم. كانوا قتلة. أناسٌ بلا اسمٍ ولا ضمير، من السهل العثور على أمثالهم في طرقات هذه المدينة بأجرٍ زهيد. وقد فتَّشَ الملازم كلَّ زاوية في المدينة بحثًا عن ابنتي، وكان على شفا الإحباط. وبعدئذٍ راوده حدسٌ رهيبٌ واتَّضح أنَّه صحيح. كان المجرم قد اقتادها إلى داخل أنقاض محطة جيتر. وهناك، ما بين القمامة وركام المأساة، أنجبت ابنتي الطفلَ الذي جعلتَ منه أنت رجلاً، يا سيّد كارتر.

أجل، إنّه هو بالضبط، بِنْ؛ أمّا شقيقته فهي التي حاولتُ أن أجعل منها امرأةً، وقد سمَّيتُها باسمٍ لطالما حلمتْ أُمُّها بتسميتها به: شير.



خاطر الملازم بيك بحياته، وتمكَّنَ من انتزاع الطفلين من قبضة المجرم. لكنَّ ذلك المجرم، وقد أعمى الغضبُ بصيرتَهُ، أقسم أن يتقفّى أثرهما وأن يقتلهما ما إن يبلغا سنَّ الرشد، لينتقم من والدهما، المهندس تشاندرا تشاترغي. كان هدفه الوحيد هو أن يمحو أيَّ أثرٍ لأعمال عدوِّهِ وحياته، مهما كلَّف الثمن.

توفِّيت كيليان وهي ترجو أَلَّا ترقد روحها بسلام قبل أن تطمئنَّ على سلامة ابنيها. فضحّى الملازم بيك بنفسه، وهو الذي أحبَّها بصمتٍ بقدر ما أحبَّها زوجُها على الأقلّ، لتحقيق رجائها الذي كان آخِرَ ما جرى على شفتيها. وفي الخامس والعشرين من شهر مايو عام ١٩١٦، قطع بيك نهر هوغلي وسلَّمني الطفلين. وما زلتُ حتَّى اليوم أجهل مصيره.

قرَّرتُ حينئذٍ أن السبيل الوحيد لنجاتهما كان في الفصل بينهما، وإخفاء هويَّتهما ومكان إقامتهما. وحضرتك تعرف بقيَّة قصَّة بِنْ أفضل منّي. أمّا بخصوص شير، فلقد تولَّيتُ أمر الاعتناء بها، وباشرتُ رحلةً طويلةً في طول البلاد وعرضها، وربَّيتُها على ذكرى أبيها ذلك الرجل العظيم، وذكرى المرأة العظيمة التي جاءت بها إلى الدنيا، ابنتي. لم أروِ عليها أكثر مما اعتقدتُ أنَّه ضروريّ. وكنت ساذجةً حتّى خلتُ أنَّ المسافة في الزمان وفي المكان تكفي لمحو أثر الماضي، فاكتشفتُ أن لا شيء يُغيِّرُ خطواتنا الضائعة. عندما تلقَّيتُ تلك الرسالة، أدركتُ أنَّ هروبي شارَفَ على نهايته وأنَّ لحظة العودة إلى كلكتا لتنبيهك ممّا سيجري قد حانت. لم أكن



صادقةً معك في تلك الليلة التي راسلتُك بها سيّد كارتر، لكنّي اتَّبعتُ قلبي، ظنًّا منِّي أن ذلك هو أفضل شيءٍ أفعله .

أخذتُ حفيدتي معي، إذ لم يكن بوسعي أن أتركها وحيدةً وقد عرف المجرم عنوان ملاذنا، وبدأتُ برحلة العودة. وكنتُ طوال الرحلة ألهج بفكرةٍ تغدو هاجسًا كلَّما اقتربنا من وجهتنا. كنتُ على يقينٍ بأنَّه حالما يصبح بِنْ وشير بالغَيْن ويتركان الطفولة خلفهما، سيستفيق ذلك المجرم من الظلمات ليحقِّقَ عهده القديم، وأدركتُ بوضوحٍ يمدُّنا به دنوُّ المأساة، أنَّه لن يعترض طريقه هذه المرَّة أحد...

✵✵✵

ظلَّ توماس كارتر صامتًا طوال ذلك الوقت، دون ان يحيد ناظراه عن يديه اللتين على المكتب. وعندما رفع عينيه، رأى أنَّ أريامي ما زالت هناك، ما يعني أنَّ ما أصغى إليه ليس من صنع خياله، وأنَّ أعقل قرارٍ يتَّخذه في تلك اللحظة هو أن يصبَّ كأسًا أخرى من البراندي وأن يشرب النخب بمفرده.

- حضرتك لا تُصدِّقني...

- لم أقل هذا. - حدَّدَ كارتر .

- لم تقل شيئًا. - ردَّت أريامي - وهذا ما يقلقني.



تذوَّقَ كارتر من البراندي وتساءل بماذا أهدر عشرة أعوامٍ من عمره قبل أن يكتشف نشوة ذلك المشروب الرائع الذي كان يحتفظ به في الخزانة الزجاجيَّة كما لو كان غرضًا لا جدوى منه.

- ليس من السهل تصديق ما رويتِهِ عليَّ يا أريامي. - أجاب - ضعي نفسك في مكاني.

- لكنَّك وافقتَ على رعاية الفتى منذ ستَّة عشر عامًا. - قالت المرأة.

- وافقتُ على رعاية طفلٍ لقيط، لا على خوض حكايةٍ غريبة. هذا واجبي، فضلاً عن كونه عملي. فهذه المؤسَّسة ميتمٌ وأنا مديره. هذا كلُّ ما في الأمر.

- ليس هذا كلَّ ما في الأمر سيّد كارتر. - ردَّت أريامي- لقد استطعتُ أن أتحرّى في ذلك الحين. وتوصَّلتُ إلى أنَّكَ لم تعلن عن العثور على بِنْ. لم تُسجِّله. لا يوجد وثائق تُؤكِّد على دخوله إلى هذه المؤسَّسة. لا بدَّ أن يكون هنالك سببٌ دفعك للتصرُّف على هذا النحو، نظرًا إلى أنَّك لا تُصدِّق ما وصفتَها بالحكاية الغريبة.

- يؤسفني أن أخالفكِ الرأيَ يا أريامي، فتلك الوثائق موجودة. بتاريخٍ مختلف. فهذه مؤسَّسةٌ رسميّة، لا بيت ألغاز.

- لم تجب عن سؤالي. - قاطعته أريامي - أو بالأحرى لقد أمددتني بأسبابٍ أخرى لصياغته من جديد: ما الذي دفعك إلى تغيير سجلّ بِنْ طالما أنَّك لم تُصدِّق ما عرضتُهُ عليك في رسالتي؟



- مع فائق احترامي، لا أجدني مرغمًا على الإجابة.

حدَّقت عينا أريامي بعينيه وحاول كارتر أن يحيد عن تلك النظرة. فارتسمت ابتسامةٌ مريرةٌ على شفتَي تلك المرأة العجوز.

- لقد قابلتَهُ. - قالت أريامي.

- هل نحن بصدد شخصيّة جديدة من الحكاية؟ - سألها المدير.

- مَن الذي يسعى إلى خداع الآخر، سيّد كارتر؟ - ردَّت أريامي.

بدا أنَّ المحادثة وصلت إلى طريقٍ مسدود. نهض كارتر وخطا في المكتب بينما كانت المرأة تراقبه بإمعان.

ثمَّ التفت إليها.

- فلنفترض أنَّني أصدِّق حكايتكِ. مجرَّد افتراض. ما الذي تنتظرينه منّي؟

- أن تُبعِدَ بِنْ عن هذا المكان. - أجابت أريامي بنبرةٍ حادّة - أن تتحدَّث إليه. أن تُنبِّهَه. أن تساعده. لا أطالبك بأكثر ممّا قدَّمتَهُ للفتى في هذه السنوات الأخيرة.

- أحتاج إلى التفكير بعمق في هذه المسألة. - قال كارتر.

- الوقت ليس في مصلحتنا. لقد انتظر ذلك الرجل ستَّة عشر عامًا، وقد لا يجد حرجًا في أن ينتظر يومًا إضافيًّا. وربّما قد يجد.



جلس المدير ثانيةً على مقعده ولوَّح بهدنة.

- في اليوم الذي وجدنا فيه بِنْ، تلقَّيتُ زيارةً من رجلٍ يُدعى جافاهال. سألني عن الطفل وقلتُ له إنَّني لا أعرف عنه شيئًا. ثمَّ اختفى إلى الأبد.

- يستخدم ذلك الرجل أسماءً كثيرة، وهويّاتٍ كثيرة، لكنَّ هدفه لا يتغيَّر، سيّد كارتر. - قالت أريامي والشرر يتطاير من عينيها - لم أقطع كلَّ هذه المسافة لأجلس وأرى حفيديَّ يموتان بسبب تردُّد عجوزين مغفَّلَين، إن سمحتَ لي بهذا التعبير.

- عجوزٌ مغفَّلٌ أم لا، أحتاج إلى الوقت لكي أفكِّر برويّة. وقد يكون من الضرورة إبلاغ الشرطة.

زفرت أريامي.

- ليس هناك وقت، ولا فائدة. - ردَّت بصلابة - سأغادر كلكتا غدًا عند الغروب صحبة حفيدتي. وسيغادر بِنْ هذا المكان غدًا بعد الظهيرة، ليذهب بعيدًا من هنا. أمامك ساعات لتتحدَّث إليه وتُرتِّبَ كلَّ شيء.

- ليس بهذه السهولة. - اعترض كارتر.

- بل إنَّه كذلك. وإن لم تتحدَّث إليه بنفسك فعلتُها بنفسي. - توعَّدت أريامي وهي تتَّجه نحو باب المكتب - وصلٍّ كي لا يعثر عليه الرجل قبل طلوع الصباح.



- سأتحدَّث إلى بِنْ في الغد. - قال المدير - لا يمكنني فعل أكثر من ذلك.

وجَّهَت إليه المرأة نظرةً أخيرةً من عتبة الباب.

- الغد هو اليوم، يا سيّد كارتر.

***

- جماعةٌ سرّيَّة؟ - سألت شير بنظرةٍ تتَّقد فضولاً - ظننتُ أنَّ مثل هذه الأشياء لا تحدث إلَّا في الروايات المتسلسلة.

- إنَّ سراج، الحاضر هنا، خبيرنا في الموضوع، قد يجادلكِ في الأمر ساعاتٍ وساعات. - قال يان.

أومأ سراج بتعبيرٍ عميق، مؤكِّدًا على التلميح عن تبحُّره الذي لا حدود له.

- هل سمعتِ عن الماسونيِّين ؟ - سألها.

-من فضلك. - قاطعه بِنْ - ستحسَبُنا شير عصابةً من السحرة المقنَّعين.

- أولستم كذلك ؟ - ابتسمت الفتاة.

- كلاَّ. - أجاب سيث مفتخرًا - إنِّ نادي شوبار له غايتان إيجابيّتان كلّيًّا: أن نتساعد وأن نساعد الآخرين، ومن ثمَّ نتقاسم معارفنا لتشييد مستقبلٍ أفضل.



- أليس هذا ما يقوله ألدُّ أعداء الإنسانيّة؟ - سألته شير.

- في آخِرِ ألفي أو ثلاثة آلاف عام فقط. - تدخَّلَ بِنْ - فلنُغيِّر الموضوع. فهذه ليلةٌ مميَّزة لأعضاء نادي شوبار.

- اليوم سنحلُّ النادي. - قال مايكل.

- الموتى يتكلَّمون. - شدَّدَ روشان متفاجئًا .

نظرت شير بدهشة إلى هذه المجموعة من الأولاد، وهي تخفي فرحتها بالحماسة التي تتأجَّج بينهم.

- مايكل يقصد أنَّنا بصدد الجلسة الأخيرة لنادي شوبار. - فسَّرَ بِنْ - بعد سبع سنوات، يُسدَلُ الستار.

- تَبًّا. - علَّقَت شير - ما لبث الحظُّ يحالفني بالتعرُّف على أعضاء جماعةٍ سرّيَّة، فإذا هم ينوون حلَّها. لن يسعفني الوقت للانضمام.

- لم يقل أحدٌ إنَّنا نقبل أعضاء جددًا. - سارعت إيزوبيل إلى التصويب، وكانت تشهد على المحادثة صامتةً دون أن يحيد ناظراها عن الدخيلة - لا بل ما كنتِ ستعرفين بوجودها لولا مخالفة هؤلاء الثرثارين للقَسَم.

التفتت شير إلى إيزوبيل بابتسامةٍ مسالمةٍ وقيَّمَت الجفاء الذي تبديه الفتاة تجاهها. فليس من السهل تقبُّلُ فقدان الحظوة الحصريّة.



- كان فولتير يقول إنَّه لطالما كانت النساء أسوأ الكارهين للنساء. - أكَّدَ بِنْ.

- ومَن يكون فولتير هذا ؟ - انتفضت إيزوبيل - لا يمكن لترَّهةٍ كهذه إلاّ أن تكون من صنع أفكارك.

- ها هو الجهل يتكلَّم شخصيًّا. - ردَّ بِنْ - حتّى لو لم يكن فولتير قد قال ذلك بالضبط...

- دعوا عنكم الجفاء. - تدخَّلَ روشان - إيزابيل محقَّة. ما كان ينبغي لنا أن نتحدَّث بالأمر.

لاحظت شير بقلق كيف تغيَّرت الأجواء في غضون ثوانٍ.

- لا أودُّ أن أكون سببًا للجدال. أفضل شيء أفعله هو أن أعود إلى جدَّتي. وسأنسى كلَّ ما قيل. - قالت وهي تُرجعُ كأس الليموناضة إلى بِنْ.

- ليس بهذه السرعة، أيَّتها الأميرة. - هتفت إيزوبيل خلف ظهرها.

استدارت شير وواجهت الفتاة.

- الآن وقد عرفتِ شيئًا ما، من الصواب أن تعرفي كلَّ شيء، وأن تحافظي على السرّ. - أضافت إيزوبيل بشبه ابتسامةٍ متردِّدة - واعذريني عمّا بدر منّي.

- فكرةٌ جيِّدة. - قال بِنْ - هيَّا.



رفعت شير حاجبيها مذهولةً.

- عليها أن تدفع تكلفة الانتساب. - ذكَّرَ سراج.

- ليست لديَّ نقود...

- نحن لسنا كنيسة يا عزيزتي، لا نريد نقودكِ. - ردَّ سيث -. التكلفة شيءٌ آخر.

جالت شير بعينيها على تلك الوجوه الملغزة بحثًا عن إجابة. فابتسم يان بودّ.

- لا عليكِ، ليس هنالك ما يخيف. - قال لها - إنَّ أعضاء نادي شوبار يجتمعون في المقرّ السرِّيّ عند منتصف الليل. وكلٌّ منَّا دفع تكلفة الانتساب.

- وما مقرُّكم السرِّيّ؟

- قصر. - ردَّت إيزوبيل - قصر منتصف الليل.

- لم أسمع به من قبل.

- لم يسمع به أحدٌ من قبل، ما عدانا. - أضاف سراج.

- وما عساها التكلفة؟

- حكاية. - أجاب بِنْ - حكايةٌ شخصيّة وسرِّيّة لم تروِها على أحدٍ من قبل. ستشاركيننا إيّاها ولن يخرج سرّكِ من نادي شوبار أبدًا.



- هل لديكِ حكاية ؟ - تحدَّثها إيزوبيل وهي تعضُّ على شفتها السفلى.

نظرت شير إليهم ثانيةً ثمَّ إلى الفتاة التي ترمقها بإمعان وأومأت.

- لديَّ حكايةٌ لم تسمعوا بها من قبل. - أجابت أخيرًا.

- هيَّا إذًا. - قال بِنْ وهو يفرك يديه - إلى العمل.

***

بينما كانت أريامي بوز تشرح أسباب عودتها إلى كلكتا مع حفيدتها بعد أعوامٍ طويلة من المنفى، كان أعضاء نادي شوبار السبعة يقتادون شير وسط الأجمات المحيطة بقصر منتصف الليل. لم يكن القصر في نظر الواصلة الجديدة سوى دارٍ قديمة ومهجورة، ومن خلال سقفها المهدوم ترى السماء المرصَّعة بالنجوم، وما بين ظلاله المتعرِّجة تتبدّى بقايا تماثيل وأعمدة وزينة نافرة، أثرٌ لما كان في الماضي قصرًا حجريًّا لأسرة نبلاء، خارجًا من كتاب حكايات .

قطعوا الحديقة عبْر نفقٍ ضيّقٍ محفورٍ بين النباتات البرّيَّة المحيطة بمدخل الدار الرئيس. وكانت النسائم تهزُّ أوراق الأجمات وتصفر بين أقواس القصر الحجريّة. التفت بِنْ إلى الوراء وشاهد ابتسامةً عريضة على وجه الفتاة من الأذن إلى الأذن.

- ما رأيكِ؟ - سألها وقد اتَّضح عليه الفخر.



- مختلف. - باحت شير، وهي متخوِّفةٌ من إطفاء حماسة الفتى.

- عظيم. - صوَّبَ بِنْ، وهو يتابع طريقه دون أن يعبأ بمجادلة تلك التقييمات الجديدة لمقرّ الإدارة العامَّة لنادي شوبار.

ابتسمت شير في سرِّها وتابعت السير، وهي تفكِّر كم كان سيعجبها لو أنَّها تعرَّفت على المكان ومرتاديه في ليلةٍ كتلك، خلال الأعوام التي كان فيها المكان ملاذهم ومقامهم. كان المكان، بين الأنقاض والذكريات، مُتَّسِمًا بهالة السحر والإيهام التي لا تبقى حيَّةً إلَّا في الذاكرة المشوَّشة التي تطغى على السنوات الأولى للحياة. لا يهمُّ إن كانت تلك هي المرَّة الأخيرة: كانت شير ترغب في دفع تكلفة الانتساب إلى نادي شوبار الآيِلِ إلى الاندثار.

- حكايتي السرِّيَّة في الحقيقة هي حكاية أبي. لا يمكن الفصل بينهما. لم أعرفه شخصيًّا ولا أحتفظ بأيِّ ذكرى منه سوى تلك التي تعلَّمتُها من جدَّتي، وتلك التي قرأتُها في كتبه ودفاتره، ولكن قد يبدو لكم غريبًا، لم أشعر أنِّي قريبةٌ من أحدٍ في هذه الدنيا مثلما أشعر تجاهه. وعلى الرغم من أنَّه توفِّي قبل أن أولد، فأنا واثقةٌ من أنَّه سينتظرني حتَّى اليوم الذي سأنضمُّ فيه إليه وأكتشف أنَّه لطالما كان مثلما تخيَّلتُهُ: أفضل رجلٍ ظهر على وجه الأرض.

لستُ مختلفةً عنكم كثيرًا في الحقيقة. لم أكبُرْ في ميتم، لكنَّني لم أعرف ما الذي تعنيه كلمة بيت، أو شخص أحدِّثُه لأكثر من شهر، ما عدا جدَّتي. كنَّا نعيش في القطارات، وفي منازل غرباء، وعلى الطريق، بلا وجهة، بلا مكانٍ بوسعنا هو اعتباره بيتًا لنا ونعود إليه.



فطوال تلك الأعوام كان أبي هو صديقي الوحيد. وكما أخبرتُكم، على الرغم من عدم وجوده ، تعلَّمتُ كلِّ شيء من كتبه وذكرياته التي ما زالت جدَّتي تحتفظ بها عنه.

توفِّيت والدتي وهي تنجبني، فتعلَّمتُ أن أحيا متحسِّرةً على أنَّني لا أستطيع تذكُّرها، وليس لديَّ صورةٌ في مخيِّلتي عن شخصيَّتها إلَّا تلك المنعكسة ممَّا كتبه أبي عنها في كتبه. فمن بين كثيرٍ من رسالاته في الهندسة، والمجلَّدات الضخمة التي لم أفهم منها شيئًا، يبقى كتابي المفضَّل مجموعةً قصصيَّة صغيرة بعنوان دموع شيفا. وقد ألَّفها وهو لم يبلغ خمسة وثلاثين عامًا بعد، حين كان يخطِّط لإنشاء خطوط السكك الحديد الأولى في كلكتا، ويحلم بتشييد محطّةٍ ثوريّةٍ من الفولاذ في المدينة. طبع أحد الناشرين الصغار في بومباي أقلَّ من ستّمئة نسخة من الكتاب الذي لم يحصل والدي منه على أيّ روبية. لديّ نسخة منه. كتابٌ صغيرٌ أسود اللون، بأحرف منقوشة بالذهب على ظهره: دموع شيفا، لـ تشاندرا تشاترغي.

الكتاب مقسَّمٌ إلى ثلاثة أجزاء. يتحدَّثُ الأوَّل عن مشروعه لأمَّةٍ حديثةٍ تتأسَّس على روح التقدُّم المبنيّ على التكنولوجيا ، والسكك الحديد والكهرباء. سمَّى ذلك الجزء وطني. والجزء الثاني يصف دارًا، مقامًا عجائبيًّا يخطِّط لبنائه، وعائلته المستقبليَّة التي يسعى إلى تأسيسها حالما يحصل على ثروةٍ لطالما حلم بها. يصف كلَّ زاويةٍ في تلك الدار، وكلَّ غرفة، وكلَّ لون وكلَّ غرض، بدقَّةٍ لا يضاهيه فيها المعماريّون. وسمَّى ذلك الجزء داري. أمَّا الجزء



الثالث، المعنون عقلي، فهو مجموعةٌ من قصص قصيرة وحكايات خرافيّة ألفها أبي منذ كان مراهقًا. وتبقى حكايتي المفضَّلة هي التي تمنح الكتاب عنوانه. حكايةٌ قصيرةٌ، سأرويها عليكم...

ذات مرَّة، في قديم الزمان، نزلت بأهالي كلكتا مصيبةٌ رهيبةٌ تختطف حياة الأطفال وتجعل الناس يشيخون باكرًا، وتُبدِّد الآمال في المستقبل. فاستهلَّ شيفا رحلةً طويلة، ليضع حدًّا للمصيبة، وراح يبحث عن دواء يعالج فيه ذلك الداء. وخلال سفره تَعيَّنَ عليه أن يجابه مخاطر عديدة. كانت المصاعب التي واجهته على امتداد المسير كثيرة، ما جعل الرحلة تبقيه بعيدًا أعوامًا طوالاً. وعندما عاد إلى كلكتا، اكتشف أنَّ كلَّ شيءٍ تغيَّر. ففي غيابه جاء مشعوذٌ من الجهة الأخرى من العالم حاملاً معه دواءً غريبًا باعه لأهالي المدينة بثمنٍ باهظ: أرواح الأطفال الذين سيولدون بصحّةٍ سليمة بدءًا من ذلك اليوم هذا ما رأته عيناه. فحيث كان هنالك في الماضي أدغالٌ وأكواخٌ من طين، نهضت آنذاك مدينةٌ كبيرة، كبيرةٌ بحيث لا يسعه معانقتها بنظرةٍ واحدة، تمتزج حدودها بالمدى في أيِّ اتجاهٍ ينظر نحوه. مدينةٌ من قصور. ذُهِلَ شيفا بما رأى، فقرَّرَ أن يتجسَّد ليتجوَّل في الطرقات مرتديًا ثياب متسوِّلٍ لكي يتعرَّف على الأهالي الجدد لذاك المكان، والأبناء الذين ولدوا بفضل دواء المشعوذ وكانت أرواحهم مرهونةً بيده. إلَّا أنَّه سرعان ما أصيب بخيبة أمل.

جاب المتسوِّلُ طرقات كلكتا سبعة أيَّام وسبع ليالٍ، وطرق على أبواب القصور، لكنَّها أُغلِقَت في وجهه جميعًا. لم يشأ أحدٌ أن



يصغي إليه، فتعرَّضَ لازدراء الناس واشمئزازاهم. وفي أثناء خيبته وتسكُّعه في أرجاء تلك المدينة الواسعة، اكتشف الفقرَ والبؤسَ والظلامَ العميقَ في نفوسِ البشر. وكان حزنه كبيرًا حتَّى إنَّه قرَّرَ في الليلة الأخيرة مفارقة كلكتا إلى الأبد.

وفي الأثناء أخذ يبكي، وخلَّفَ وراءه من دون أن يدري سيلاً من الدموع يضيع في الأدغال. وعند الفجر تحوَّلت دموع شيفا إلى جليد. وعندما أدرك الناس سوء فعلتهم، حاولوا إصلاح غلطتهم بحفظ دموع الجليد في معبد. لكنَّها كانت تذوب دمعةً تلو أخرى في الأيدي، ولم تعرف المدينةُ الجليدَ منذ من ذلك اليوم.

ومنذ ذلك اليوم، نزلت بالمدينة لعنةُ القيظ الخانق، وتجاهلتها الآلهة إلى الأبد، فغدت في رحمة أشباح الظلام. وكان قِلَّة من العقلاء والصالحين يصلُّون عسى أن تتساقط دموع شيفا المتجمِّدة يومًا ما من السماء لإبطال ذلك السحر الذي أحال كلكتا إلى مدينةٍ ملعونة...

- هذه هي الحكاية المفضَّلة من حكايات أبي. وربَّما هي أبسطها، إلا أنَّها الوحيدة التي تعكس ما عناه لي وما زال صدقًا، في كلِّ يومٍ من حياتي. وأنا كذلك، مثل أهالي المدينة الملعونة المجبَرين على دفع ثمن الماضي، أنتظر اليوم الذي تتساقط فيه دموع شيفا على حياتي لتحرِّرني من عزلتي.

وفي الأثناء ما أزال أحلم بتلك الدار التي شيَّدها أبي في ذهنه أوَّلًا، ثمَّ في إحدى زوايا القطاع الشماليّ من هذه المدينة. أعلم أنَّها



موجودة، مع أنَّ جدَّتي ما انفكَّت تنكر الأمر. أعتقد أنَّ أبي في كتابه وصف المنطقة التي كان يفكِّر أن يبني فيها الدار يومًا ما، هنا تمامًا، في المدينة السوداء. وقد عشتُ كلَّ هذه الأعوام مؤملةً في التجوُّل فيها لكي أتعرَّف على ما أعرفه أساسًا وأحتفظ به في ذاكرتي: مكتبتها، غرفها، مقاعدها...

هذه هي حكايتي. لم أروها على أحد، إذ ليس لديَّ من أحدٍ لأرويها عليه. لغاية هذا اليوم.

***

عندما أنهت شير حكايتها، كانت الظلمة المخيِّمة على القصر تساعد أعضاء نادي شوبار على إخفاء دموعهم وتأثُّرهم. لا تبدو على أيٍّ منهم نيةٌ في كسر الصمت الذي طغى على الأجواء نهاية الحكاية. ضحكت شير بشدَّة ونظرت إلى بِنْ.

- هل أستحقُّ الانتساب إلى نادي شوبار؟ - سألته على استحياء.

- برأيي، تستحقِّين العضويّة الفخريّة أيضًا. - أجاب.

- ألتلك الدار وجودٌ حقًّا يا شير؟ - تحرّى سراج، مفتونًا بالفكرة.

- أنا متأكِّدة. - أجابت - وأفكِّر في البحث عنها. المفتاح في مكانٍ ما، في كتب والدي.

- متى؟ - سألها سيث - متى نباشر البحث عنها ؟



- غدًا. - وافقت شير - بمساعدتكم، إن شئتم...

- ستحتاجين إلى مَن يحسن التفكير. - علَّقت إيزوبيل - بإمكانكِ الاعتماد عليَّ.

- أنا خبيرٌ في فتح الأقفال. - قال روشان.

- وأنا بوسعي البحث في الأرشيف البلديّ عن كلِّ الخرائط منذ إرساء الحكومة عام ١٨٥٩. - أضاف سيث.

- وأنا بوسعي أن أتحقَّق من وجود أسطورةٍ غامضة عن الموضوع. - تدخَّلَ سراج - لا بدَّ أنَّها دارٌ مسحورة.

- وأنا بوسعي أن أرسم الدار تمامًا مثلما هي في الواقع. - قال مايكل - بوسعي أن أنفِّذ مخطَّطها الهندسيّ. اعتمادًا على الكتاب.

ابتسمت شير ونظرت إلى بِنْ و يان.

- جيّد. - قال بِنْ - يجب على أحدنا أن يدير العمليَّات. سأتولَّى المهمَّة. وبوسع يان صنع اليود لمن يجرح نفسه بإحدى الشظايا.

- أتخيَّل أنَّكم لا تقبلون كلمة «لا». - قالت شير.

- لقد محونا كلمة «لا» من قاموس مكتبة الميتم منذ ستَّة أشهر. - قال بِنْ - والآن أصبحتِ عضوًا في نادي شوبار. مشكلاتُكِ مشكلاتُنا. هذه هي قواعد الجماعة الأخويّة.

- ظننتُ أنَّنا سنحلُّ الجماعة. - تذكَّرَ سراج.



- أقرُّ إرجاء حلِّ الجماعة نظرًا إلى ظروفٍ في منتهى الخطورة. - ردَّ بِنْ موجِّهًا إلى صديقه نظرةً صاعقة.

فاختبأ سراج في الظلام.

- موافقة. - أكَّدت شير - ولكن علينا العودة الآن .

***

كانت النظرةُ التي استقبلت بها أريامي حفيدتَها شير وباقي أعضاء النادي قادرةً على تجميد سطح نهر الهوغلي في وضح النهار. إذ كانت المرأة العجوز تنتظر عند باب الواجهة الرئيسة صحبة بانكيم. وكان مظهرها كافيًا ليفكِّرَ بِنْ في ضرورة البدء بصياغة خطابٍ من الأعذار للتخفيف من التوبيخ الذي ستلقاه صديقتُهُ الجديدة بلا شكٍّ. تقدَّمَ بِنْ الآخرين وأفصح عن أفضل ابتسامةٍ لديه.

- إنَّه ذنبي، يا سيّدتي. كنَّا نريد أن نُطلِعَ حفيدتكِ على الباحة الخلفيّة للمبنى. هذا كلُّ ما في الأمر.

لم تتكلَّف أريامي حتَّى بالنظر إليه وتوجَّهَت مباشرةً إلى شير.

- قلتُ لكِ أن تنتظري هنا وألَّا تتحرَّكي. - قالت بوجهٍ يستعر غضبًا.

- كنا على بُعد عشرين مترًا من هنا، يا سيّدة. - أوضح يان.



صعقته أريامي بنظرتها.

- لم أتحدَّث إليك، أيُّها الولد. - قاطعته بأقلّ احترامٍ لديها.

- يؤسفنا أنَّنا سبَّبنا مشكلة، يا سيّدتي، لم تكن تلك نيَّتَنا... - ألحَّ بِنْ.

- انسَ الأمر يا بِنْ. - قاطعته شير - بإمكاني التحدُّث عن نفسي.

تغيَّرت ملامح العجوز الصارمة، ما جعل الجميع يلاحظون ذلك. أشارت أريامي إلى بِنْ وشحب وجهها تحت ضوء قناديل الحديقة الخافتة.

- هل أنت بِنْ؟ - سألته هامسةً.

أومأ الفتى، وأخفى مفاجأته وما زال يواجه نظرة العجوز الثاقبة. لم يكن في عينيها غضبٌ، إنَّما حزنٌ وقلق. أخفضت أريامي ناظرَيها وشبكت كتف حفيدتها.

- علينا أن نذهب. - قالت - ودِّعي أصدقاءكِ.

هزَّ أعضاء نادي شوبار رؤوسهم لتوديعها، فابتسمت شير بحياء وهي تبتعد، تجرُّها ذراع أريامي بوز، ليتلاشى أثرها في شوارع المدينة المظلمة من جديد. دنا يان من بِنْ وحدَّق إلى صديقه الذي بات سارحًا ونظرته ثابتة على طيف شير وجدَّتها.

- بدا لي لوهلةٍ أنَّ المرأة خائفة. - قال يان.



أومأ بِنْ دون أن يرفَّ له رمش.

- ومَن لا يخاف في ليلةٍ كهذه؟ - قال.

- أعتقد أنَّكم تحسنون صنعًا في الذهاب إلى النوم جميعًا.

قال بانكيم عند عتبة الباب.

- أهو اقتراحٌ أم أمر؟ - سألته إيزوبيل .

- تعلمون جيِّدًا أنَّ اقتراحاتي عليكم هي أوامر. - أكَّدَ بانكيم وهو يشير إلى داخل المبنى. - هيَّا.

- طاغية. - غمغم سراج - استمتع بالأيّام القليلة المتبقيّة تحت تصرُّفك.

- لا خير فيمن يُغيِّر جلده. - أضاف روشان.

ابتسم بانكيم وهو يشاهد تقاطر الأولاد السبعة إلى الداخل، غير مكترثٍ بما يغمغمون من اعتراضات. كان بِنْ هو الأخير الذي يدخل، فتبادل نظرة تواطؤ مع بانكيم.

- إن كانوا الآن يشتكون، فإنَّهم خلال خمسة أيَّام سيتحسَّرون على أدائك دور الشرطيّ. - قال بِنْ.

- وأنت ستتحسَّر مثلهم. - ابتسم بانكيم.



- إنَّني أتحسَّر منذ الآن. - غمغم الفتى بصوتٍ منخفض، وهو يصعد السلالم نحو مهاجع الطابق الأوَّل، مدركًا أنَّه في ظرف أسبوعٍ لن يعدَّ تلك الدرجات الأربع والعشرين التي يعرفها جيِّدًا.

***

استفاق بِنْ في قلب الليل، وكان مهجعه يرزح تحت عتمةٍ زرقاء وواهنة، فظنَّ أنَّه. يسمع هبوب ريحٍ جامدةٍ على وجهه، كأنَّها زفرةٌ خفيَّةٌ صادرةٌ عن شخصٍ يختبئ في الظلام. وهناك حزمةُ ضوءٍ طفيفٍ ترتعش عند نافذة الزاوية الصغيرة وتعرض ألف ظلٍّ متراقصٍ على السقف والحيطان. مدَّ بِنْ ذراعه حتّى الدُّرج المتواضع بجانب سريره وأدار وجه الساعة نحو ضوء القمر. كانت العقارب تشير إلى الثالثة، أي في قلب الليل.

تنهَّدَ وفكَّرَ أنَّ بقايا النعاس تبدَّدَت كقطرات الندى تحت نور الشمس، وفهم أنَّ يان أعاره واحدًا من أشباح أرقه لليلةٍ واحدة. أغمض جفنيه من جديد واستعاد صور الحفلة المنتهية منذ ساعات، واثقًا من قدرتها على الشفاء والتنويم. لكنَّه في تلك اللحظة بالضبط ذلك الصوت للمرَّة الأولى، فعدَّلَ جلسته على السرير ليصغي إلى ذبذبةٍ غريبةٍ كأنَّها صفيرٌ بين أوراق الحديقة في الباحة.

أزاح عنه الغطاء وذهب إلى النافذة مباشرةً. فسمع هناك الرنين الصادر عن القناديل المطفأة بين أغصان الشجر، وأصداء بعيدة ممّا بدت له أصوات أطفالٍ يضحكون ويتكلَّمون كشخصٍ واحد.



مئات الأصوات. أسند جبينه على الزجاج، فتراءى له من خلال طيف أنفاسه شبحٌ واقفٌ في وسط الباحة، بدثارٍ أسود اللون، ينظر باتِّجاهه مباشرةً. ذُعِرَ بِنْ فتراجع إلى الخلف وتشقَّقَ الزجاج ببطءٍ تحت عينيه، ابتداءً بصدعٍ في منتصف السطح الشفّاف، يتمدَّدَ كاللبلاب، مثل شبكةٍ عنكبوتيّةٍ من شروخٍ منسوجةٍ من مئة مخلبٍ خفيّ. اقشعرَّت رقبته وتسارعت أنفاسه.

نظر حوله. جميع رفاقه نيام، يغطُّون في نومٍ عميق. راودته أصوات الأطفال البعيدة من جديد، وانتبه إلى غيمةٍ هلاميّةٍ تتسرَّب من خلال صدوع الزجاج، أشبه بنفخة دخانٍ زرقاء تجتاز قماشةَ حرير. اقترب من النافذة وحاول أن يرنو إلى الباحة ثانيةً. ما زال الشبح هناك، لكنَّه مَدَّ ذراعه هذه المرَّة مشيرًا إليه، في حين كانت أصابعه الطويلة والحادّة تنفصل بعضها عن بعض كألسنة اللهب. ظلَّ بِنْ هناك على حاله، عاجزًا عن إشاحة نظره عن تلك الرؤية. وعندما استدار الشبح وبدأ يبتعد، هبَّ الفتى وخرج من المهجع مسرعًا .

كان الممرُّ خاليًا وبالكاد تنيره قناديل الغاز في ميتم سانت باتريك القديم، أحد المباني التي صمدت ضمن أعمال الترميم في الأعوام الأخيرة. ركض نحو السلالم ونزل بعجالة، اجتاز قاعة الطعام وخرج إلى الباحة من باب المطابخ الجانبيّ، ولم يسعفه الوقت إلَّا لرؤية الشبح يتلاشى في الزقاق المظلم المحاذي لجانب المبنى الخلفيّ، المدفون تحت ضبابٍ كثيفٍ يبدو منبعثًا من فتحات الصرف. سارع الخطى نحو الضباب وغاص فيه.



سار مئة متر في نفق البخار البارد والعائم حتى بلغ الفسحة الرحبة الواقعة شمال الميتم، هي أرضُ لا أحد، تُستَخدَم مكبًّا للنفايات وقلعةً لأكواخ أفقر فقراء القطاع الشماليّ. تجنَّبَ الأوحال التي تستبيح درب المتاهة الملتوية لتلك الأكواخ الطّينية والمحروقة والمهجورة، وولج إلى المكان الذي لطالما حذَّرَهم توماس كارتر من الدخول إليه. كانت أصوات الأطفال آتيةً من تحت أنقاض مستنقع الشقاء والقذارة هذا.

اتَّجه بِنْ نحو ممرٍّ ضيّقٍ ما بين كوخين محطَّمين وتوقَّفَ فجأةً إذ وجد ما كان يبحث عنه. يمتدُّ قبالة عينيه سهلٌ شاسعٌ ومقفرٌ من أكواخٍ باليةٍ سُوِّيت بالأرض؛ وفي منتصف ذلك المشهد بدا أنَّ الضباب الأزرق يقرقر كأنَّه زفير تنينٍ لا يُرى في الليل. حتَّى أصوات الأطفال انبثقت من النقطة نفسها، لكنَّ بِنْ لم يعد يسمع ضحكاتٍ وأغاني صبيان، بل صرخاتٌ مريعة من فزعٍ ورعبٍ لمئات الصغار المحبوسين. أَحَسَّ بريحٍ باردة تدفعه بشدَّة إلى جدران الكوخ، بينما يتجلجل الضبابُ الخافقُ بقعقعةٍ ساخطةٍ لآلةٍ فولاذيَّة هائلة تهزُّ الأرض تحت قدميه.

أغمض عينيه ثمَّ نظر مجدَّدًا، إذ ظَنَّ أنَّه ضحيَّة إحدى الهلوسات. تجلَّى في الظلام قطارٌ حديديٌّ مستعرٌ ومحاطٌ بألسنة اللهب. رأى بِنْ وجوهًا محتضرة لعشرات الأطفال المحبوسين في داخل القطار، ووابل الشرر يتطاير في كلِّ اتِّجاه، لتبدو شلاَّلًا من الجمر. تابعت عيناه القطارَ حتَّى قاطرة المحرِّك، الشبيهة بآلةٍ ذات بنيانٍ حديديٍّ مهيبٍ كأنَّه يتبدَّد ببطء، كتمثالٍ شمعيٍّ مرميٍّ في موقد



النار. وكان الشبح إيّاه في قُمرة القيادة، ثابتًا وسط النيران، ينظر إليه بإمعان، وراح يفتح ذراعيه دلالةً على الترحيب.

أحسَّ بحرارة اللهب على وجهه فوضع يديه على أذنيه ليُسكِتَ صرخات الأطفال الخائبة. اجتاز قطارُ النار تلك الفسحةَ فأدرك بِنْ مذعورًا أنَّه كان يتَّجه نحو مبنى سانت باتريك، مثل صاروخٍ ناريٍّ ساخط. حاول أن يتبعه متجنِّبًا وابل الشرر ودمع الحديد المصهور الذي يتساقط حوله، لكنَّ قدميه لم تساعداه على مضاهاة سرعة القطار المتزايدة في مضيِّهِ للانفجار بجدران الميتم، وقد صبغ مرورُهُ السماءَ بالأحمر القاني. توقَّفَ مقطوع النَّفَس وصرخ بكامل استطاعته ليوقظ أولئك النائمين بسلامٍ في الداخل، غافلين عن الكارثة التي ستحلُّ. بهم. ثمَّ رأى القطار يُقلِّص المسافة التي تفصله عن سانت باتريك، فاستوعب أنَّ القطار سيحيل المبنى إلى رمادٍ بمن فيه. خَرَّ على ركبتيه وصرخ للمرَّة الأخيرة، وهو ينظر عاجزًا كيف تلج قاطرة المحرِّك باحة الميتم باتِّجاه جدار الواجهة الخلفيّة بلا أملٍ بإيقافها.

حضَّرَ بِنْ نفسه للأسوأ، لكنَّه لم يستطع أن يتخيَّل ما كانت عيناه ستشهدانه في غضون لحظات.

اصطدمت قاطرة المحرِّك المجنونة والمشحونة بعاصفة اللهب بجدار القرميد الأحمر، كأنَّها أفعى من بخار، ليتبيَّنَ أنَّها محضُ خيالٍ ضوئيّ. أخذ القطار يتفكَّك في الهواء، في حين تلاشى عويل الأطفال الرهيب.



وبعد ثانيتين، استعاد الظلام هيبته، وتبدّى جانب الميتم بين الأضواء البعيدة للمدينة البيضاء والميدان، على بُعد مئات الأمتار جهة الجنوب. تغلغل الضباب في صدوع الجدار وتبدَّدت آثار ذلك المشهد رويدًا رويدًا. اقترب بِنْ بحذر ووضع كفَّه على الجدار الذي بدا أنَّه لم يتضرَّر البتَّة. اهتزَّت ذراعه بصعقةٍ كهربائيّة أطاحت به أرضًا، فرأى ظلَّ يده الأسود يُطبَع على الجدار.

وعندما قام، انتبه إلى تسارع نبضات قلبه ورجفان يديه. تنفَّسَ بعمقٍ ومسح دموعه التي درَّتْها النيران. وحالما شعر بأنَّه استعاد بعضًا من سكينته، دار حول المبنى واتَّجه نحو باب المطابخ ثانيةً. تذكَّرَ الحيلة التي علَّمه إيّاها روشان، ففتح المزلاج الداخليّ برفق وقطع ظلام المطابخ والممرّ الأرضيّ حتّى السلالم. كان الميتم غارِقًا في صمتٍ عميق، ، ففهم بِنْ أنْ لا أحد غيره سمع صوت القطار.

عاد إلى المهجع. كان رفاقه نائمين ولا أثر لأيّ خدشٍ على زجاج النافذة. اجتاز المكان وتمدَّد على سريره لاهثًا. أمسك الساعة من على الدُّرج ونظر فيها. كان يتوقَّع مرور عشرين دقيقة على الأقلّ. لكنَّ العقارب كانت تشير إلى الساعة الثالثة نفسها. حملها إلى أذنه ليتأكَّد من فاعليّتها. كانت تعمل. أعادها وحاول أن يُرتِّب أفكاره. أخذ يشكُّ في كلِّ ما رآه أو ظنَّ أنَّه رآه.

من الوارد أنَّه لم يتحرَّك من المهجع، وأنَّ الرؤية برمَّتها مجرَّد حلم. كانت الأنفاس العميقة حوله تميل به إلى ترجيح هذه الفرضيّة.



أكان ضحيّةً لمخيِّلته؟ أغمض عينيه مشوَّشًا، وحاول أن يعانق النعاس، لعلَّه يخدع جسمه إذا تظاهر بالنوم.

وعند الفجر، إبَّان طلوع الشمس على «المدينة الرماديّة»، أي القطاع الشرقيّ لكلكتا الذي يسكنه المسلمون، قفز عن السرير وركض إلى الباحة الخلفيّة ليتفحَّص الجدار على ضوء النهار. لا أثر للقطار. كاد يخلص إلى أنَّه مرَّ بحلمٍ مزعج، فإذا هو يلمح بطرف عينه بقعةً داكنةً على الجدار. أثارت انتباهه فاقترب وعرف كفَّهُ مُحدَّدةً بوضوحٍ على جدار القرميد. زفر وعاد مسرعًا إلى المهجع لإيقاظ يان الذي استطاع في تلك الليلة أن ينام أخيرًا، وكان غافيًا في أحضان مورفيوس، متخلِّصًا من عادة الأرق العنيد.

✵✵✵

كان قصر منتصف الليل يفقد سحره تحت ضوء النهار، فتتضِّح معالمه الدالّة على كونه مجرَّد دارٍ تبعث على الحنين إلى الأيَّام الخوالي. وعلى الرغم من هذا، خفَّفَت كلماتُ بِنْ حدَّةَ ذلك الواقع، لأنَّ التمعُّن في حكايته عوَّضَ أعضاء النادي عن أجواء المكان الليليّة والغامضة والرائعة. أصغى إليه الجميع بصمتٍ وإجلال، وتراوحت تعابير وجوههم بين الدهشة وعدم التصديق.

- واختفى في الجدار كما لو أنَّه من هواء؟ - سأله سيث.

أومأ بِنْ بنعم.



- هذه أغرب قصّةٍ رويتَها علينا في الأيَّام الأخيرة يا بِنْ. - لاحظت إيزوبيل.

- ليست قصّة. بل هذا ما رأيتُه. - ردَّ.

- لا يشكُّ أحدٌ في هذا. - قال يان بنبرةٍ مسالمة - لكنَّنا كنَّا جميعًا نائمين ولم نسمع شيئًا. حتّى أنا.

- عجيبٌ حقًّا. - علَّق روشان - ربّما دسَّ بانكيم شيئًا ما في الليموناضة.

- هل من المعقول أنْ لا أحد يحملني على محمل الجدّ ؟ - سأل بِنْ - ثمَّ إنَّكم رأيتُم دمغة كفّي على الجدار.

التزموا الصمت. حدَّقَ بِنْ إلى أكثرهم هزالةً، العضو المصاب بالربو، ضحيّة كلِّ ما يتعلَّق بالأشباح والرؤى.

- وأنت يا سراج؟ - سأله بِنْ.

رفع الفتى عينيه ونظر إلى الآخرين يُقيِّمُ الوضع.

- ليست المرَّة الأولى التي يشهد فيها أحدٌ في كلكتا شيئًا مماثلاً. - أفصح - هناك قصَّة هاستنغس هاوس، على سبيل المثال.

- لا أرى أيَّ علاقة بين الأمرين. - اعترضت إيزوبيل.

كانت قصَّة هاستنغس هاوس، المقام القديم لحاكم المقاطعة الجنوبيّة لكلكتا، إحدى قصص الأشباح المفضَّلة لدى سراج، ومن



الوارد أنَّها الأكثر رمزيّةً في تاريخ المدينة، قصَّةٌ مكثَّفة ومروِّعة من النوادر. فبحسب التقاليد المحلِّيّة، كان شبح وارن هاستنغس، أوَّل حُكَّام البنغال، يظهر في ليالي البدر المكتمل ليجول على عربةٍ خياليّة حتَّى قناطر مقامه القديم في أليبور، حيث كان يبحث يائسًا عن مجموعة وثائق اختفت أثناء فترة حكمه العصيبة.

- لقد رآه الناس طوال عقود. - احتجَّ سراج - وهذه حقيقةٌ مثلما هي الأمطار الموسميّة التي تُغرِق الطرقات.

احتدم النقاش بين أعضاء النادي حول رؤية بِنْ الذي امتنع عن المشاركة مع أنَّه صاحب العلاقة. وبعد دقائق، عندما استُبعِدَت كلُّ فرضيّةٍ معقولةٍ للحوار، التفتت الوجوه لتنظر إلى شخصٍ بثيابٍ بيضاء يراقبهم صامتًا من عتبة الصالة التي لا سقف لها. واستسلموا للصمت واحدًا تلو الآخر.

- لا أريد أن أقاطعكم. - قالت شير بحياء.

- مرحبًا بالمقاطعة. - ردَّ بِنْ - كنَّا نتجادل. لتغيير الأجواء.

- سمعتُ النهاية. - أقرَّت شير - هل رأيتَ شيئًا ما هذه الليلة يا بِنْ؟

- لم أعد واثقًا. - اعترف الفتى - وأنتِ؟ هل استطعتِ التملُّص من مراقبة جدَّتكِ؟ يبدو لي أنَّنا مساء الأمس وضعناكِ في موقفٍ محرج.



ابتسمت شير ونفت برأسها.

- جدَّتي امرأةٌ طيِّبة، لكنَّ الهواجس تنتابها أحيانًا فتراني محاطةً بالمخاطر من كلِّ جانب. - فسَّرت - لا تعلم أنَّني هنا. لا يمكنني البقاء طويلاً.

- لماذا ؟ كنَّا نُفكِّر اليوم في الذهاب إلى المرفأ، بإمكانكِ المجيء معنا. - قال بِنْ مفاجئًا الآخرين، الذين سمعوا عن ذلك المشروع للمرَّة الأولى.

- لا يمكنني المجيء معكم يا بِنْ. أتيتُ لأودِّعكم.

- ماذا ؟ - هتف بعضهم في آنٍ واحد.

- سنسافر إلى بومباي في الغد. - قالت شير - جدَّتي تقول إنَّ هذه المدينة ليست آمنة وعلينا مغادرتها. حتَّى إنَّها منعتني من ملاقاتكم، لكنِّي لم أشأ الانصراف دون أن أودِّعكم. فأنتم أصدقائي الوحيدون الذين حصلتُ عليهم منذ عشرة أعوام، حتَّى وإن لأمسيةٍ واحدة.

نظر إليها بِنْ مصدومًا.

- إلى بومباي؟ - قال ساخطًا - وما السبب؟ هل تنوي جدَّتكِ أن تصبح نجمةً في السينما ؟ غير معقول!

.لا أعتقد ذلك. - أكَّدت شير بحزن - سأبقى في كلكتا مدَّةً لا تتجاوز الساعات. آمل ألَّا يؤسفكم أن أمضي الوقت رفقتكم.



- بل يسرُّنا أن تبقي هنا يا شير. - قال يان متحدِّثًا باسم الجميع.

- مهلاً! - صاح بِنْ - ما لي أراكم تتودَّعون ؟ ستبقين هنا بضع ساعات؟ هذا مستحيلٌ يا آنسة. بإمكانكِ البقاء مئة سنة في هذه المدينة دون أن تفهمي نصف ما يحدث فيها. لا يجوز أن تغادري بهذه الطريقة. فما بالك الآن وقد أصبحتِ شريكةً كاملة العضوية في نادي شوبار.

- عليك أن تُحدِّثَ جدَّتي إذًا. - قالت شير بنبرةٍ مستسلمة.

- وهذا ما أفكِّر في فعله حقًّا.

- فكرةٌ عظيمة. - علَّق روشان - لاسيّما أنَّك نلتَ إعجابها ليلة أمس.

- يا لكم من جاحدين. - تأسَّفَ بِنْ - ما الذي حلَّ بالقَسَمِ الذي قطعتموه على أنفسكم؟ علينا أن نساعد شير لتجد دار أبيها. لن يغادر أحدٌ هذه المدينة قبل أن نجد تلك الدار ونكشف ألغازها. نقطة انتهى.

- أنا موافق. - قال سراج - ولكن كيف؟ هل تريد أن تُهدِّد جدَّة شير؟

- الكلمة تستطيع فعلَ ما لا يقوى السيفُ على فعله أحيانًا. - أكَّد بِنْ - وبالمناسبة، مَن القائل؟

- فولتير ؟ - ألمحت إيزوبيل.



تجاهل بِنْ سخريتها.

- وما طبيعة هذه الكلمات الخارقة القوّة؟ - سأله يان.

- ليست كلماتي بالطبع. - قال بِنْ - إنَّها كلمات السيّد كارتر. سنُخطِّط بحيث يتحدَّث السيّد كارتر بنفسه إلى جدَّتكِ.

أخفضت شير ناظرَيها واستنكرت برأسها.

- لن تنجح الخطّة يا بِنْ. - قالت بلا أمل - فأنت لا تعرف أريامي بوز. لا أحد يفوقها عندًا. فالعند يجري في دمها.

افترَّت من بِنْ ابتسامةٌ ماكرة ولمعت عيناه تحت ضوء منتصف النهار.

- أنا أفوقها عندًا. سترين صنائعي وبعدها تُغيِّرين رأيكِ. - غمغم.

- ستسوقنا إلى ورطةٍ أخرى. - قال سيث.

رفع بِنْ حاجبه بما ينمُّ عن رباطة الجأش ورمق وجوه الحاضرين واحدًا واحدًا، ليحيل أيَّ لمحة تمرُّدٍ إلى رماد.

- مَن لديه ما يقوله، فليقلِ الآن وإلّا فليصمت! - توعَّدَ بنبرةٍ مهيبة.

لم ينطق أحدٌ بأيِّ اعتراض.

- جيّد. موافقون بالإجماع. هيّا إلى العمل!



✵✵✵

أدخل كارتر مفتاحه الشخصيّ بقفل المكتب وأداره مرَّتين. انفتح الباب. دخل وأغلقه وراءه. لم تكن لديه رغبةٌ في الكلام إلى أحد أو رؤية أحد لساعةٍ كاملة على الأقلّ. فإذا به يلاحظ وجود شخصٍ جالسٍ على الأريكة المقابلة لمقعده، فأدرك أنَّه ليس بمفرده. انزلق المفتاح من بين أصابعه لكنَّه لم يطأ الأرض. إذ أمسكته يدٌ رشيقةٌ بقفَّازٍ أسود قبل أن يسقط. ابتسم له ذلك الوجه مبرزًا أنيابه.

- مَن أنت؟ وكيف دخلت ؟ - استفسر كارتر ولم يستطع إخفاء رجفةٍ في صوته.

نهض الدخيل فأحسَّ كارتر بدماء وجهه تتبخَّر عندما عرف الرجلَ الذي زاره في المكتب نفسه قبل ستَّة عشر عامًا خلت. لم يَشِخْ وجهُهُ يومًا واحدًا، وما زالت عيناه تحتفظان بوهج الغضب الذي علق في ذاكرة المدير. جافاهال. اقترب الضيفُ من الباب وقفَلَه. ابتلع كارتر ريقه. مرَّت في ذهنه كلُّ التحذيرات التي سمعها من أريامي بوز في الليلة الماضية. ضغط جافاهال على المفتاح فانطوى المعدنُ بسهولة كالدبوس النحاسيّ.

- لا تبدو مسرورًا بلقائي، سيّد كارتر. - قال - ألا تذكر موعدنا قبل ستَّة عشر عامًا ؟ لقد أتيتُ لتقديم مساهمتي.

- اخرج من هنا فورًا وإلَّا أرغمتني على إبلاغ الشرطة. - هدَّده المدير.



- لا تكترث لأمر الشرطة في هذه اللحظة. سأبلِّغهم بنفسي عندما أخرج. اجلس، وامنحني السرور بمحادثتك.

جلس كارتر على مقعده واستبسل في إخفاء عواطفه والحفاظ على تعبيرٍ هادئٍ وصارم. ابتسم جافاهال بمودَّة.

- أتصوَّر أنَّك تعلم سبب حضوري. - قال الدخيل.

- لا أعرف عمَّا تبحث، لكنَّك لن تجده هنا. - ردَّ كارتر.

- ربَّما نعم وربَّما لا. - قال جافاهال لامباليًا - أبحث عن طفلٍ لم يعد كذلك، أصبح الآن رجلاً. حضرتك تعلم مَن هو. آمل ألَّا تجبرني على إيذائك.

- هل أنت تُهدِّدني ؟

ضحك جافاهال.

- أجل. - أجاب بنبرةٍ جامدة - وعندما أهدِّدُ، أهدِّدُ جدّيًّا.

كانت تلك أوَّلَ مرَّةٍ يُفكِّر كارتر في الصياح لطلب النجدة.

- إن كنتَ تُفكِّر في الصياح، فدعني أمنحك سببًا وجيهًا على الأقلّ. - اقترح عليه جافاهال.

وما إن لفظ هذه العبارة، مدَّ جافاهال يده اليمنى وأخذ ينزع عنها القفَّاز بفتور.



✵✵✵

ما لبثت شير وبقيّة أعضاء النادي يطؤون بأقدامهم عتبة باحة الميتم، حتَّى انفجرت نوافذ مكتب توماس كارتر في الطابق الأوَّل بِدويٍّ رهيبٍ وتساقط على الحديقة وابلٌ من شظايا الزجاج والخشب والقرميد. تحجَّرَ الأولادُ برهةً وهُرِعوا فورًا إلى المبنى، غير آبهين بالدخان واللهب اللذيْن انبعثا من الفتحة التي أحدثها الانفجار في الواجهة.

كان بانكيم، في لحظة الانفجار، موجودًا في الطرف الآخر من الممرّ، منشغلاً بمعاينة وثائق إداريّة يجب تسليمها للسيّد كارتر كي يُوقِّع عليها. أودت به الموجة المتفجِّرة أرضًا؛ وعندما رفع عينيه، رأى باب مكتب المدير يتطاير وسط غيمة الدخان الذي اجتاح الممرّ ويرتطم بالحائط. نهض بانكيم فورًا وهُرِعَ نحو مصدر الانفجار. وقبل أن يصل إلى الباب بستّة أمتار، رأى بانكيم طيفًا أسود يخرج ملتحفًا بألسنة اللهب، بدثاره الغامق اللون ويبتعد على امتداد الممرّ مثل خفَّاشٍ بسرعةٍ غير معقولة. اختفى الطيف مخلِّفًا وراءه سيلاً من الرماد وأصدر صوتًا ذكَّرَ بانكيم بفحيح الكوبرا المتأهِّبة للانقضاض على ضحيَّتها.

دخل بانكيم إلى المكتب فوجد كارتر ملقىً على الأرض. كان وجهه ممتلئًا بالرضوض، وثيابه كأنَّها خارجةٌ من حريق. جثا بانكيم بجانب مرشده وحاول أن ينهض به. كانت يدا المدير ترتجفان، وتحقَّقَ بانكيم بارتياحٍ من أنه ما زال يتنفس، وإن بمشقَّةٍ بالغة. صاح مستنجدًا، فإذا بوجوه بعض الأولاد تطلُّ من عند الباب.



ساعده بِنْ ويان وسيث بحمل كارتر عن الأرض، بينما كان الآخرون يزيحون الركام من الممرّ ويُهيِّئون مكانًا يضعون فيه مدير الميتم.

- ما الذي حدث ؟ - سأل بِنْ.

هزَّ بانكيم رأسه عاجزًا عن تقديم إجابة، كما اتَّضحت عليه ملامح الصدمة الهائلة. تضافرت الجهود فاستطاعوا نقل الجريح إلى الممرّ، في حين كانت فينديلا، بوجهٍ شاحبٍ كالخزف ونظرةٍ هائمة، تركض لإخطار المستشفى المجاور.

تداعى الموظَّفون الآخرون، ولم يفهموا ما سبب ذلك الانفجار ومن صاحب هذا الجسد المحترق والممدَّد على الأرض. شكَّلَ يان وروشان طوقًا عازلاً وقالوا للمقتربين بأن يرجعوا إلى الخلف وأن يفسحوا المجال.

طالت مدَّة انتظار العون الموعود.

***

طغت على ميتم سانت باتريك حيرةٌ مخيفة ومفزعة، ناهيك بالفوضى الذي أحدثها الانفجار. وفي النهاية، شقَّ طاقم الإسعاف طريقه بين الحاضرين، واقترب طبيبٌ من بانكيم والفتية ليطمئنهم، بينما كان ثلاثةٌ من زملائه يعالجون الضحيّة.

تجمَّعَ حشدٌ أكبر حوله مترقِّبين ينتظرون خبرًا.



- المصاب يعاني رضوضًا بالغة، وقد تحقَّقنا من عِدَّة كسور، لكنَّه تجاوز مرحلة الخطر. سلامة عينيه هي ما يقلقني الآن. لا يمكننا ضمان استعادة البصر كلّيًّا، ولكن من المبكر الإفصاح عن هذا. سنضطرُّ إلى نقله إلى المستشفى وحقنه بالمسكِّنات قبل مباشرة العلاج. لا بدَّ من إجراء عمليّة. لذا أحتاج إلى مَن يُفوِّضني. - قال الطبيب، وهو شابٌّ أحمر الشعر ونظرته حادّةٌ وهيئته توحي بالرصانة والكفاءة.

- ستتولَّى فينديلا هذا الأمر. - قال بانكيم.

أومأ الطبيب.

- جيِّد. ولكن، ثمّة أمرٌ آخر. - أضاف - مَن هو بِنْ؟

نظر الجميع إليه مذهولين. رفع بِنْ عينيه ولم يفهم.

- أنا هو. - أجاب - ماذا هناك ؟

- يريد أن يتحدَّث إليك. - قال الطبيب، بنبرةٍ توحي بأنَّه حاول ثني كارتر عن ذلك وأنَّه لم يكن موافقًا على الطلب.

أومأ بِنْ وسارع إلى دخول سيّارة الإسعاف حيث كان الأطبّاء يعالجون المدير.

- دقيقة واحدة لا غير، أيُّها الفتى. لا أكثر! - نبَّهَه الطبيب.

***



اقترب بِنْ من النقَّالة وحاول أن يفتعل ابتسامةً مطمئنةً يتوجَّه بها إلى توماس كارتر، لكنَّه رأى حالة مدير الميتم فأحسَّ بغصَّةٍ في بطنه وتجمَّدت الكلمات على شفتيه. دفعه أحد الأطبّاء من الخلف للتصرُّف بأيّ شيء، فتشجَّع بِنْ وتنفَّسَ بعمق.

- مرحبًا ، سيّد كارتر. أنا بِنْ. - قال الفتى متسائلاً ما إذا كان المدير قادرًا على سماعه.

التفت الجريحُ ببطء ورفع يده المرتجفة. فأمسكها بِنْ بيديه وصافحها برفق.

- قل لهذا الرجل أن يتركنا وحدنا. - قال كارتر وهو يئنُّ ولم يفتح حتَّى عينيه.

رماه الطبيب بنظرةٍ صارمة وتركهما على انفراد على مضض.

- يقول الأطبّاء إنَّك ستستعيد عافيتك...- غمغم بِنْ.

نفى المدير برأسه.

- ليس الآن يا بِنْ. - قاطعه كارتر، حيث كانت كلُّ كلمةٍ تُكلِّفُه جهدًا مَهُولاً - عليك أن تصغي إليَّ جيِّدًا دون أن تقاطعني. فهمت ؟

أومأ بِنْ بصمت، ولم يدرك مباشرةً أنَّ المدير لا يراه.

- أسمعك يا سيِّدي.

شدَّ كارتر على يديه .



- ثمة رجلٌ يبحث عنك ليقتلك يا بِنْ. مجرم. - لفظ المدير بمشقّة - ينبغي لك أن تُصدِّقني. يدَّعي أنَّ اسمه جافاهال ويبدو على قناعةٍ بأنَّ لديك ما يتعلَّق بماضيه. لا أدري لأيّ سببٍ يلاحقك، لكنّي واثقٌ من أنَّه خطير. وما فعله بي ليس سوى عرضٍ بسيطٍ لقدراته. عليك أن تتحدَّث مع أريامي بوز، المرأة التي جاءت إلى الميتم البارحة. قل لها ما رويتُه عليك، وما وقع. لقد حاولتْ أن تُنبِّهني لكنّني لم آخذ كلامها بعين الاعتبار. فلا تقترف خطئي. اذهب وابحث عنها وتحدَّث معها. قل لها إنَّ جافاهال كان هنا. وستشرح لك بنفسها عمَّا يجب عليك فعله.

عندما زمَّ توماس كارتر شفتيه الجريحتين، شعر بِنْ بأنَّ العالم يتداعى فوق رأسه. فما باح له به مدير الميتم يبدو غير منطقيّ. لا بدَّ أنَّ الفزع الناجم عن الانفجار أضرَّ بقدرته على التفكير، وأنَّ الهذيان يودي به إلى تخيُّل مؤامرةٍ على حياته، ووحده الربُّ يعلم ما المخاطر القادمة. بدا له أنَّ الميل إلى بدائل أخرى غير مقبولٍ حينذاك، في ظلّ ما حلم به في الليلة الماضية. تساءل بِنْ، وهو حبيسٌ في أجواء سيَّارة الإسعاف المترعة برائحةٍ ثاقبة، ما إذا كان نزلاء الميتم قد فقدوا صوابهم. جميعًا، وهو مثلهم.

- هل سمعتني يا بِنْ؟ - ألحَّ كارتر بصوتٍ ينازع - هل فهمتَ ما قلتُه لك؟

- بالتأكيد سيِّدي - غمغم الفتى - لا عليك يا سيِّدي.

فتح المدير عينيه فذُعِرَ بِنْ من رؤية ما خلَّفته النيران.



- بِنْ. - حاول المدير أن يصرخ بصوتٍ مزَّقه الألم - افعل ما أخبرتُك به. الآن. اذهب إلى تلك المرأة. احلف لي على ذلك.

سمع بِنْ خطوات الطبيب من ورائه وأحسَّ بأنَّه يسحبه من ذراعه ويجرُّه بقوّةٍ إلى خارج سيّارة الإسعاف. وانزلقت يد كارتر من بين يديه وظلَّت معلَّقة في الفراغ.

- هذا يكفي. - قال الطبيب - لقد عاني هذا الرجل كثيرًا.

- احلف لي على ذلك. - تأوَّه كارتر وهو يُلوِّح بيده.

استاء الفتى من مشاهدة الأطبَّاء يحقنون كارتر بجرعةٍ ثانيةٍ من المسكنات.

- أحلف لك يا سيّدي. - قال ولم يتأكَّد من أنَّ مُخاطِبَهُ ما زال قادرًا على سماعه - أحلف لك!

كان بانكيم ينتظره بجانب سيَّارة الإسعاف. وخلفه كلُّ أعضاء نادي شوبار وآخرون ممّن حضروا الكارثة التي حلَّت بميتم سانت باتريك. كانوا ينظرون إليه بقلقٍ ويأس. اقترب بِنْ من بانكيم وحدَّق إلى عينيه المحتقنتين بالدماء من شدّة الدخان والدموع.

- بانكيم، أريدك أن تخبرني بأمر. - قال بِنْ - هل جاء رجلٌ يدعى جافاهال لزيارة السيّد كارتر ؟

نظر إليه الأستاذ ولم يفهم.



- لم يأتِ أحدٌ هذا اليوم. - أجاب - كان السيّد كارتر طوال هذا الصباح في اجتماعٍ مع المجلس الاستشاريّ وعاد نحو منتصف النهار، وطلب ألَّا يدخل إليه أحد، حتَّى من أجل الغداء.

- أمتأكِّدٌ أنت من أنَّه كان بمفرده في المكتب لحظة وقوع الانفجار؟ - سأله بِنْ مؤملاً في سماع ردٍّ إيجابيّ.

- أجل. أعتقد ذلك. - أجاب بانكيم بنبرةٍ حاسمة، مع أنَّ ظلال الشكّ خيَّمت على نظرته - لماذا تطرح عليَّ هذا السؤال؟ ما الذي قاله لك ؟

- هل أنت متأكِّدٌ تمامًا يا بانكيم ؟ - ألحَّ بِنْ - فكِّرْ جيِّدًا. الأمر في غاية الأهمِّيَّة.

أخفض الأستاذ ناظرَيه ودلَّكَ جبينه، كمن يبحث عن كلماتٍ مناسبةٍ لوصف ما كان بالكاد يذكره .

- للوهلة الأولى - قال - بعد لحظةٍ من الانفجار، تملَّكني انطباعٌ بأنّي رأيتُ شيئًا ما أو أحدًا ما يخرج من المكتب. كان الارتباك يطغى على المشهد كليًّا.

- شيءٌ ما أو أحدٌ ما؟ - سأله بِنْ - ما هو ؟

رفع بانكيم عينيه وهزَّ كتفيه.

- لا أدري. - أجاب - لا أعرف شيئًا يتحرَّك بسرعته.



- حيوان ؟

- لا أعرف ما رأيتُ يا بِنْ. فعلى الأرجح أن يكون ثمرةً من خيالي.

كان بِنْ على درايةٍ بنفور بانكيم من الغرائبيّات والخرافات والخوارق. كان الفتى يعلم أنَّ الأستاذ لم يكن ليقرَّ بأنَّه شاهد شيئًا يتفلَّتُ من مقدرته على التحليل أو الإدراك. وإذا كان عقله عاجزًا عن شرحه، فهذا يعني أنَّ عينيه لم تشاهداه. الأمر بهذه البساطة.

- فلنفترض أنَّه ثمرةٌ من خيالك - سأله بِنْ للمرَّة الأخيرة - ماذا تخيَّلتَ غير ذلك؟

وجَّهَ بانكيم نظره إلى الفتحة المتفحِّمة التي تحتلُّ ما كان منذ بضع ساعات مكتبَ توماس كارتر.

- بدا لي أنَّه يضحك. - أقرَّ بصوتٍ منخفض - لكنّي لن أردِّدَ ما قلته توًا لأحدٍ غيرك.

هزَّ بِنْ رأسه متفهِّمًا وترك الأستاذَ بجانب سيَّارة الإسعاف وعاد إلى أصدقائه الذين ينتظرون معرفة ما جرى بينه وبين السيّد كارتر مُتلهِّفين.

كانت شير وسطهم، تنظر إليه بقلقٍ واضح، كما لو أنَّها الوحيدة القادرة في قرارة نفسها على التنبّؤ بأنَّ الأخبار التي حملها بِنْ كانت ستنحو بالأحداث منحىً مظلمًا وخطيرًا لن يُبقي على أحد.

- علينا أن نتحدَّث. - قال بِنْ متمهِّلاً - ولكن ليس هنا .



أذكر ذلك الصباح من شهر مايو باعتباره أوَّلَ شرارةٍ للعاصفة التي تلبَّدت فوق مصائرنا، وتعاظمت خلف ظهورنا في ظلّ براءتنا التي أوهمتنا بأنَّنا نستحقُّ أن نحيا بهناءٍ مَن حُرِمَ من ماضيه فلا يخشى شيئًا على مستقبله.

كَنَّا نجهل في تلك اللحظة أنَّ ضباع المأساة لم تكن تطارد توماس كارتر المتعوس. كانت أنيابها متعطِّشة لدماءٍ فتيَّة وموصومة باللعنة، دماء لا تستطيع أن تتخفّى بين الحشود المتزاحمة في أسواق الشوارع ولا في أعماق أحد قصور كلكتا المنيعة.

تَبِعْنا بِنْ نحو قصر منتصف الليل بحثًا عن مكانٍ سرّيٍّ لنصغي إلى ما سيقوله لنا. لم يتملَّك أيٌّ منَّا في ذلك اليوم خوفٌ ناجمٌ عن الحادث الغريب والكلمات المتردِّدة التي لفظتها شفتا مديرنا وقد قبَّلَتها النيران؛ خوفٌ ينضح بتهديدٍ أشدّ وطأةً من الفراق والفراغ الذي بدت صفحاتُ مصيرنا البيضاءُ تقتادنا إليه. كان علينا أن نتعلَّم أنَّ الشيطانَ خلق سنَّ الشباب ليجعلنا نقترف أخطاءنا، وأنَّ الربَّ أسَّسَ مرحلة النضج والشيخوخة ليمنحنا فرصةً لدفع الأثمان.

أذكر أيضًا أنَّنا استمعنا إلى ملخَّص بِنْ لمحادثته مع توماس كارتر، فأدركنا جميعًا بلا استثناء أنَّه كان يخفي عنّا شيئًا ممَّا باح به المدير على مسامعه. وأذكر التعبير المرتبك الذي لاح على وجوه أصدقائي، ووجهي، حين عرفنا للمرَّة الأولى منذ أعوامٍ طويلة أنَّ رفيقنا آثر أن يستبعدنا من الحقيقة، أيًّا كانت أسبابه.

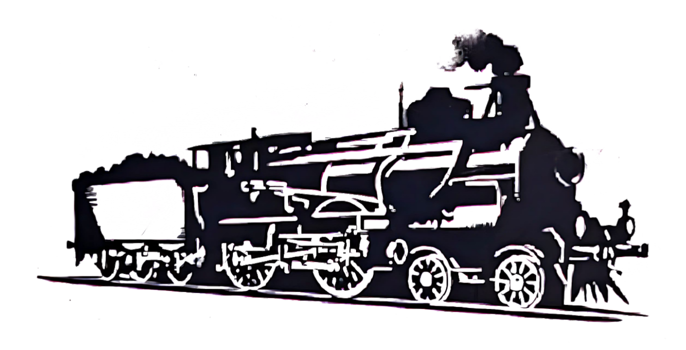


وعندما أراد بعدئذ أن يتحدَّث على انفرادٍ مع شير، فكّرتُ أنَّ صديقي المفضَّل كان يتعرَّض للطعنة النهائيّة التي ستقضي على أيّام نادي شوبار. وكانت الوقائع ستثبت لي بالتالي أنَّني أسأتُ الحكم عليه مرَّةً أخرى، وعلى وفائه الذي استلهمه من عهودنا.

لكنِّي في تلك اللحظة اكتفيتُ بالنظر مليًّا إلى وجه صديقي بِنْ بينما كان يتحدَّث مع شير لأفهم أنَّ دولاب الحظِ عكَسَ دورتَهُ، وأنَّ هنالك يدًا تعمل في الخفاء على الطاولة، تدفعنا مراهنتُها إلى لعب مباراةٍ تفوق إمكانيّاتنا .



مدينة القصور



كان ذلك اليوم من شهر مايو ضبابيًّا ورطبًا وساخنًا، وكانت النقوش والتماثيل النافرة التي يزخر بها مقرُّ نادي شوبار السرِّيّ تبدو أشكالاً شمعيّةً نحتتها يدٌ عجولةٌ بسكّين. وكانت الشمس مختبئةً خلف طبقةٍ كثيفةٍ من غيومٍ رماديّة، وغبشٍ خانقٍ يتخثَّر في شوارع المدينة السوداء إذ يتصاعد من نهر هوغلي، بما يضاهي أبخرةَ مستنقعٍ ملوَّث.

كان بِنْ وشير يتناقشان خلف عمودين مهدومين في الصالة المركزيّة من الدار، بينما كان الآخرون ينتظرون على بُعد أمتار، مسترقين النظر إليهما بين الفينة والفينة بما يبعث على الشكوك.

- لا أدري إن كنتُ قد أحسنتُ صنعًا بإخفاء الأمر عن رفاقي. - اعترف بِنْ لشير - أعلم أنَّ ذلك سيؤسفهم، لأنَّه يخالف مبادئ نادي شوبار. ولكن إن كان هنالك احتمالٌ ضئيلٌ بوجود شخصٍ يتعقَّبني ليقتلني، وهذا ما أشكُّ فيه، فليس في نيَّتي أن أورِّط رفاقي في هذه المسألة. ولا أريد أن أورِّطكِ أنتِ أيضًا يا شير. لا أستطيع



أن أتصوَّر ما شأن جدَّتكِ بكلِّ هذا. لذا من الأفضل أن يبقى الأمر سرًّا بيننا، ريثما أكتشف أسبابه.

أومأت شير. كان يؤسفها أن تشاركه سرًّا قد يحول بينه وبين أصدقائه، لكنَّها في الوقت نفسه تعي خطورة الموقف، وتودُّ أن تبني علاقة قويّة مع الفتى.

- أنا كذلك عندي ما أقوله لك. - بادرت شير - في هذا الصباح، عندما كنتُ آتيةً لأودِّعكم، لم أكن أظنُّ أنَّ الموضوع في غاية الأهميّة، لَكِنَّ الأشياء تغيَّرت الآن. البارحة، عندما كنا عائدتين إلى البيت الذي ننزل فيه حاليًّا، حلَّفتني جدَّتي بألَّا أتحدَّث إليك أبدًا. قالت لي إنَّه ينبغي لي أن أنساك، وأنَّ أيَّ محاولةٍ للاقتراب منك قد تنتهي بمأساة.

زفر بِنْ إزاء السرعة التي يكتسبها ذلك السيل من المخاطر المحجوبة والمتعلِّقة به شخصيًّا وهي تتشكَّل على شفاه أشخاصٍ مختلفين. كان يبدو أنَّ الجميع، ما عداه، يعرفون سرًّا لا يجوز الإفصاح عنه يحيله إلى ورقةٍ قُدِّرَ عليها الشقاء. فما كان مجرَّد دهشةٍ في البداية، غدا قلقًا فيما بعد وها هو آنذاك يتحوَّل إلى غضبٍ رهيبٍ لما يحتويه من أسرارٍ تُحاك خلف ظهره.

- ما التفسيرات التي قدَّمتْها لكِ في هذا الخصوص؟ - سألها بِنْ - جدَّتكِ لم ترني في حياتها إلَّا البارحة، ولا أعتقد أنَّ سلوكي يُسوِّغُ ردّةَ فعلٍ غير منطقيّةٍ كهذه.



- لا أظنُّ أنَّها اعتمدت في كلامها على سلوكك. - قالت شير - لأنَّها كانت مذعورة. لم يكن في كلامها غضبٌ، إنَّما رعبٌ محض.

- علينا أن نجد تفسيرًا أنسب من الخوف، إن كنّا نريد اكتشاف ما الذي يحدث. - ردَّ بِنْ - فلنذهب إليها فورًا.

ثمَّ توجَّه إلى أعضاء النادي. كانت وجوههم تشي بأنَّهم ناقشوا الموضوع، وأنَّهم وصلوا إلى قرار. تكهَّن بِنْ شخصيّة الناطق باسم الاعتراض الذي لا مفرَّ منه. نظر الجميع إلى يان، فانكشفت المؤامرة، فرفع عينيه إلى السماء وتنهَّد.

- يان يريد أن يقول لك شيئًا. - حدَّدَت إيزوبيل - وهو يتحدَّث بالنيابة عنَّا جميعًا.

وقف بِنْ قبالة رفاقه وابتسم.

- أسمعكم.

- حسنًا... - بادر يان - ما نودُّ قوله راجعٌ إلى...

- ادخل في الموضوع، يان. - قاطعه سيث.

التفت إليه يان بكلِّ ما أوتي من سخطٍ مكتومٍ تحتويه شخصيَّته الباردة.

- إن كنتم قد اخترتموني لأتحدَّث بالنيابة عنكم، فدعوني أتكلَّم كما يروق لي. واضح؟



لم يعترض أحد. بل تركوه يختار النبرة التي تناسبه. فاستأنف يان مهمَّته.

- كنتُ أقول إنَّنا نعتقد بوجود شيءٍ غامض. فلقد أخبرتَنا أنَّ السيّد كارتر حدَّثك عن مجرمٍ يحوم حول الميتم واعتدى عليه. مجرم لم يره أحد، كما أنَّ تفسيراتك لم تُوضِّح لنا دوافعه. ولم نفهم لماذا اختارك المدير شخصيًّا ليتحدَّث إليك، ولماذا تناقشتَ مع بانكيم على انفراد، ولم تخبرنا بشيء عن ذلك. نعتقد إذًا أنَّ لديك أسبابك لحفظ سرٍّ لم تشاركه إلَّا مع شير. ولكن، إن كنتَ تأخذ هذا النادي بعين الاعتبار، فينبغي لك أن تثق بنا وألَّا تخفي عنا شيئًا.

قيَّمَ بِنْ كلمات يان وراقب وجوه رفاقه الذين أومأوا موافقين على خطاب الناطق باسمهم.

- إن كنتُ قد أخفيتُ عنكم شيئًا فهذا لأنَّني أعتقد أنَّه سيُعرِّض حياتكم لمخاطر. - فسَّرَ بِنْ.

- إنَّ المبدأ الأساس لهذه الجماعة هي أن نتعاون بغضِّ النظر عن التداعيات، وألَّا تكون رفقتنا مجرَّد استماعٍ لقصص الأشباح ومن ثَمَّ التخاذل عند أوَّل مشكلةٍ تواجهنا. - احتجَّ سيث ساخطًا.

- هذه جماعة حقيقيّة، لا فرقة آنسات. - أضاف سراج.

ضربته إيزوبيل على قفاه.

- اخرس أنت. - صاحت.



- موافق. - أفصح بِنْ - الكلُّ للواحد والواحدُ للكلّ. أهذا ما تريدون ؟ الفرسان الثلاثة؟

حدَّقَ إليه الجميع، ثمَّ هزّوا رؤوسهم بنعم .

- ممتاز. سأخبركم بما أعرفه. لكنِّي لا أعرف الشيء الكثير. - قال بِنْ.

أصغى أعضاء النادي إلى روايته المتكاملة، بما فيها محادثته مع بانكيم ومخاوف جدَّة شير. وبعد عشر دقائق، انتهت الإحاطة فتوالت الأسئلة.

- هل سمع أحدٌ منكم عن جافاهال هذا ؟ - سأل سيث - ماذا عنك يا سراج ؟

لم يُقدِّم الرجل الموسوعة إجابةً سوى النفي المطلق.

- هل نعلم ما إذا كانت للسيّد كارتر شؤونٌ مع شخصٍ من هذا النوعِ؟ هل يمكن لنا العثور في أرشيف الميتم عن شيءٍ يخصُّه؟ - سألت إيزوبيل.

- بإمكاننا أن نتحقَّق. - قال يان - الخطوة الأهمُّ الآن هي التحدُّث إلى جدَّتكِ يا شير، وكشف هذه المعضلة.

- موافق. - تدخَّلَ روشان - فلنذهب إليها، ثمَّ نقرِّر خطَّة العمل.

- أهناك اعتراضٌ على اقتراح روشان ؟ - سأل يان.



ساد الصمت بين جدران قصر منتصف الليل المحطَّمة.

- جيِّد، هيَّا بنا إذًا.

- مهلاً! - قال مايكل.

التفتوا إليه ليسمعوا صاحب قلم الرصاص الموهوب والغارق في صمته أبدًا، مؤرِّخ نادي شوبار.

- ألم تفكِّر في أنَّ كلَّ هذا قد يكون ذا صلةٍ بالحكاية التي رويتَها علينا هذا الصباح يا بِنْ؟

ابتلع بِنْ ريقه. كان يطرح على نفسه هذا السؤال منذ نصف ساعة، لكنَّه لم يجرؤ على الربط بين الحدثين.

- لا أرى الصلة يا مايكل. - قال سيث.

تَفكَّرَ الآخرون في الموضوع، ولم يبدُ أنَّ بينهم أحدًا يميل إلى مخالفة رأي سيث.

- لا أعتقد أنَّ هنالك صلة. - أراحهم بِنْ - أتصوَّر أنَّني رأيتُ مجرَّد حلم.

نظر إليه مايكل في عينيه مباشرةً، الأمر الذي لم يفعله قطّ، وأظهر على مرآه رسمًا صغيرًا يمسكه بين أصابعه. تفحَّصَه بِنْ وحدَّدَ فيه طيف قطارٍ يقطع سهلاً يغصُّ بأكواخٍ مدمَّرة. قطارٌ مهيبٌ مخروطيُّ الشكل، تعتليه مداخن كبيرة تنفث البخار والدخان،



يمضي تحت سماءٍ مرصَّعةٍ بنجومٍ سوداء. مقصوراتُهُ تشبُّ فيها النيران، ونوافذُهُ تزدحم على زجاجها وجوهٌ خياليّةٌ تلوِّح بأذرعها وتصرخ. لقد ترجم مايكل ما رواه بِنْ إلى لغة الرسم بأمانةٍ مطلقة، حتَّى إنَّ الأخير أحسَّ بقشعريرةٍ في ظهره فنظر إلى صديقه.

- لم أفهم يا مايكل. - غمغم - إلى أين تريد أن تصل ؟

اقتربت شير وشحب وجهها حالما رأت الرسم وأدركت الصلة التي اكتشفها مايكل بين رؤية بِنْ واحتراق مكتب مدير الميتم.

- النار. - غمغمت الفتاة - إنَّها النار.

***

ظلَّت دار أريامي بوز مغلقةً طوال أعوام، وما زالت أطياف ذكرياتها الحبيسة بين الجدران توحي بأجواء البيوت المسكونة بالكتب واللوحات.

قرَّرَ الرفاق بالإجماع أثناء مسيرهم أن تدخل شير أوَّلًا، وأن تضع أريامي في صورة الأحداث، وأن تبدي لها رغبة الفتية في التحدُّث إليها. وبعد اجتياز هذه المرحلة الأولى، اتَّفق أعضاء نادي شوبار على أنَّه من الأنسب تحديد عدد الممثِّلين للاجتماع مع العجوز، فرؤية سبعة مراهقين غرباء قد لا تساعدها في حلِّ عقدة لسانها. لذا، إضافةً إلى شير وبِنْ، قرَّروا أن يحضر يان المحادثة. وافق يان من جديد على تولِّي دور سفير الجماعة، مدركًا أنَّ هذا الدور ما لاق به لكونه المؤتمن بين أصحابه بقدر ما كانت ملامحه



البشوشة التي تحظى باستحسان الراشدين والموظَّفين الحكوميّين. وبأيّ حال، وبعد المسير في طرقات المدينة السوداء والانتظار قليلاً في الفِناء البرّيِّ المحيط بمقام أريامي بوز، انضمَّ يان إلى بِنْ، بإشارةٍ من شير، ودخلوا الدار في حين ظلَّ الآخرون ينتظرون عودتهم.

اقتادتهما شير إلى صالةٍ مضاءة بشكلٍ بائسٍ ببضع شموعٍ موضوعةٍ داخل أواني صغيرة مملوءة بالماء. وهكذا كانت قطرات الشمع الذائب تُكوِّنُ أزهارًا جامدة تُكدِّرُ انعكاس الشعلة. جلس الفتية الثلاثة قبالة العجوز التي كانت تراقبهم بصمتٍ من أريكتها، وتمعَّنوا في العتمة المخيِّمة على الجدران المكسوّة بالأقمشة والأرفف المدفونة بغبار السنين.

انتظرت أريامي أن تحطَّ أعين الأولاد عليها، فانحنت نحوهم بما يوحي بالثقة.

- أخبرتني حفيدتي بما حدث. - بادرت - لا أقول إنَّني متفاجئة. فلقد عشتُ أعوامًا طويلةً وأنا أخشى وقوع شيءٍ من هذا القبيل، لكنَّني لم أتخيَّل يومًا أن يكون بهذا الحجم، وهذه الطريقة. قبل كلِّ شيء، اعلموا أنَّ ما شهدتموه اليوم هو ليس سوى البداية، وأنَّه يتعيَّن عليكم الإصغاء إلى كلامي، ومن بعد ذلك تُقرِّرون بأنفسكم أن تتركوا الأمور تأخذ مجراها أو تتجنَّبوها كليًّا. بتُّ عجوزًا تنقصني العزيمة لمواجهة مخاطر تفوق قواي وأستصعب فهمها يومًا بعد يوم.



أمسكت شير يد جدَّتها المتجعِّدة وداعبتها بحنان. لاحظ يان كيف كان بِنْ يقضم أظفاره فلكزه .

- في إحدى مراحل حياتي ظننتُ أنْ لا شيء أقوى من الحبّ. الحبُّ قويٌّ بالتأكيد، لكنَّ قوَّته تخور أمام نار الحقد. - فسَّرَت أريامي - أعلم أنَّ هذه الإفادات ليست خير هديّة لعيد ميلادكم السادس عشر؛ ولا شكَّ أنَّ من حقّ الأطفال أن يجهلوا وجه الحياة الحقيقيّ حتَّى يصبحوا شبّانًا، لكنِّي أخشى أنَّكم لن تنعموا بهذا الامتياز المريب. أعلم أيضًا أنَّكم قد لا تُقدِّرون كلامي ورأيي لمجرَّد أنَّهما كلام ورأي امرأةٍ عجوز. لقد تعلَّمتُ على مدى الحياة كيف ألمح هذه النظرة في عيني حفيدتي. وبالفعل، إنَّ الحقيقة هي أصعب ما يمكن تصديقه، ولا شيء أقوى إغواءً من الكذب. هذه سنّة الحياة، وسيتعيَّن عليكم العثور على التوازن السليم. ورغم هذا، اسمحوا لي أن أشرح لكم أنَّ هذه العجوز سمعت ألف حكاية، لكنِّي لم أسمع حكايةً أشدّ بؤسًا ورعبًا من هذه التي سأرويها عليكم، والتي كنتم هذا اليوم أبطالها ، من حيث لا تدرون...

❋ ❋ ❋

- مرَّ زمانٌ كنتُ فيه أنا كذلك شابَّةً، وفعلتُ كلَّ ما يفعله الشبَّان: الزواج، إنجاب الأطفال، الاستدانة، الإحباط والتخلِّي عن الأحلام والمبادئ التي يُقسِمون على تحقيقها. بكلمةٍ واحدة: الشيخوخة. ورغم هذا كان القدَر سخيًّا معي، أو هكذا بدا لي في البدء على الأقلّ، فلاقى حياتي بحياة رجلٍ من أسوأ صفاته وأحسنها أنَّه كان طيِّبًا. لم يكن شابًّا حسن الطلعة، لا داعي للكذب. أذكر أنَّ أخواتي،



عندما جاء منزلنا، ضحكن عليه خلسةً. كان مغفَّلاً نوعًا ما، وخجولاً، وطباعه توحي بمن أمضى آخِرَ عشرة أعوامٍ من حياته محبوسًا في مكتبة: حلم كلِّ فتاةٍ من عمركِ يا شير.

كان خطيبي معلِّمًا في مدرسةٍ حكوميّةٍ تقع في جنوب كلكتا. وكان راتبه الشحيح ينعكس على ثيابه. وكان في كلِّ سبتٍ يأتي ليأخذني باللباس نفسه، لا يملك غيره ويُخصِّصه للاجتماعات في المدرسة والتغزُّل فيَّ. مضت ستَّة أعوام قبل أن استطاع شراء لباسٍ جديد، لكنَّ الثياب لم تكن تليق بجسده.

تزوَّجت أخواتي من رجالٍ لامعين ومتأنِّقين لا يحترمون جدَّكِ بما فيه الكفاية، وكانوا من خلف ظهره يرمونني بنظرات الإغواء، التي علي أن أفسِّرها بإمكانيَّة التمتُّع برجل حقيقيّ، وإن لبضع دقائق من حياتي.

ومع مرور الوقت، اضطُّر هؤلاء الأوغاد إلى العيش بفضل إحسان زوجي وأفضاله، لكنَّ هذه قصّة أخرى. كان يقرأ أفكار أولئك المتطفِّلين، إذ لطالما كان قادرًا على إبصار روح الشخص الذي يتعامل معه، ومع هذا لم يتأخَّر يومًا في مدِّ يد العون لهم، وتظاهر بأنّه نسيَ ازدراءهم واحتقارهم الذي عُومِل بهما في شبابه. أنا ما كنتُ لأفعلها، لكنّ زوجي كما قلتُ لكم كان طيِّبًا. وربّما أكثر من اللازم.

وكانت صحّته ضعيفة لسوء الحظ، وسرعان ما فارق الحياة بعد عام على إنجاب ابنتي الوحيدة، كيليان. أُرغِمتُ على تربيتها



بمفردي وحاولتُ أن أعلِّمَها كل ما ودَّ والدُها أن يعلِّمَه إيّاها. كانت كيليان هي النور الَّذي أضاء حياتي بعد وفاة جدّكِ. فقد ورثت عنه طبعه الطيِّب وقدرته على قراءة قلوب الآخرين. لكنّها حيثُمَا أظهر بلادةً وخجلاً، أظهَرَت تألُّقًا و رُقيًّا. كان جمالها يتبدَّى في لمحاتها، صوتها، حركاتها. ففي طفولتها، سحرت الضيوف والناس في الطُّرقات بكلماتها. أذكر أنِّي رأيتها تدردش مع الباعة في البازار وهي لم تتمّ عامَها العاشر بعد، فتخيَّلتُ أنّ تلك الطفلة كالإوزَّة الّتي تبرز من مياه ذكرى أبيها، البطَّة القبيحة والمنحوسة. كانت روحه تحيا في

روحها، في حركاتها والطريقة التي تراقب فيها الناس أحيانًا من قنطرة هذه الدار، وتنظر إليَّ، بصفاء نفس، لتسألني ما سبب وجود كلّ هذا القدْر الكبير من التُّعساء في العالم.

وما لبث أهالي المدينة السوداء أن أشاروا إليها بالاسم الذي أطلقه عليها مصوّرٌ من بومباي: أميرة النور. وبطبيعة الحال سرعان ما ظهر من تحت الأرض مرشَّحون لتأدية الأمير تطَلُّعًا إلى أميرة كتلك. كانت تلك أيَّامًا رائعة، وكانت كيليان تطلِعُني على طرائف عشَّاقها المتأنِّقِين، وقصائدهم الركيكة التي كتبوها لها، وما هنالك من حكايا، حتَّى كدت أحسب أنّ كلّ شبَّان هذه المدينة ليسوا سوى حمقى مساكين. وبخلاف ذلك، كالعادة، دخل المشهد من كان سيغيره كليًّا: أبوكِ، أذكى وأغرب رجل عرفْتُه في حياتي.

كان الزَّواج في معظمه، في تلك الفترة، وكما هو عليه اليوم، يعقد بين العوائل كما لو كان اتِّفاقًا تجاريًّا بسيطًا، لا قيمة لإرادة



العروسين فيه إطلاقًا. إذ إنّ معظم عادات المجتمع هي ليستْ سوى أمراض هذا المجتمع. لذا أقسمتُ طوال حياتي ألّا تتزوج كيليان إلا الرَّجل الذي تختاره بإرادتها الحرَّة.

عندما طرق والدكِ على هذا الباب، كان يجسِّد الوجه الآخر لعشرات المغرورين المتنطِّعين الّذين كانوا يحومون بلا هوادة حول والدتكِ. كان قليل الكلام، لكنّه إذا تكلَّم صدرَتْ كلماتُه جامدة كالسكّين لا تترك مجالاً للرد. كان لطيفًا، وإذا أراد اتّسم بجاذبيّة فريدة تُغوي بطريقة بطيئة ولكن يصعب الحؤول دونها. وهذا على الرغم من أنَّه لطالما اتخذ سلوكًا متحفِّظًا

وباردًا مع الجميع. ما عدا أمِّكِ. كان في صحبتها يصير شخصًا آخر، مرهفًا كالأطفال. لم أتمكَّن يومًا من معرفة أي الشخصيَّتين هي الحقيقيَّة، وأعتقد أنّ أمَّكِ حملت معها هذا السرّ إلى قبرها.

كان أبوك يحيطني بإيضاحات شحيحة، هذا إذا تكرَّم وتحدَّث إليّ. وعندما قرّر أخيرًا طلب موافقتي للزواج بأُمِّكِ، سألته عن حالته الماديَّة وكيف كان سيرعى كيليان. فالأعوام التي عشتها مع جدّكِ على حدّ الفقر علَّمَتني أن أقي ابنتي من تجربة مماثلة، وأقنعتني بأنَّ المعِدَة الخاوية تفضح خرافة جوع الروح وتأثيرها النبيل.

نظر والدُكِ إليَّ محتفِظًا لنفسه بأفكاره الحقيقيَّة، مثلما فعل على الدَّوام، وأجاب أنَّ مهنته ستكون مهنة المهندس والكاتب. قال إنّه كان يحاول الحصول على عمل في شركة بناء بريطانية، وأن ناشرًا في دلهي سلَّفه مبلغًا مقابل مخطوطة سلَّمه إياها. كان هذا كلّه



يوحي إليَّ بالشقاء والحرمان، إذا ما عريناه من الأدب الذي كان أبوك يزين به أحاديثه كلما ناسبه ذلك. قلتُ له رأيي بكل وضوح. ابتسم وأخذ يدي بيديه برفق وهمس في أذني كلمات لن أنساها ما حييت: «أمّاه، أقولها لكِ للمرة الأولى والأخيرة. إنّ مستقبلي ومستقبل ابنتكِ بين أيدينا الآن، وكذلك ضرورة رعايتها وتكوين نفسي في الحياة. لا أحد، حيًّا كان أم ميْتًا، بوسعه عرقلة مساعيَّ. لا تقلقي بهذا الشأن، إنما ثقي بالحب الذي أشعر به تجاه ابنتكِ. أمّا إذا منعك القلق من النّوم، فحذار أن تتصرَّفي بشيء أو تنطقي بحرف قد يؤثِّر على الرباط الذي - بموافقتكِ أو من دونها _ سيجمعني بكيليان، وإلّا لن يكون الأبد طويلاً بما يكفي للندم على ذلك».

تزوَّجا بعد ثلاثة أشهر، ولم أحظَ بفرصة للحديث معه وجهًا لوجه بعدئذٍ. أمدَّه المستقبل بالدافع وسرعان ما كوَّن اسمه مهندسًا، دون أن يهمل شغفه بالأدب. انتقلا إلى بيتٍ ليس ببعيدٍ عن هنا، هُدِم منذ أعوام، ريثما كان يخطِّط لدار أحلامه، قصْرٌ حقيقيٌّ فكَّر فيه بالمليمتر ليعيش فيه يومًا ما مع أمِّكِ. لم يكن أحدٌ يتخيَّلُ ما الذي كان سيحدث .

وفي الواقع لم أتمكَّن من التعرُّف إليه حقًّا. ولم يسمح لي قط، ولم يرَ أيَّ أهميَّة لفتح أبوابه لأحد إلا لوالدتكِ.

كانتْ شخصيَّتُه ترهبني، وكنتُ أشعرُ في حضوره عاجزة عن فتح أيِّ موضوع أو كسب ودِّه. من المستحيل معرفة ما الذي يدور في خلده. كنتُ أقرأ كتبه كلَّها، الَّتي كانتْ أمُّكِ تأتيني بها عندما تزورني،



وأدرسها حتى السطر الأخير بحثًا عن المفتاح المخبَّأ الذي يدخلني في متاهة عقله. أخفقتُ دومًا في دخولها.

كان والدكِ رجلاً غامضًا لا يتحدَّث عن عائلته وماضيه البتَّة. وربَّما كان هذا السبب وراء عجزي عن تلقّ ّف التهديد الذي كان يحيق به وبابنتي، التهديد الّذي جاء من ذلك الماضي الملغز والمبهم، لم يسمح لي بمساعدته، وفي زمن التعاسة ظلَّ وحيدًا مثلما كان طوال حياته، حبيسًا بحصن العزلة الذي اختاره بنفسه، والذي كانت مفاتيحه في يد شخصٍ واحدٍ عاشَره : كيليان.

لكنَّ والدكِ، مثلنا جميعًا، كان له ماضٍ؛ وإنّ هذا بالضبط ما ساق عائلتنا إلى الظلمة والمأساة.

كان في صغره فقيرًا يتسكَّع في شوارع كلكتا يحلم بالأرقام والصيَغ الرياضيّة، فتعرف على فتىً يتيمٍ ووحيدٍ من عمره. في تلك الفترة، أصابته الحمّى التي عادةً ما تصيب أولاد هذه المدينة وتحصد كلّ عام آلاف الأرواح. إذ كانت الأمطار الموسميّة تتساقط بغزارة على منطقة البنغال، فتفيض دلتا الغانج وتشكِّلَ بحيرةً مالحةً، ما تزال حتّى اليوم في شرق المدينة. ثمّ عندما تتوقَّف الأمطار وينخفض منسوب المياه، الأسماك الميتة التي تسفعها الشمس غيمةٌ من بخارٍ سامًّ، تجرُّها الريح التي تهبُّ من جبال الشمال، فتكتسح المدينة وتزرع الموت والمرض كالطاعون المبيد .

وفي ذلك العام كاد أبوكِ يموت بسبب الرِّياح القاتلة، لولا أنقذه رفيقُه، جافاهال، واعتنى به مدّة عشرين يومًا في كوخ من الطوب



اللبِنِ على ضفاف نهر هوغلي. وحينما شُفِي، أقسم أنَّه سيدافع عن جافاهال إلى الأبد، وأن يقاسمه كلَّ ما يعده به المستقبل، إذ صارتْ حياته مرهونةً بيده. كان قسَمًا بين ولدين. اتِّفاق على الدم والشرف. ولكن هنالك ما لم يكن أبوكِ يعرفه: جافاهال، ذلك الملاك المنقذ البالغ من العمر أحد عشر عامًا، كان يسري في عروقه داءٌ أشدُّ وطأةً من المرض الذي كاد يقضي على أبيكِ. داءٌ بدأت معالمه بالظهور لاحقًا، بشكلٍ تدريجيٍّ، حتى استفحل كاللعنة: داءُ الجنون.

أعوام، عرف أبوكِ أنّ والدة جافاهال أحرقت نفسها على مرأى ابنها قربانًا للإلهة كالي، وأنّ جدَّته من أمِّه أنهت حياتها في منفردة بائسة من مصحَّة بومباي النفسيَّة. خواتم في عقد طويل من أحداث ساقت تلك الأسرة إلى درب الأهوال والمآسي. لكنّ والدكِ كان رجلاً قويًّا، حتَّى في صباه، فأخذَ على عاتقه رعاية صديقه، مهما كلَّفه ذلك.

وسارتْ الأمور على ما يرام إلى أن أتمَّ جافاهال عامه الثامن عشر، وقَتَل بدمٍ بارد بائعًا غنيًّا في البازار لرفضه أن يبيعه قلادة، مستخفًّا بمظهره ومتشكّكًا بحالته الماديّة. فأخفاه أبوكِ في بيته لأشهر وعرَّض حياته ومستقبله للخطر لإنقاذه من العدالة التي كانت تبحث عنه في كلِّ أرجاء المدينة. واستطاع، لكن ذلك لم يكن سوى الخطوة الأولى. فبعد عام، في ليلة رأس السنة الهندوسيّة، أحرق جافاهال بيتًا تسكنه مجموعة من العُجَّز وتربَّعَ على الأرض



ليشاهد منظر النيران حتّى انهدمت الدعامات واستحالت جمرًا. وفي تلك المرة لم تفلح خطط والدكِ لإنقاذه من القانون .

كانتْ محاكمته طويلةً ورهيبة، واستحقَّ جافاهال حكمًا مؤبَّدًا على جرائمه. وفعل والدكِ ما بوسعه لمساعدته، وأنفق مدَّخراته على أتعاب المحامين، وإمداده بثيابٍ نظيفة في السجن الذي حُبس فيه، وتقديم الرشاوي لسجَّانيه لئلا يسيئوا معاملته. ولم يتلقَّ أبوكِ من عرفان إلّا كلماتٍ تنُمُّ عن الحقدِ. اتَّهمه بأنَّه وشى به وأنَّه تخلَّى عنه وأنَّه حاولَ التملُّصَ وعيَّرَه بأنَّه نكث عهدَه، وأقسَم على الانتقام منه، إذ صاح عليه من منصَّة المتَّهمين بعد قراءة الحكم أنّ نصف حياته مرهونةٌ بيده .

دفن والدُكِ هذا السرَّ في أعماق قلبه ولم يشأ أن تطَّلع عليه أمُّكِ. ومحتْ السنوات الآثار الظاهرة لهذه الذكرى. وبعد الزفاف وأوائل فترة الزواج والنجاح، بدَتْ له تلك الذكرى مجرد حدثٍ منسيٍّ في ماضٍ بعيدٍ .

أذكر أن والدتكِ حبلت. فتحول والدكِ إلى شخصٍ آخر، غريب. اشترى جروَ حراسةٍ وقال إنَّه سيدربه ليصبح خير مجالسٍ لابنه، وما انفكَّ يتحدث عن الدّار التي سيبنيها، ومشاريعه من أجل المستقبل، وكتاب جديد...

وبعد شهر، طرق الملازم مايكل بيك، أحد الراغبين القدامى بوالدتكِ، طرق على الباب يحمل نبأ سيزرع الخوف في حياتهما:



جافاهال أحرق جناحًا من السجن الشديد الحراسة الذي كان محبوسًا فيه وهرب، بعد أن كتب على جدران زنزانته، بدم زميله المذبوح كلمة «انتقام».

تطوَّع بيك شخصيًّا للعثور على جافاهال ولحمايتهما من أي تهديد. ومضى شهران بلا أنباء ولا دلائل على وجوده. حتى جاء عيد ميلاد أبيكِ.

عند الفجر، وصله مظروفٌ باسمه، سلَّمه إيَّاه أحد المتسوِّلين. كان يحتوي على قلادة، الجوهرة التي ارتكب من أجلها جافاهال جريمته الأولى، وبطاقة. كان قد كتب فيها أنّه بعد أن تجسّس عليهما عدَّة أسابيع واكتشف أنَّ أباكِ أصبح رجلاً ناجحًا ومرتبطًا بزوجةٍ رائعة، أراد أن يهنِّئَه على ذلك وربما يزوره ليشاطرَه ما كان مُلكًا لهما معًا على حد قوله.

تلتْ ذلكَ الحدَث أيَّامٌ من الفزع.

فقد عُثِر على أحد الحراس الذي عيَّنه بيك لحراسة الدار مقتولاً ذات ليلة. ووُجِد الكلب نافقًا في قاع بئر الفِناء. وكانت عبارات التهديد المكتوبة بالدم تظهر على حيطان الدار في كل ليلة مقابل عجز بيك ورجاله.

كانت تلك أيَّامًا عصيبة على أبيكِ. فلقد أنجز عمله الأهم توًّا، محطة جيتر على الضفة الشرقيَّة لنهر هوغلي: هيكلٌ فولاذيٌّ مذهلٌ وثوريٌّ بمثابة ذروة المشروع المرجوّ طويلاً: بناء سكَّة حديدٍ في البلد بأكمله تسمح بتطوير التجارة وتحديث المناطق



النائية، للتخلُّص من الهيمنة البريطانيَّة. ولطالما كان هذا أحد هواجسه. وكان قادرًا على التحدُّث عنه بحماسة تستمرُّ لساعاتٍ، كما لو أنها مُهمَّة كلَّفَته بها الآلهة.

أُقِيم التدشين الرسميّ لمحطة جيتر في نهاية ذلك الأسبوع، وقرَّر المنظِّمون أن يستأجروا من أجل المناسبة قطارًا ينقل ٣٦٠ طفلاً يتيمًا إلى مقامهم الجديد في الجانب الشرقيّ من البلد. كانوا أبناء أكثر الطبقات الاجتماعيّة المسحوقة فقرًا، ما يعني أنّ مشروع أبيكِ سيكون بمنزلةِ الحياةِ الجديدة بالنِّسبة إليهم. ولقد وهب نفسه لهذا الالتزام كُلِّيَا منذ اليوم الأوَّل وعقدَ عليه آمال حياته.

ألحَّت أمك على الذهاب لمشاهدة الحفل وإن لساعاتٍ قليلة، وأكَّدت له أنَّ حامية الملازم بيك ورجاله ستكفي لأمنها .

وعندما ركب والدكِ القطار الذي تحرك لينقل الأولاد إلى مقامهم الجديد، وقع أمرٌ لم يكن في الحسبان ولم يتحضَّر له أحد. النار. شبَّ حريقٌ رهيبٌ في عدَّة طوابق من المحطَّة ومقصورات القطار الَّذي دخل في نفقٍ فتحوَّل إلى جحيمٍ حقيقيَّة متنقِّلةٍ، أو قبرٍ حديديٍّ مصهورٍ لليتامى الَّذين على متنه. توفِّيَ أبوكِ في ذلك المساء بعد أن حاول إنقاذهم، بينما كانت أحلامه تتبدَّدُ بين ألسنة اللهب.

وعندما تلقَّت أمُّكِ النبأ، كادت تفقدُ رشدها. لكنَّ القدر شاءَ إنقاذَها، بعد أن ملَّ من إمطار عائلتنا بوابل المصائب. ولكن، بعد ثلاثة أيَّام، قبل الإنجاب بقليل، اقتحم جافاهال وأعوانه الدار



وخطفوا والدتكِ، وذلك بعد أن تبنّى مسؤوليته عن المأساة التي ألمَّت بمحطة جيتر.

نجا الملازم بيك وراح يطاردهم في أعماق المحطَّة، ذلك المكان الذي بات مهجورًا وملعونًا ولم يدخله أحد بعد الكارثة. ترك جافاهال بطاقةً يحلف فيها على قتل أمِّكِ وابنها الذي سيولد قريبًا. إلّا أنَّ هنالك ما لم يتوقَّعه هو نفسه. لم يكن طفلاً. إنما طفلان. توأم. ذكر وأنثى. أنتما الاثنان...

استمرَّتْ أريامي بوز في سرد بقية الحكاية: كيف استطاع بيك إنقاذهما والإتيان بهما إلى دارها، وكيف قرَّرت فصلهما وإخفاءهما عن قاتل أبيهما. ولكن لم يعد بِنْ وشير يصغيان إليها. لاحظ يان وجه أعزّ أصدقائه شاحبًا، ووجه شير. لم يرفّ لهما رمشْ؛ بدا أنَّ بوح العجوز يحولهما إلى تمثالين. تنفَّس يان عميقًا ورغب لو أنّ رفاقه لم يختاروه بالذات للشهادة على هذا الاجتماع العائليّ الغريب. كان يرى أنَّه يؤدِّي دور الدخيل على مشكلة صديقيه، وهذا ما أشعره بالإحراج.

ورغم هذا، كبت يان غيظَه ممّا اكتشف وركّز أفكارَه على بِنْ. حاول أن يتخيَّل العاصفة التي أثارتها حكايةُ أريامي في وجدانه، فلعنَ الطريقةَ الفظَّة التي اضطُّرت المرأةُ الخائفةُ والمتعبةُ إلى استخدامها للكشف عن أحداث أخطر ممَّا تبدو عليه. وتجاهل ما رواه بِنْ ذلك الصباح عن رؤيته للقطار المحترِق. كانتْ أجزاء هذه الأحجية تتزايد بسرعة مهولة.



لم يكن بوسعه أن ينسى تلك المرَّات التي أكّد فيها بِنْ أنَّ أعضاء نادي شوبار هم بلا ماضٍ. كانَ يان يخشى أن يمزِّقَ لقاءُ بِنْ بماضيه في عتمة تلك الدار قلبَه بلا أملٍ بالشفاءِ.

كان يعرف أحدهما الآخر مذ كانا صغيرين، وبعلم يان لحظاتِ التعاسة الطويلة والقاهرة التي تجثم أحيانًا على صدر بِن، وكيف كان يعينه على تجاوزها دون طرح أسئلة أو قراءة أفكاره. كان مدرِكًا لحجم الطعنة الخارقة التي اخترقتْ وجدان صديقه، وسبّبت جرحًا ما كان لبن نفسه أن يتحدَّث عنه.

حطَّ يان يده على كتف بِنْ برفق، لكنَّ الأخير بدا سارحًا في عالم آخر .

لم يعُد بِنْ وشير قادرين على تبادل النظرات، وقد كانا حتَّى ساعات يشعران بارتباط قويٍّ ملؤه الودُّ والاستلطاف. كما لو أنَّ الأوراقَ الجديدةَ التي وُزِّعَت في المباراة جعلتْهما يشعران بحشمةٍ غريبةٍ من نوعها.

نظرت أريامي إلى يان بقلق. كان الصمت يهيمن على الغرفة. وبدت نظرات العجوز تتوسّل الغفران، غفران رسول الأخبار السيِّئة. حنى يان رأسه مشيرًا إلى أريامي بالخروج معه من الغرفة. تردَّدت المرأة في البدء، فنهض الفتى ليمدَّ يده نحوها. قبِلَت السيَّدة عونه وتبعته إلى الغرفة المجاورة، لتتركَ بِنْ وشير وحدهما. توقف يان عند العتبة والتفت نحو صديقه .

- نحن هنا في الخارج. - غمغم .

فأوماً بن، من دون أن يرفع نظره .

كان أعضاء النادي مسترخين تحت الحرارة الخانقة في الفِناء عندما رأوا يان يخرج من باب الدار مصحوبًا بالمرأة العجوز. تبادلا النظرات. فأومأت أريامي وبحثتْ عن ملاذٍ في ظلِّ سقيفةٍ حجريَّةٍ قديمةٍ، ورمَقَتهم بنظرةٍ محبطة. اقترب يان من المجموعة، بمظهرٍ حازمٍ وفاتر، بإشارةٍ فسَّروها نذيرًا للأخبار السيِّئة.

جلس في المكان الذي أفسحه له الآخرون. وكانت نظراتهم عليه كالذباب على العسل

- وإذًا ؟ - سألته إيزوبيل معبِّرةً عمَّا يلهج به الرِّفاق .

- لا أدري من أين أبدأ. - أجاب يان.

- ابدأ من الأسوأ. - اقترح سيث.

- لا يوجد سوى الأسوأ. - ردَّ يان .

صمت الآخرون. نظر يان إليهم وافترَّت منه شبه ابتسامة .

- أمامك عشر آذانٍ تصغي إليك. - قالت إيزوبيل.

فكرَّر يان ما باحتْ به أريامي، دون أن يغفلَ عن أيِّ تفصيل، وخصَّص الخاتمة لبِن وشير اللَّذَين بقيا بمفردهما في الدار، والسيف الرَّهيب المسلَّط على رأسيهما. وعندما انتهى، كان



الأعضاء قد نسوا الحرّ الخانق الهابط من السماء كالعقاب الجهنَّميّ.

- كيف تلقَّى بِنْ الأمر؟ - سأله روشان.

رفع يان كتفيه وقطب جبينه .

- ليس جيدًا جدًّا، برأيي. - ارتجل - كيف كنت لتتلقاه أنت؟

- والآن ماذا سنفعل؟ - سألهم سراج.

- ماذا بوسعنا أن نفعل؟ - ردَّ يان.

- الكثير. - تدخَّلت إيزوبيل - أيّ شيء عدا أن نترك مؤخِّراتنا تُقلى تحت الشمس في حين أنَّ هنالك مجرِمًا يدبِّر لقتل بِنْ. وشير.

- هل يعترض أحد ؟ - سأل سيث .

نفى الجميع معًا.

- هيا بنا أيُّها الكولونيل. - قال يان متوَجِّها نحو إيزوبيل مباشرة - ما الذي تمليه علينا حضرتك؟

- أولاً، وقبل كلِّ شيء، ينبغي لأحدنا التحقُّق ما أمكنه عن حكاية الحريق في محطة جيتر، وعن المهندس. - أوضحت إيزوبيل.

- أنا لها. - تطوع سيث - لا بدَّ من وجود قصاصات جرائد تلك الفترة في مكتبة المتحف الهنديّ. وقد يكون هناك بعض الكتب.



- سيث على حق. - قال سراج - كان حريق المحطة حدثًا تاريخيًّا فارقًا. وما زال عالقًا في ذاكرة كثيرٍ من الناس. ولا بدّ من وجود وثائق بهذا الخصوص. يعلم اللهُ وحدَه أين، ولكن لا بدَّ أنها موجودة.

- يجب أن نبحثَ عنها. - حدَّدت إيزوبيل - قد تكون نقطة انطلاق.

.أنا سأساعده. - قال مايكل.

وافقت إيزوبيل بإيماءة قاطعة.

- نريد معرفة كلَّ شيء عن هذا الرجل، عن حياته وعن داره العجيبة التي من المفترض أن تكون في مكان ليس ببعيدٍ عن هنا.
- قالت - من الوارد أنَّ آثاره ستقودنا إلى القاتل.

- نحن سنبحثُ عن الدار. - تدخَّل سراج مشيرًا إلى نفسه وروشان
.

- إن كان لها وجود، فهي لنا. - أضاف روشان .

- حسنًا، ولكن لا تدخلوها. - حذَّرتهما إيزوبيل .

- لا مشكلة. - طمأنها روشان .

- وأنا؟ ماذا عليَّ فعله؟ - سأل يان الذي لا تخطر في باله وظيفةٌ تلائم قدراته بسهولة مثلما تخطر في بال رفاقه.



- أنت ستبقى مع بِنْ وشير. - قالتْ إيزوبيل - فبحسب معرفتنا، قد يفكر بِنْ في الإقدام على خطوة غير محمودة العواقب كلّ عشر دقائق وقبل أن نتفطَّن أساسًا. كن بقربه واحرص ألّا يرتكب حماقة. فتجواله صحبة شير ليست بالفكرة السليمة.

أومأ يان، مدركا أنَّ إيزوبيل اختارت له الوظيفة الأصعب .

- نتقابل في قصر منتصف اللّيل قبل الغروب. - ختمت إيزوبيل - هل لدى أحدكم شكوك؟

نظر الفتية بعضهم إلى بعضهم وهزُّوا رؤوسهم نافين.

- هيا إذًا، إلى العمل. - قالت إيزوبيل.

(عزيزي القارئ.. ما دمت تقرأ هذه الرواية فكن على يقين بأن قناة ضَاد هي من قامت بتوفير هذه النسخة! لذا تأكد من أنك تقرأها من قناتنا الرسمية على تطبيق تيليجرام. نعتذر على مقاطعتك، نتمنى لك قراءة ممتعة).

انطلق سيث ومايكل وروشان وسراج على جناح السُّرعة. ظلَّت إيزوبيل بجانب يان، تنظر إليهم وهم يمضون، غارقين في الهواء المرتعش المتصاعد من الطُّرقات الغبراء التي أحرقتها الشمس .

- وأنتِ، ماذا ستفعلين يا إيزوبيل؟ - سألها يان .

التفتت الفتاةُ إليه وابتسمتْ بطريقة ملغزة .

- لديَّ حدس. - قالت .



- أخشى حدسكِ بقدر ما أخشى زلزال. - ردّ يان - ماذا تخططين؟

- لا تشغل بالك. - غمغمت .

- عندما تقولين ذلك ينشغل بالي أكثر. - أجاب يان.

- ربّما هذا المساء لن آتي إلى هناك، إلى القصر. - قالت إيزوبيل - إن لم أعد، افعل ما عليك فعله. فأنت تعرف دومًا ما الأجدر فعله، يان.

تنهَّد الفتى قلِقًا. لم يستحسن ذلك الغموض بأكمله ولا الضوء الغريب الذي يلتمع في عينيّ صديقته .

- إيزوبيل، انظري إليَّ. - أمرها فأطاعت - لا تفعلي أيًّا من هذه الأفكار التي تحومُ في رأسكِ. - أعرف كيف أدافع عن نفسي. - ردّت وهي تبتسم.

لكنّ شفتيه لم تتمكَّنا من تقليد ابتسامتها. - لا تفعلي شيئًا ما كنت لأفعله. - رجاها .

ضحكت إيزوبيل. - بل سأفعل ما لن تتشجَّع أنت لفعله. - غمغمت .

نظر إليها حائرًا، ولم يفهم قصدها. اقتربت منه الفتاة ولم يَزُلْ لمعان عينيها الملغز، ولثمت ثغره .



- انتبه على نفسك، يان. - همست في أذنه - ولا تشغل بالك بأوهام.

كانت تلك أوَّل مرَّة تقبِّله فيها إيزوبيل، وإذ رآها تبتعد بين نباتات الفِناء لم يستطع يان أن يتجاهل هاجسًا مفاجئًا ومجهول الأسباب عن أنها قد تكون المرَّة الأخيرة أيضًا.

مضت حوالي الساعة، خرج بِنْ وشير إلى ضوء الشمس بهدوء وسكينةٍ. دنت شير من أريامي التي ما زالت بمفردها تحت السقيفة، لا مباليةً بمحاولات يان لفتح حوار معها. جلست بجانبها، فيما سار بِنْ نحو يان مباشرة.

- أين الآخرون ؟ - سأله.

- فكَّرنا أنَّه لا بد من إجراء بعض التحقيقات حول ذلك الفرد، جافاهال. - أجاب يان.

- وأنت بقيتَ هنا لترعاني؟ - مازح بِنْ صديقه مع أنَّ إخفاء قلقه لم ينطل عليه.

- تقريبًا. هل أنت بخير؟ - أجاب يان مشيرًا برأسه إلى شير.

_ أومأ بِنْ بنعم .

- مشوّش، على ما أظن. - قال بعد قليل - أكره المفاجآت.



- إيزوبيل ترى أنّه ليس من المستحسن أن تتجوَّل أنت وشير معًا. وأعتقد أنَّها على حق.

- إيزوبيل دومًا على حق، إلّا عندما تناقشني.

- قال بِنْ - لكنِّي أظنُّ أنَّه مكان آمن لنا. فهذه تبقى دار العائلة، حتى لو ظلّت مغلقة لأكثر من خمسة عشر عامًا. فالميتم ليس بأكثر أمنًا.

- أعتقد أنَّه من الأفضل الذهاب إلى قصر منتصف اللَّيل وانتظار الآخرين هناك. - اقترح يان.

.أهذه خطة إيزوبيل؟ - ابتسم بِنْ.

- احزر...

- أين ذهبت؟

- لم تشأ إخباري.

- أجاءها حدسٌ ما؟ - سأله بِنْ مستنفرًا.

أومأ يان فزفر صديقه محبطًا.

- تلطَّف بنا يا رب. - قال بِنْ وهو يربِّت على كتف يان - سأذهب للتحدُّث مع السيِّدتين .



التفت يان لينظر إلى شير وأريامي بوز. كانتْ العجوز تناقش بطريقة محمومة. فتبادل بِنْ وبان النظرات .

- أعتقد أنّ السيدة لن تتخلّى بسهولة عن مشروعها في السفر إلى بومباي غدًا. - علّق بِنْ.

- هل ستذهب معهما؟

- ليست لديَّ نيةٌ في مغادرة هذه المدينة. والآن أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

راقب الصديقان كيف يجري النقاش بين الجدَّة والحفيدة، واتَّجه بِنْ نحوهما في النهاية.

- انتظرني هنا. - قال ليان .

عادت أريامي إلى الدار وتركتْ بِنْ وحده مع شير عند العتبة. كان وجه الفتاة ملتهِبًا من شدَّة الغضب، فانتظر بِنْ أن تختار اللَّحظة المناسبة لتتكلّم. وعندما فعلتها، كان صوتها يرتجف من الغيظ والعجز، ويداها تشتَبِكَان في عُقْدةٍ متوترةٍ لا تلين.

- تقول إننا سنغادر غدًا، وإنًّها لن تعاود فتح الموضوع أبدًا. - أوضحت شير - تقول أيضًا إنّه ينبغي لك المجيء معنا، لكنّها لن تجبرك .

- أتخيَّل أنها ترى السفر أفضل حلٍّ لك. - قال بِنْ .



- ألا تظنُّ ذلك أنت؟

- أكذب إن قلت نعم. - أقرَّ الفتى.

- لقد عشتُ حياتي كلَّها وأنا أهرب من بلدة إلى أخرى، بالقطار، على متن قارب، بالعربة، لم يكن لديّ بيت، ولا أصدقاء ولا مكان أعتبره مكاني. - قالت شير - لقد تعبتُ يا بِنْـ لا يمكنني الهرب طوال الحياة من شخص لا أعرفه حتّى.

نظر الشقيقان أحدهما إلى الآخر بصمت .

- إنّها عجوزٌ يا بِنْ. تخاف لأنَّ حياتها ستنتهي قريبًا وتشعر بعدم قدرتها على حمايتي وقتًا طويلاً. - أضافت الفتاة - أعلم أنَّها تفعل ما يمليه عليها قلبها، لكنّ الهرب لم يعد ينفع في شيء. ما الفائدة من ركوب القطار إلى بومباي غدًا؟ والنزول في محطة لا على التعيين باسم آخر ؟ وتسوُّل المأوى في بلدٍ لا على التعيين إذا كنَّا نعلم أنَّنا سنهرب منه مجدَّدًا؟

- هل قلتِ هذا لأريامي؟ - سألها.

- لا تريد أن تصغي إليَّ. لكنَّني لن أهربَ من جديدٍ هذه المرَّة. هذه داري، هذه مدينة والدي، وأريد أن أبقى هنا. وإن جاء ذلك الرجل يبحث عني واجهتُهُ. وإن أراد قتلي فليفعل. ولكن إن كُتِب لي أن أعيش فلن أعيشَ كالهاربة التي تشكرُ الربَّ كلّ يومٍ لأنها استطاعت أن ترى شمس النهار. هلّا ساعدتني يا بن؟



- بالتأكيد. - أجاب الفتى.

عانقته شير ومسحتْ عينيها بأهداب ردائها الأبيض.

- أتدري يا بن؟ ليلة أمس، حين كنَّا مع أصدقائكَ في تلك الدار المهجورة، قصر منتصف الليل، وبينما كنتُ أروي عليكم حكايتي، فكَّرتُ أنَّني لم أستطع قط أن أكون طفلة كالأخريات. لقد نشأتُ وسط العجزة، بين المخاوف والأكاذيب، مع المتسوِّلين والمسافرين. تذكَّرْتِ أنَّني كنتُ أبتكر أصدقاء لا تراهم العين فأحادثهم لساعاتٍ في صالات الانتظار بالمحطَّات أو في العربات. كان الكبار ينظرون إليَّ ويبتسمون. لأنهم إذا رأوا طفلة تحادث نفسها اعتبروها رؤيةً جميلةً. لكنّ الأمر ليس كذلك يا بِنْ. ليس من الجميل أن يكون المرء وحيدًا، لا في صغره ولا في شيخوخته. لقد تساءلت طوال أعوام كيف هم الأطفال الآخرون، هل يرون كوابيسي نفسها، هل تراودهم تعاستي نفسها؟ من قال إنَّ الطفولة أسعدُ مراحل الحياة إمّا كاذبٌ وإمّا غبيّ.

_نظر بِنْ إلى شقيقته وابتسم لها .

- وربَّما كلا الصفتين معًا. مازحها - فعادةً ما كانتَا متلازمتين.

احمرَّت شير خجلاً.

- آسفة. - قالت - أتحدث كثيرًا، صحيح؟



- لا. - نفى - أحبُّ الإصغاء إليكِ. ثم إنَّ بيننا أمورًا مشتركة أكثر مما تتوقَّعين.

- نحن شقيقان. - ضحكت الفتاة - أيبدو لك ذلك عديم الأهميَّة؟ نحن توأمان! يا للغرابة!

- حسنًا، كما يُقال، بوسعكِ اختيار الأصدقاء، أمَّا العائلة فتأخذينها على علَّاتها.

- أفضِّل أن تكون صديقًا لي إذًا. - قالت شير.

اقترب يان من الشقيقين وارتاح لرؤيتهما يتمازحان بمزاجٍ معتدل، وهذا أمرٌ عظيم، نظرًا إلى خطورة الحالة.

- إن كان هذا ما تريدين. هذه السيِّدَة تريد أن تكون صديقةً لي، يا يان ؟

- لا أنصحكِ بذلك. - قال يان ليدخلَ في اللعبة - فأنا صديقه منذ سنوات وانظري إلى حالي.

هل اتَّخذتما قرارًا؟

أشار بِنْ بإيجاب.

- أهو القرار الذي أتصوَّره؟ - سأله يان .

أشار بِنْ بإيجاب ثانيةً، هو وشير هذه المرة.



- ماذا قررتما؟

- ظهر صوت أريامي بوز المرير من خلفهم. التفت الأولاد الثلاثة ورأوا طيف العجوز، متسمِّرًا في الظل خلف العتبة. فهبط صمتٌ حذر عليهم.

- لن نسافر بقطار الغد يا جدَّة. - أجابت شير بهدوء - لا أنا ولا بِنْ.

حدّقت إليهما العجوز واحدًا تلو الآخر، بنظرة صاعقة. - هل أنستك كلمات ولدين قذرَيْن كلَّ ما علَّمته إيَّاكِ على مدى أعوام؟ - سخطت أريامي.

- لا يا جدَّتي. هذا قراري. ولا شيء في الدنيا سيرغمني على تبديله.

- ستفعلين ما أمليه عليكِ. - اختصرت المرأة، مع أنَّ رائحة الهزيمة فاحت من كلماتها .

- سيِّدتي... - بادر يان باحترام.

- اسكت أنت يا ولد. - صاحت أريامي بنبرةٍ جامدةٍ وقويَّة.

كبت يان رغبتَه في الردِّ وأخفض ناظريه .

- جدَّتي، لن أستقلَّ ذلك القطار. - قالت شير -

وأنتِ تعلمين

ركَّزت أريامي ناظريها على حفيدتها دون أن تلفظ كلمة.



- أنتظركما عند الفجر بمحطة هوراه. - قالت في النهاية.

زفرت شير ولاحظ بِنْ أنّ وجهَ الفتاة يلتهب ثانية. فأخذها من ذراعها وأشار لها بعدم متابعة النقاش. التفتت المرأة وعادت ببطء إلى داخل الدار.

- لا يمكنني أن أتركها هكذا. - غمغمت شير.

أومأ بِنْ وانفكَّ عن أخته، فلحقت بجدَّتها إلى الصالة، حيث كانت المرأة جالسةً أمام ضوء القنديل. لم تلتفت وظلَّت في مكانها، متجاهلةً وجود حفيدتها. اقتربت منها شير وعانقتها برفق

- اعلمي يا جدتي أنني أحبك مهما حصل. - قالت.

وافقتها أريامي بصمتٍ، وسمعت خطوات الفتاة تبتعد نحو الفِناء قبل أن تغالبها الدُّموع. وكان بِنْ وبان في الخارج ينتظران عودة شير فاستقبلاها بأكثر التعابير تفاؤلاً.

- والآن، إلى أين نذهب؟ - سألتهما شير، بمقلتين يترقرق فيهما الدمع، وبدين ترتجفان.

- إلى أفضل مكان في كلكتا. - أجاب بِنْ - إلى قصر منتصف الليل.

بدأت أضواء العصر الأخيرة تذوي عندما تراءى لإيزوبيل مبنى خياليٌّ حادُّ الزوايا يبرز من بين ضباب النهر، كسرابٍ كاتدرائيَّةٍ مشؤومةٍ ابتلعتها النيران: محطة جيتر القديمة. حبسَتْ الفتاة أنفاسها وتوقفت لتأمُّل الرؤية التي تقشعرُّ منها الأبدان: نسيجٌ



مشبوكٌ من مئات الدعامات الفولاذيَّةِ والأقواس والقبب المتراكبة، في متاهة لا تُسبَر أغوارُها، قوامُها حديدٌ وزجاج تشظَّى بفعل النار. ثمَّة جسرٌ بائدٌ ومحطَّمٌ وخارجُ الاستعمالِ كُليًّا، يعبر النهر ليصل قنطرة المحطة بالضفَّة الأخرى، مفتوح مثل فمٍ أسودٍ لتنين ثابتٍ ومتربِّص، وصفوف أسنانه الطَّويلة والمدبَّبة تتلاشى في ظلمات أحشائه.

مشت إيزوبيل نحو الجسر المؤدِّي إلى محطَّة جيتر، وتجنّبت السكَّة القديمة التي تحفر فيه مسارًا مسدودًا ومتَّجِهًا إلى ذلك الضريح الجهنميّ. وكانت الدعامات التي تشكل الهيكل قد فسدت وتفحَّمت، تطغى عليها نباتاتٌ بريَّةٌ. أما الجسر الصدئ فكان يقرقع تحت قدميها، وما لبثت الفتاة أن تنبَّهت إلى وجود لافتاتٍ تمنع المرور بسبب خطورة الانهيارات. لم يقطع أي قطارٍ النهر على هذا الجسر منذ زمن، وافترضت إيزوبيل بالنظر إلى حالته المتردِّيَة والبائسة، أن لا أحد اعتزم إصلاحه أو حتى المشي عليه.

وكلما خلَّفت إيزابيل الضفَّة الشرقيَّة من كلكتا وراء ظهرها، تبدَّت أمامها معالم هذه الأحجية الهائلة والخياليَّة المكوَّنة من فولاذ المحطَّة وظلالها، تحت عباءة الغسق الحمراء. خامرها شكٌّ في أنَّ فكرة المجيء إلى هذا المكان لم يكن لها معنى مثلما كانت قد توقَّعت. فهناك فرق كبيرٌ بين أداء دور المغَامِرَةِ الجسورِ والحازِمَة إزَّاء الصِّعَاب، وبين الانغماس في ذلك السيناريو المرعِب، دون حتى معرفةٍ مسبقة بأيٍّ من صفحات المشهد الثالث .



هبَّت على وجهها نفثةُ بخارٍ مشبعٍ بالرَّماد وغبار الفحم المنبعث على دفقات من أنفاق المحطة العميقة. كانت الرائحة كريهةً وحمضيةً وثاقبةً، رائحةٌ ربطَتها إيزوبيل بمعملٍ مشحونٍ بالغازات القاتلة وطبقات القذارة والصدأ. ركَّزت ناظرَيها على الأضواء الأولى للقوارب الكبيرة التي تقطعُ النهر وحاولتْ أن تتذكَّر شركة ملَّاحيها المجهولين، بينما كانت تقطع على الجسر المسافة التي تفصلها عن مدخل المحطَّة. وعندما وصلت إلى الطرف الآخر، توقَّفت بين السكك المتداخلة في الظَّلام وتمعَّنت في الجبهة الفولاذيَّةِ الضخمةِ. في أعلاها أحرفٌ منقوشةٌ تعبِّر عن اسم المحطَّة وقد تفحَّم بفعل النيران، توحي بضريحٍ هائلِ الحجم: محطَّة جيتر.

تنفَّست إيزوبيل عميقًا وتهيَّأت لخوض أقلِّ ما رغبت في خوضه خلال أعوامها الستة عشر: الولوج إلى هذا المكان .

أشهَرَ سيث ومايكل ابتسامةً مبتهجةً تليقُ بتلميذٍ مثاليٍّ تحت الأنظار الاستجوابيَّة للسيِّد دي روثيو، مدير أمناء المكتبة البلديَّة بالمتحف الهندي، وخضعا لتحليله الجائر بضع لحظات .

- هذا أغرب طلب سمعته في حياتي. - علَّق دي روثيو - منذ آخر مرَّة أتيتما بها إلى هنا على الأقل.

- حسنًا يا سيّد دي روثيو. - ارتجل سيث - نعلم أن المكتبة لا تفتح أبوابها إلاّ في الصباح، وأنَّ طلبنا أنا ورفيقي قد يبدو غريبًا نوعًا ما ..



- إن كنت أنت صاحب الطلب فلا غرابة على الإطلاق أيَّها الفتى
- قاطعه دي روثيو.

كبت سيث ضحكته. كان حسٌّ دعابة السيّد دي روثيو الذي يدَّعي أنَّه لاذع، علامةً مبهمةً على ضعفه واهتمامه.

كان اسمه الحقيقيّ مجهولاً لدى الإنسانيَّة جمعاء، باستثناءٍ محتمَلٍ لأمِّه وزوجته، هذا إن افترضنا وجود امرأة شجاعة في الهند كلّها لدرجة أن تتزوج فردًا مشابهًا، دليلاً على مدى تنوُّع النوع البشري. كان دي روثيو يخفي خلف مظهره الدالّ على مولع صارم بالكتب، نقطة ضعف رهيبة: الفضول والنُّزوع إلى النّميمة على مستوىً أكاديميّ، يضع ثرثارات البازار في مرتبة الهواة البسطاء.

نظر سيث ومايكل بطرف العين أحدهما إلى الآخر، وقررا إسقاط الطّعم .

- سيد دي روثيو. - بادر سيث بنبرة ميلودراميّة - لا يتوجب علي الحديث بالأمر، إلا أنني أجدني مرغمًا على الوثوق بكتمانك المعروف لدى الجميع: هنالك عدّة جرائم مرتبطة بهذه الحكاية، ونخشى أن تقع جرائم أخرى ما لم نسارع إلى وضع حدٍّ لها.

توسّعَت حدقتَا أمين المكتبة الصغيرتان .

- هل أنتَ متأكِّدٌ أنَّ السيّد توماس كارتر على علم بكلٍّ هذا؟

- تحرّى بنبرة حازمة.



- هو الذي أرسلنا. - أجاب سيث.

تمعَّن دي روثيو فيهما ثانية، يبحث عن ثغرةٍ في تعابيرهما لعلَّها تفضح ما يشتبه بأنها خدعة.

- وصديقك. - صاح دي روثيو مشيرًا إلى مايكل

- لماذا لا يفتح فمه؟

- لأنَّه خجولٌ جدًّا، يا سيدي. - فسَّر سيث .

أومأ مايكل بحياء، كأنَّع يريد التأكيد على تلك المبالغة.

نحنح دي روثيو صوته، متردّدًا. - قلت إن في الموضوع جرائم؟ - قال بلامبالاة مقصودة.

- اغتيالات، يا سيِّدي. - أكَّد سيث - كثيرة.

نظر دي روثيو إلى الساعة، وبعد قليلٍ من التفكير والتحديق إلى الولدين والعقارب على التوالي، رفع كتفيه.

- حسنًا. - سمح لهما - لكنّها المرة الأخيرة. ما اسم الرجل الذي تريدان معرفة أخباره؟

- لاهافاج تشاندرا تشاترغي، يا سيِّدي. - سارع سيث إلى الرد .

- المهندس؟ - سأله دي روثيو - ألم يمُت في حريق محطة جيتر؟



- بلى يا سيّدي. - قال سيث - ولكن، كان معه رجلٌ آخر لم يمت، رجلٌ في منتهى الخطورة. هو الذي سبَّب الحريق. وما يزال هناك، مستعدًّا لارتكاب جرائم جديدة.

ابتسم دي روثيو بمكر.

- مثيرٌ للاهتمام. - غمغم .

وفجأة انقضَّ القلق على أمين المكتبة. حنَى دي روثيو وزنه المعتبر باتجاه الولدين ورفع إصبعه نحوهما بحركةٍ حاسمة. - أليس الأمر برمته من إبداع صديقكما؟ - صاح - ما كان اسمه؟

- بِنْ لا يعرف شيئًا عن هذه القصَّة يا سيّد دي روثيو. - طمأنه سيث - لم نره منذ أشهر.

- هذا أفضل. - قال أمين المكتبة - اتبعاني.

***

دخلت إيزوبيل بخطوات متوجِّسة إلى عمق المحطّة حتى اعتادت حدقتاها على الظلمة السَّائدة. كانت القبَّة الرئيسة فوقها بعشرات الأمتار، مكوَّنة من صفوف أقواس طويلة من الزجاج والحديد. وكانت معظم صفائح الزجاج قد ذابت جرَّاء الحريق أو تهشَّمت ببساطة، وطُحنت كحبَّات مطرٍ ملتهبَة تناثرَتْ في كافَّةِ أنحاءِ المحطَّة. وكان ضوءُ الشَّمس يتغلغل بين صدوع الحديد المتفحِّم وشظايا الزُّجاج الَّتي صمدت إبان الكارثة. تضيع أبعاد



الأرصفة في العتمة لترسمَ منحنىً رقيقًا تحت القبة الكبرى، بينما لا تزال فيها بقايا المقاعد المحترِقة والدَّعائم المنهارة من السقف.

السَّاعة الضَّخمة المركَّبة فيما مضى على الرصيف المركزيِّ مثل منارة عند رأس مرفأ، كانت آنذاك ناهضةً كحارسٍ تعيسٍ وصامتٍ. مرَّت إيزوبيل تحت السَّاعة ولاحظتْ أنَّ عقاربها قد انطوت نحو الأرض كأنَّها صُنِعت من مادَّة هُلاميّة. غدَتْ حينها مثل ألسنةٍ من الشوكولاتة المصهورة لتخلِّد لحظةَ الرُّعب الَّذي التهم المحطَّة.

لا شيء يبدو قد تغيَّر في ذلك المكان، ما عدا آثار الأوساخ على امتداد الأعوام المنقضية، وآثار الأمطار الموسميّة التي تسرَّبت من خلال المناور وصدوع القُبَّة.

توقَّفَت إيزوبيل في وسط المحطَّة تتأمَّلُها فبدا لها أنَّها داخل معبدٍ مغمورٍ هائلِ الحجم، لا حدود له، ومن العسير استكشافه.

هبّت عليها ريحٌ ساخنةٌ ورطبةٌ قطّعَتِ المبنى لتعبث بشعرها، حاملةً معها غبار الأوساخ. اقشعرَّ بدنُ إيزوبيل وأمعنتِ النَّظرَ في أفواه الأنفاق المظلمة التي تشتبِك بالأرض في عمق المحطّة. كان بودّها لو أنَّ أعضاء النادي رافقوها آنذاك وقد سلكَت الأحداثُ مسلكًا لا تُحْمَد عقباه، يشبهُ إلى حدٍّ كبير تلك الحكايات التي كان بِنْ يستمتع بإبداعها خلال أمسيَّاتهم في قصر منتصف الليل. فتَّشت إيزوبيل في جيوبها وأخرجتْ رسمةَ مايكل التِي تُجسِّد كلَّ أفراد الجماعة، واقفين أمام بركة تنعكس وجوههم على سطحها.



ابتسمَتْ وهي ترى نفسها مرسومة بقلم رصاص مايكل، وتساءلت ما إذا كان يراها كذلك حقًّا. اشتاقت إليهم، جميعًا .

وحينذاك تناهت إلى مسمعها للمرَّة الأولى من القاصي الدفين قرقرةُ تياراتٍ هوائيّةٍ تجتاز تلك الأنفاق. ضجَّةُ أصواتٍ بعيدة، شبيهةٍ بهمهمةِ الجموع، كتلك التي تذكُر أنَّها سمعتها عندما غطست في نهر هوغلي، قبل أعوام، في اليوم الذي علّمها بِنْ السباحة تحت الماء.

لكن إيزوبيل هذه المرَّة كانت على يقينٍ بأنَّها لا تسمعُ أصواتَ حجيجٍ يخرجون من أعماق الأنفاق. كانت أصوات أطفال، مئات من الأطفال. يصرخون من الفزع .

***

تلمَّس دي روثيو المستويات الثلاثة التي يتشكَّل منها لُغْزُهُ الملكيُّ وعاين من جديد رزمة الوثائق وقصاصات الجرائد والأوراق العشوائيَّة التي كان قد ضمّها إلى مجموعة المراسلات في بطن مكتبة المتحف الهندي الشبيهة بمكتبة الإسكندريّة. وكان سيث ومايكل ينتظرانه بإثارةٍ وتشويق

- جيّد. - بادر أمين المكتبة - هذه القصة أعقد مما تبدو عليه. هنالك كثيرٌ من المعلومات عن لاهافاج تشاندرا تشاترغي، بمسمّياتٍ مختلفة. وتبدو معظم الوثائق التي عاينتُها مكرَّرة وقليلة الأهميّة، لكنّني أحتاج إلى ما لا يقلّ عن أسبوع لأرتِّبَ أوراق هذا الفرد .



- ما الذي عثرتَ عليه يا سيدي؟ - سأله سيث .

- القليل من كل شيء، في الحقيقة. - فسّر دي روثيو - كان السيّد تشاندرا مهندسًا لامعًا وسابق عصره نوعًا ما. مثاليٌّ ومهووس بفكرة أن يترك لهذا البلد ميراثًا يعوِّض الفقراء

عن المآسي التي يعزوها إلى الهيمنة والاستغلال البريطانيّ. بصراحة، ليس فريدًا: كان لديه كلُّ المؤهلات ليصبح تعيسًا أصيلاً. ورغم هذا، يبدو أنّه استطاع تجنُّب بحرِ الحسد والمؤامراتِ والمناوراتِ على مسيرتِه، حتّى إنّه أقنع الحكومةَ بتمويل حلمه العظيم: بناء خطوط حديديّة توحّد الحواضر الكبرى لهذه الأمَّة ببقيّة القارَّة. كان تشاندرا يعتقد أنّ هذه الطريقة ستضع حدًّا للاحتكار التجاريّ والسياسيّ الذي بدأ في عهد اللورد كلايف وشركته، وأنَّ أبناء الهند سيستعيدون سيطرتهم على خيرات بلادهم. وفي الحقيقة، لا داعي ليكون المرء مهندسًا ليدرك أنَّ الأمور لم تجرِ على هذا النحو.

- هل هنالك شيء عن شخص يدعى جافاهال؟ - سأله سيث

- كان صديق المهندس في شبابه. وقد أجريت بحقِّه عدّة محاكمات. قضايا شهيرة، على ما أعتقد.

- قد يكون في مكان ما يا بنيّ، ولكن هنا ثمّة جبل من الوثائق التي ما زالت في حاجة إلى التصنيف. لم لا تعودان بعد أسبوعين، ريثما أتمكَّن من ترتيب هذه الفوضى؟



- لا يمكننا الانتظار أسبوعين يا سيّد. - قال مايكل .

رمق دي روثيو الولدَ متفاجئًا .

- أسبوع؟ - سأل.

- سيّد دي روثيو. - ردّ مايكل - إنها مسألة حياة أو موت. هنالك فردان في وضعٍ خطر.

رأى أمين المكتبة نظرة الفتى الكثيفة فأومأ موافقًا ومتردِّدًا نوعًا ما. فتعجَّل سيث باقتراح .

- سنساعدك نحن في البحث عن المعلومات وتصنيفها يا سيدي.
- تطوَّع.

- أنتما؟ - سألهما - لستُ أدري... ومتى؟

- مباشرةً. - ردّ مايكل.

- هل تعرفان نظام تبويب ملفات المكتبة؟ -

استجوبهما دي روثيو.

- كالأبجديَّة. - كذب سيث .

***



غرقتِ الشَّمس ككُرةٍ نازفةٍ خلف الزجاج المتكسّر للجانب لمحطّة جيتر، فوجدت إيزوبيل نفسها في غضون ثوانٍ ترى ذلك المشهد الباهر لمئاتٍ من شفرات الضوء الأحمر الأفقيّة تخترقُ عتمةَ المحطَّة. وكانتِ الأصواتُ الصَّارخةُ تتصاعدُ وسرعانَ ما سمعت إيزوبيل صداها في القبَّة الكبرى. بدأت الأرض تهتزُّ تحت قدميها ورأتِ الفتاة شظايا زجاجيَّة من السقف. شعرتْ بصعقةٍ في ساعدها الأيسر فوضعت يدها حيث تلقَّتِ الضربة. سالت دماؤها الفاترة بين أصابعها. ركضت نحو عمقِ المحطَّة وهي تقي وجهها بيديها .

وما إن لاذت بسلَّمٍ يصعد إلى الطوابق العليا، وجدت أمامها صالة انتظار رحبة، كانت مقاعدُها الخشبيَّة محترِقة ومقلوبة على الأرض. وكانت جدرانها مكسوَّة برسوماتٍ غريبة ومخطوطةٍ باليد بشكل صارخ، تعبِّر عن أشكال بشريَّة مشوَّهة تلبسها الجنّ فطالت أطرافها كأرجلِ الذئب وخرجت أعينُها من الأحداق. تكثَّف الاهتزاز تحت قدميها، فاقتربتْ إيزوبيل من مدخل النفق. فدهمتها نفثةٌ شديدةٌ من هواءٍ ساخنٍ سفع وجهَها فحكَّت عينيها عاجزةً عن تصديق ما ترى .

قطارٌ نورانيٌّ محاطٌ باللَّهيب ينبثق من أعماقِ النفق ويبصق دوائرَ ناريَّةً بعنفٍ كقذائفِ المدفعيَّة. ارتمَت إيزوبيل أرضًا واجتازَ القطارُ المحترقُ المحطَّةَ بقرقعته المدويةِ من ضرب الحديد على الحديد، وتصاعدَتْ في غمرة ذلك صرَخَاتُ المئاتِ من الأطفال المحاصَرين بين ألسَنة اللَّهب. ظلَّتْ ممدَّدةً ومغمضةَ العينين،



وقد شلّها الفزع، إلى أن تبدَّد ضجيج القطار في الهواء رفعتْ رأسها ونظرتْ حولها. كانتِ المحطَّة مقفرةً ومحجوبةً بغيمةٍ من بخارٍ ينبعث ببطءٍ ويشتعلُ بحمرةِ الغروب. أما قبالتها، على بعد سنتمترات عنها، توسَّعت بركةٌ من مادةٍ غامقةِ اللَّون، لزجة لدرجة أنّها تلتمع تحتَ أواخر ضوءِ النهار. خالتِ الفتاةُ لوهلةٍ أنها ترى على سطح البركة انعكاسًا لوجه امرأةٍ حزينةٍ وبهيَّةٍ تغمرها هالةُ النُّور، وتناديها. مدَّت يدًا نحوها، وأغرقتْ أناملَها في ذلك السائلِ الكثيف والدافئ. دماء. سحبت يدها على الفور ومسحت أصابعها بثيابها، في حين انحَسرت رؤيةُ ذلك الوجه الطيفيّ. تراجعت زاحفةً ولاهثةً نحو الحائط واستندت إليه لتلتقطَ أنفاسها.

وبعد دقيقة، نهضت إيزوبيل وعاينتِ الوضع. كانت أضواء المغيب تنطفئ وسيهبطُ اللَّيل. وفي تلك اللحظة الراهنة لم تفكِّر إلا في شيء واحد: لا تريد انتظار الظلام داخل محطّة جيتر. توجَّهت بقوَّة نحو قنطرةِ الخروج وحينذاك لاحظت طيفًا شبحيًّا يتقدَّم نحوها في الضباب الذي خيَّم على الأرصفة. رفع الشبحُ يده فرأتْ إيزوبيل كيف تتَّقد أصابعه بالنار، لتضيء لها الدرب. فأدركت إذ ذاك أنَّها لن تخرج من هناك كما دخلت بسهولة.

✵✵✵

من خلال السقف المهدوم في قصر منتصف الليل، بإمكانكَ التمتُّع برؤية السماء وليلها المرصَّعِ بالنجوم، كبحرٍ من شموعٍ صغيرة لا تحدُّه شطآن. كان الغروبُ قد حمل معه جزءًا من القيظِ الخانق الذي عذَّبَ المدينةَ منذ الفجر، لكن النَّسمة الخجولة التي



تداعب طرقات المدينة السوداء ما هي سوى زفرة فاترة ومشبعة بالرطوبة الليليَّة المنبعثة من نهر هوغلي.

كان بِنْ ويان وشير ينتظرون قدوم بقيّة الأعضاء، يقضون الوقت بهدوء، بين أطلال الدار القديمة، كل مشغول بهواجسه.

اختار بِنْ التسلق إلى ملجئه المفضّل، دعامة عرضيّة في جبهة المبنى الداخليّة. جلس في وسط الدعامة تمامًا، فتدلَّت ساقاه، وغالبًا ما صعد بِنْ إلى مركز المراقبة المعتاد ليتأمَّل أضواء المدينة وأشكال مبانيها ومقابرها المحاذية لمجرى نهر هوغلي المتعرِّج وهو يقطع كلكتا. كان يبقى في الأعلى ساعات، دون أن يتكلم أو أن يزعج نفسَه بالنظر نحو الأرض أبدًا. وكان أعضاء النادي يحترمون عادته تلك، من بين عاداته الكثيرة وغرائبه التي تنعش سلوكيّاته، وتعلَّموا أن يتعايشوا مع لحظات الكآبة الطويلة التي تراوده وترافق هبوطه من السماوات العلى.

نظر يان بطرف عينه إلى صديقه من فِناء القصر، وقرَّر أن يتركه بمفرده هناك يستمتع بإحدى خلواته الروحيَّة. وعاد في الأثناء لينشغل بالالتزام الذي أخذه على عاتقه في الساعة الأخيرة: أن يشرح لشير أساسيَّاتِ لعبة الشطرنج على رقعة يحتفظون بها في مقرِّ النادي. وكانت الأحجار مخصَّصةً للبطولات السنويَّة التي تنعقد في ديسمبر، حيث كانت إيزوبي تفوز بها على الدوام، لتختال بفَوقيَّة تكاد توصف بالمُهِينَة



- ثمّة نظريتان في استراتيجيّة الشطرنج. - أوضح يان - في الحقيقة، ثمّة آلاف النظريات، لكن اثنتين منها هما الأهمّ. الأولى تقول إنّ مفتاح اللَّعب يكمن في الصف الثاني من الأحجار: الملك، الحصان، القلعة، الوزير إلخ... وبناءً على هذه النظريّة، تكون البيادق كبش فداء أثناء تطوُّر التكتيك. أمَّا النظريَّة الثانية فتؤكِّد أنَّ البيادق تستطيع ويجب أن تكون السلاح الفتَّاك في الهجوم، وأنَّ الاستراتيجيّة الجيِّدَة ينبغي أن تستخدمها بهذه الطريقة إن كانت تتطلع نحو الفوز. أنا، والحقُّ يقال، لستُ مقتنعًا للغاية بأيًّ من هاتين النظريَّتَين، إلا أنّ إيزوبيل تدافع عن الثانية بشراسَة.

وما لبث أن ذكر اسم صديقتَه حتَّى تزايدَ قلقُه عليها إذ كان يجهلُ أين تكون في تلك الساعة. انتبهت شير إلى ارتباكه فألهته بسؤال آخر عن اللُّعبة.

- ما الفرق بين التكتيك والاستراتيجيَّة؟ أهي مسألةٌ فنِّيَّة محض؟

تفكّر يان في المسألة التي طرحتها شير وشكَّ في قدرتِه على الإجابة .

- الفرق أدبيٌّ، لا واقعيّ. - أكَّد بِنْ من الأعلى - التكتيك هو مجموع الخطوات الصغيرة التي تُقدِمين عليها لبلوغ غاية معيَّنة. أمَّا الاستراتيجيّة فهي الخطوات التي تقدِمين عليها حين تنعدم الأماكن التي يجب أن تتجهي إليها.

رفعت شير ناظريها وابتَسَمت له. - هل تلعب الشطرنج أنتَ كذلك؟ - سألته.



لم يردّ .

- بِنْ يكره الشطرنج. - قال يان - فهو يرى الشطرنج ثاني أسوأ طريقة لهدر الذَّكاء البشريّ. - وما الأولى؟ - سألته شير بمرح.

- الفلسفة. - أجاب بِنْ من برجِ المراقبة خاصَّته. - ها قد قالها. - تدخَّل يان - لمَ لا تهبط الآن؟ سيصل الآخرون عمَّا قريب.

- سأنتظر هنا. قال بِنْ وعاد إلى زاويته الصغيرة بين الغيوم ولم يهبط إلا بعد نصف ساعة، عندما كان يان مركِّزًا على شرح قفزة الحصان، فيما ظهر روشان وسراج عند عتبة فِناء قصر منتصف الليل. وظهر بعد قليل سيث ومايكل أيضًا، واجتمع الكلُّ حول موقِد النار الذي أعدَّه يان بما تبقَّى من حطبٍ مخزونٍ في مستودعِ محفوظ من الأمطار، خلف القصر .

كانتْ وجوهُ الفتية السبعة، حول النَّار، تتّسم بلون النُّحاس بينما كان بِنْ يمرِّر قنينة ماء إن لم تكن منعشة فهي ناقلةً لحمى قاتلة على الأقل.

- ألا ننتظر إيزوبيل؟ - سأل سراج، وقد تبدَّى عليه القلق من غياب موضوع غرامه الذي من طرفٍ واحد.

- لن تأتي ربّما. - قال يان .

نظَر إليه الجميعُ بارتباك. فروى عليهم يان بإيجازٍ عن محادثته مع إيزوبيل التي دارتْ في تلك الظهيرة نفسها، ولاحظ أنَّ وجوه



أصدقائه بدا عليها الشحوب. وعندما انتهى، ذكَّر الجميع بأنَّ إيزوبيل أوصته بأن يضعوا كلَّ ما توصّلوا إليه، بحضورها أو بعدمه؛ ثم أفسح الكلمة لمن أراد أن يتحدَّث.

- حسنًا. - قال سراج متوتِّرًا - سأشرح لكم ما اكتشفناه، ثم سأنطلق سريعًا للبحث عن إيزوبيل. لا يخطر في بال إلّا عنيدةٍ مثلها أن تتجوّلَ في ليلةٍ كهذه بمفردها ودون أن تخبرَ أحدًا بمكانها. كيف تركتها تغادر يا يان؟

تدخّل روشان لمساعدة يان وحطّ يده على كتف سراج .

- إيزوبيل لا تناقَش. - ذكَّره - يُصغَى إلى أفكارها. هيّا، حدّثنا عن قصة الكتابة الهيروغليفيّة ثمّ نذهب معًا للبحث عنها.

هيروغليفيّة؟ - سألت شير.

أومأ روشان .

- وجدنا الدار يا شير. - أوضح سراج

- أو بالأحرى، نعلم أين هي

أشرق وجه شير فجأة وأخذ قلبُها يخفق بقوة. اقترب الفتيةُ من النار وأخرج سراج ورقة نُسخت عليها بعض الأبيات بخطِّ يدِ ذلك الفتى الضعيف.

- وما هذه ؟ - سأله سيث.



- قصيدة. - أجاب سراج.

- اقرأها. - قال روشان

. هذه المدينة التي أحبُّها مظلِمةٌ وعميقة مثل

الدّار مقام الألغاز، والأرواح الملعونة.

في المدينة التي أحبُّها نحيا في الغسق في

ظلِّ الشرور والأمجادِ المنسيَّة. هي

برجٌ يطلُّ على جحيم مصيرنا هي مثل

السُّوق التي نبيعُ فيها حزنَنا

الكبير ولعنتنا المكتوبة بالدم...

ساد الصمتُ على الفتية السبعة بعد القراءة، ولم يبقَ لبرهة سوى حسيسُ النارِ وصوت المدينة البعيد .

- أعرفُ هذه الأبيات. - غمغمت شير - إنّها في أحدِ كتُبِ والدي. تقع في نهاية حكايتي المفضَّلة، حكاية دموع شيفا .

- تمامًا. - أكَّد سراج - قضينا الظهيرة كلها في معهد الصناعة البنغالي. إنّه مبنى مدهش، مهدوم تقريبًا، فيه طوابق كثيرة من الأرشيف وقاعاتٍ مدفونةٍ بالغبار والقذارة. يكتظُّ بالفئران، وأنا واثقٌ بأنّنا لو ذهبنا إليه ليلاً لاستطعنا اكتشاف ما يخبِّئه...



- فلنبق في المهمِّ يا سراج. - قاطعه بِنْ - - من فضلك

- موافق. - قال سراج مؤجّلاً حماسته لذلك المكان الغرائبيّ لمرَّة أخرى - باختصار، بعد ساعاتٍ من البحث (وسأعفيكم من الحديثِ عنها، نظرًا إلى الأجواء المتوتِّرة) وجدنا ملفًّا من الوثائق المتعلِّقة بأبيك والتي ما زال المعهد يحتفظ بها منذ العام ١٩١٦، عامُ حريقِ محطَّة جيتر. من بينها ثمَّة كتاب بخطِّ يده، لم يسمحوا لنا باستعارتِه لكنَّنا استطعنا تحليله. وحالفنا الحظُّ.

- لم أفهم بماذا حالفكما. - اعترضَ بِنْ.

- كان ينبغي لكَ أن تكون أوّل من يفهم سبب ذلك. فبجانب القصيدة، هنالك من رسم دارًا بالقلم، وأعتقد أنّه والد شير.. ردّ سراج بابتسامةٍ غامضةٍ وهو يعطيه الورقة التي تحتوي على الأبيات .

عاينها بِنْ ورفع كتفيه.

- لا أرى فيها سوى كلمات. - قال .

- تخطئ. خسارةٌ أن إيزوبيل ليست هنا. - مازحهم سراج - اقرأها من جديد. بإمعانٍ.

اتبع بِنْ التوجيهات وقطَّب حاجبيه. - أستسلم. هذه الأبيات ليستْ مرتَّبة أو ليس لها بنيَة واضِحة. مجرّد نثر ينتقلُ من سطرٍ إلى آخر للعبث لا غير.



- وها أنت تقولها ؟ - أكَّد سراج - وما قاعدة الأبيات التي تنتقل من سطرٍ إلى آخر لمجرَّد العبث؟ بعبارةٍ أخرى: لماذا يقطع الأبيات عند تلك النقطة تحديدًا، إذا كان في وسعه اختيار نقطة أخرى؟

- ليفصل الكلمات بعضها عن بعض؟ - ارتجلت شير.

- أو ليُوحِّد بينها... - غمغم بِنْ.

- خذ الكلمة الأولى من كلِّ بيت وكوِّن جملة. - اقترح روشان .

دقَّق بِنْ في القصيدة مجدَّدًا ونظر إلى رفاقه.

- اقرأ الكلمات الأولى فقط. - دعاه سراج.

- «هذه الدّار في ظلّ برج السّوق الكبير». - قرأ بِنْ.

- هناك ستّ أسواق على الأقل في القطاع الشماليّ أبلغهم يان.

- أجل، ولكن كم من تلك الأسواق تحتوي على على برجٍ قادرٍ على رسم ظلٍّ يصلُ حتى الدور المبنيَّة حوله؟ - سأل سراج .

- لا أعرف - أجاب يان.

- أنا بلى. - رد سراج - هناك سوقان: سيام بازار وماتشوا بازار، في الجزء الشماليّ من المدينة السوداء .



- ولكن حتى في هذه الحالة، الظلُّ الذي قد يرسمه برجٌ خلال النهار يتَّسع في قطر من ١٨٠ درجة على الأقلّ، ويتغيَّر في كلِّ دقيقة. فقد تكون هذه الدار في أي مكان من شمال كلكتا، في أيِّ مكان من الهند. - لاحظ بِنْ.

- مهلاً. - تدخَّلت شير - القصيدة تتحدث عن الغسق تقول بالتحديد : «نحيا في الغسق» .

- هل تحقَّقتم في هذا ؟ - سألهُما بِنْ.

- بالتَّأكيد. - أجاب روشان

- ذهب سراج إلى سيام بازار وأنا إلى ماتشوا بازار، قبل بضع دقائق من غروب الشمس.

- وإذاً؟ - حثَّهم الجميع على الكلام.

- يتبدَّد ظلُّ برج ماتشوا بازار عند مستودع قديمٍ ومهجور. قال سراج .

- روشان؟ - سألَه يان.

ابتسم الفتى، وأخذ من الموقد عصًا شبه محترِقة وخطَّ بها شكل برجٍ على بقايا الرماد.



- مثل عقارب الساعة، ينتهي ظلّ برج سيام بازار أمام بوابة حديديَّة كبيرة وخلفها فِناء يغصُّ بالنخيل والنباتات. ويتبدَّى برجٌ منزليًّ من فوق قمم الأشجار.

- روعة! - هتَفت شير.

لكنَّ بِنْ لمح تعبيرَ القلقِ يطغَى على وجه صديقه .

- ما المشكلة يا روشان ؟ - سأله .

هزَّ روشان رأسه ورفع كتفيه.

- لا أدري. - أجاب - كان في تلك الدَّار شيء لم يعجبني.

- هل رأيتَ شيئًا؟ - استفسر سيث.

هزَّ روشان رأسه نافيًا. تبادل كلٌّ من بِنْ وبان النظرات، دون أن يلفظا كلمة.

- ألم يخطر في بال أحدٍ أنَّ ما نحن فيه قد يكونُ فخ؟ - تساءل روشان .

تبادل بِنْ ويان نظرةً صامتةً من جديد. كانا يفكِّرانِ في الأمر نفسِه.

- سنخاطر. - قال بِنْ بنبرة تحتَوي على كلِّ اليقينِ الذي استطاعَ أن يتظاهرَ به.

***



أشعلت أريامي بوز عود الثقاب ثانيةً وقرَّبته من رأس الشمعة، رسم الضوءُ الخافقُ الصالةَ المظلمةَ بأشكالٍ غير محدَّدة بينما كانتْ يداها المرتجفتان تقتربان من الشّمعة. اشتعلتِ الشمعةُ ببطءٍ فانتشرت هالةُ الضياءِ حولها. نفخَت العجوزُ على عودِ الثِّقاب فانطفَأَ العودُ الصغيرُ وهو يزفر شبحَ دخانٍ ضاربٍ إلى الزُّرقة ليتصاعَدَ نحو العتْمة ببطء. شعرت بتيَّارِ هواءٍ خفيفٍ يلامسُ شعرَها عند رقبتِها فالتفتَت. هبَّةٌ باردةٌ ومشبعةٌ برائحةِ الحمضِ الكريهة والثاقبة هزَّت رداءها وأطفأتْ شُعلةَ الشمعة. طغَى الظلامُ من جديد وسمعتِ المرأةُ طرقتَين على باب الدار. شدَّت قبضتيها ورأتْ أنَّ أطرافَ العتبة تُسرِّب ضياءً خافتًا ومائلاً إلى الحُمرة. سمعتِ الطرَقاتِ تتكرَّر ولكن بقوَّة أكبر. فأحَسَّت أريامي بالعرق البارد ينبجِسُ من مسامِ جبينها .

- شير؟ - نادت بصوتٍ ضعيف. تبدَّد صوتُها في صدىً مخنوقٍ ضمن عتمة الدار. لم يردها جواب، وتكرَّرت الطرقات على الباب بعد قليل.

تلمَّست أريامي الرفَّ الذي يعتلي المدفأةَ، حيثُ تصدُر بقايا الجَمرِ ضوءًا خافتًا لا سواه يرشد طريقها تحتَ الظلام. أوقعت عدَّة أغراضٍ إلى أن وقَعتْ أصابعها على غمدِ خنجرٍ حديديٍّ تحتفظُ به على ذلك الرّق. أشهرت السّلاح ورأتْ لمعانَ شفرتِه الذهبيّة كيف تتلوَّى على ضياء الجمر. تسرَّب خيطُ ضوءٍ من تحت باب الدار. سحبت أريامي نفَسًا عميقًا واتَّجهت ببطءٍ نحو



المدخل. توقَّفت أمام الباب وسمِعَت صوت الرِّيح بين أوراقِ النباتات في الفناء الخارجيِّ.

- شير؟ - همست من جديد، ولم تحصُل على جواب.

شدَّت بقوَّة على مقبض الخنجر، ووضعت يدها اليسرى برفقٍ على مقبض الباب، وأدارته نحو الأسفل. استيقظ القفلُ الصَّدِأ وهو يئِنُّ بعد أعوام من السُّبات. انفتح الباب ببطءٍ فرسم ليلُ السماء مروحةً من الضوء داخل الدار. لا أحد في الخارج. النباتات تهتزّ ّ كبحرٍ من مئات الأوراق اليابسة، لتصدر همهمةً هادئةً. أطلّت أريامي لتنظرَ إلى جانبيّ الباب، فوجدت الفِناء خاليًا. وحينذاك ارتطمت ساقاها بشيءٍ ما فأخفضتِ العجوزُ ناظرَيها، لتكتشفَ سلَّةً صغيرةً عند قدمَيها. كانتِ السَّلة مغطاةٌ بطرحةٍ غبشةٍ لكنّ الضياءَ المنبثقُ من الداخل سمحَ لها بمعاينة ما فيها. جلست أريامي القرفصاء وأزاحتِ الطرحةَ برفق.

وجدَت في السَّلة تمثالَين صغيرَين من الشمع على هيئةِ جسدَين عاريَين لرضيعَين. يبرزُ من رأسِ كلٍّ منهما فتيلٌ مشتعلٌ كأنَّ التمثالَين عبارةٌ عن شمعتَين في معبد. اقْشَعَرَّ بدنُ أريامي. دفعتِ السَّلة وجعلتها تتدحرج على العتبات الحجريّة. ثمَّ نهضت ثانيةً لتدخل لكنّها انتبهت أنَّ ألسنَةَ اللَّهب تتقدَّمُ نحوها على امتدادِ الممَرِّ المُؤدِّي إلى الطَّرف الآخر من الدار. سقطَ الخنجرُ من يدِها وصفقتِ الباب .



نزلتِ العتباتِ بعجالةٍ، ولم تتأتَّ لها الشجاعةُ لإيلاءِ ظهرها للدار، فتعثَّرت بالسَّلة التي رمتها منذُ لحظات. سقطَتْ على الأرض وذُهِلت برؤيةِ لسانٍ ناريٍّ يتبدَّى من عتبَةِ الباب ويحرق الخشبَ القديمَ كما لو أنَّه مصنوعٌ من الرّق. زحفت المرأةُ العجوزُ بضعةَ أمتارٍ إلى حيثُ النباتات ونهضت بمشقّة وهي ترى بشعورِ العاجزِين كيف تشبُّ النيرانُ من النوافذ وتحكمُ قبضتَها القاتِلَة على المبنى برمَّته.

ركضت أريامي إلى الطريق وتوقَّفت لتنظرَ خلفها إلى ما كان دارها. تصاعدت المحرَقة نحو السماء، وهي تبصقُ الجمرَ والرَّماد. وبدأ الأهالي يُطِلُّون من نوافذهم شيئًا فشيئًا وقد تولّاهم الفزع، وخرجوا إلى الطّريق لرؤيةِ الحريقِ العظيم الذي اندلعَ في غضونِ ثوانٍ. سمعتْ أريامي صوتَ تشقُّقِ السقفِ ورأتْه ينهارُ كأنّه فريسةَ النَّار. وأضيئت وجوهُ المحتشِدين ببرقٍ أحمر وهم يتبادلونَ النَّظراتِ المذهولة دونَ أن يفهموا ما الذي وقع.

ذرفت أريامي بوز دموعَ المرارةِ على دار شبابها، الدار التي أنجبت فيها ابنتها. وودَّعت دارَها إلى الأبد وهي تضيعُ في زحام شوارع كلكتا .

***

لم يكن تحديدُ موقع الدار بدقَّة أمرًا معقَّدًا، لاسيَّما باتباعِ توجيهاتِ الشيفرة التي تمكَّن سراج من فكِّها. فبحسب تلك الإرشادَات، والمقارنات الصائبة التي قدَّمها روشان بعد رصدٍ



ميدانيًّ موفَّق، كان مقام المهندس تشاندرا تشاترغي يقعُ في طريقٍ هادئٍ بين جادَّة جاتندرا موهان وشارعُ أتشاريا بروفوليا، على بعدِ ميلٍ تقريبًا شمال قصر منتصف اللَّيل.

وما إن نالتْ تحرِّيات سراج قبولَ رفاقه، أبدى رغبةً مِلحَّةً بعدم إضاعة أيِّ دقيقةٍ للانطلاق والبحث عن إيزوبيل. باءت كلُّ المحاولات بإقناعه العدول عن ذلك بالفشل الذريع، وما في ذلك من مشوراتٍ بانتظار عودة الفتاة المؤكَّدة. وفي النهاية أوفى روشان بوعدِه وهبَّ لمرافَقته. انطلقَا في الليل بعد أن اتفقوا بالتلاقي في دار المهندس تشاندرا تشاترغي حالما يحصلان على أنباء عن إيزوبيل.

- وإلامَ توصلتما أنتما الاثنان؟ - سأل يان متوجِّها إلى سيث ومايكل.

- كان يسعدُني تقديمُ نتائجَ رائعة كالتي قدَّمها سراج، لكنَّنا في الحقيقة وجدنا أنفسنا أمام عددٍ لا يُحصَى من خيوطٍ ينبغي ربطها. - أجاب سيث وراح يحدِّث عن زيارتِهما للسيّد دي روثيو الذي تركَاه في المتحف لمتابعة أبحاثه، بالعودة لمساعدته في ظرف ساعتَين - ما تحقّقنا منه حتى الآن يؤيِّد الحكاية التي قصَّتها علينا جدَّةُ شير، عفوًا، جدَّتُكما. جزءٌ منها على الأقل. - أوضح سيث .

- هناك فجوةٌ في حكايةِ المهندس وليس من السهل ردمها. - قال مايكل .



- تمامًا. - أكَّد سيث - وهناك المزيد. أعتقد أنَّ الأمورَ الأهمّ هي ليست تلك التي اكتشفناها، إنَّما تلك التي لم نتمكَّن من التحقُّق منها.

- فسِّر أكثر. - حثه بِنْ.

- على سبيل المثال - تابَع سيث وهو يفرك يدَيه أمامَ النار - تبدأ حكاية المهندس تشاندرا بالتوثيق لحظةَ دخولِه معهدَ الصناعة. تؤكِّد بعضُ الأوراق أنّه رفض عروضًا كثيرةً من الحكومةِ البريطانيّةِ للعملِ في خدمة إعمار الجسور العسكريّة وسكّة حديديّة تصل بومباي بدلهي وتحتكر القوّات البحريَّة استخدامها

. - أريامي روت علينا الكراهية التي يضمرها تشاندرا بحق البريطانيين. - لاحظَ بِنْ - كان يعتبرهم مسؤولين عن جزءٍ كبير من المآسي التي تكبَّدت بها البلاد.

- بالضبط. - أكَّد سيث - لكن ما يثير الفضول هو أنّ تشاندرا على الرَّغم من نفوره الواسع الذي لا تخفيه التظاهرات العامّة، شارك في مشروع غريب من نوعه لمصلحة الحكومة العسكريَّة البريطانيَّة في العامين ١٩١٤، ١٩١٥، أيّ قبل عامٍ على وفاته في كارثةِ محطَّة جيتر. نحن بصددِ مسألةٍ غامضةٍ متعلِّقَةٍ باسمٍ غريب: طائرِ النار.

تعجَّبت شير ودنَت من سيث بتعبيرِ مصدومٍ.

- ما كان هذا طائر النار؟- سألته.



- من الصعب تحديد ذلك. - أجاب سيث - يظنُّ السيِّدُ دي روثيو أنه قد يكون اختبارًا عسكريًّا. وفي جزءٍ من المراسلات الرسميّة المحفوظة في ملف المهندس يظهر توقيع كولونيل يدعَى آرثر ليوبلن، الذي تفاخر بحسب دي روثيو بشرف تولِّيه قيادة القوَّات الرامية لقمع الاحتجاجات السلمية من أجل الاستقلال ما بين العام ١٩٠٥ والعام ١٩١٥.

- تفاخَر؟ - تدخَّلَ بِنْ.

- هذا أغربُ ما في الأمر. - أوضح سيث - آرثر ليويلن، الضَّابط السفَّاح في جيش جلالته، توفِّي في حريقِ محطَّة جيتر. أما ما الذي كان يفعله هناك، فهذا يبقى لغزًا محيِّرًا.

تبادلَ الفتيةُ النظرات، تائهين في بحرٍ من التخبُّط.

- فلنحاول ترتيبَ الأشياء. - اقترح بِنْ - فمن جهة لدينا مهندس متألِّق رفضَ مرارًا العروض السخيَّة من جانب الحكومة البريطانيَّة للعمل في خدمتها لبناء مرافق عامة، نظرًا إلى عدائه الواضح تجاه الهيمنة الاستعماريَّة. وحتَّى هذا الحدّ لكلِّ شيءٍ معنى. ثم يظهر فجأةً هذا الكولونيل الغامض ويورِّطه في عمليَّة من شأنه أن يشمئزَّ منها بطبيعة الحال: سلاحٌ سرِّيٌّ، اختبارٌ لقمع الحشود. لكنَّه يوافق هذه المرَّة. الأمر منافٍ للمنطق. إلَّا إذا...

- إلا إذا كانت لدى ليويلن قدرةٌ إقناعيَّةٌ خارقةٌ للعادة. أكمل يان .

رفعت شير يدها اعتراضًا.



- من المستحيل أن يكون أبي قد وافق على المشاركة بمشروع عسكريٍّ مهما كان نوعه. لا في خدمة البريطانيِّين ولا في خدمة البنغال. كان يكره العسكر ويعتبرهم مجرد قتلة مأجورين لحكومات فاسدة. ما كان له ليوظِّف موهبتَه لاختراعٍ موجَّه لإبادة أبناء شعبه.

رمقَها سيث بصمت وقيَّم كلماتها بإمعان .

- ولكن يا شير، ثمّة وثائق تُثبِت مشاركته.

- لا بدَّ من وجود تفسيرٍ آخر. - ردّت شير - كان والدي يبني البيوت ويؤلِّف الكتب، لم يكن قاتل أبرياء .

- فلندع المثاليَّات جانبًا، لا بد من وجود تفسيرٍ آخر بالتأكيد.

- حدَّد بِنْ - وهو ما نبحثُ عنه. ولكن فلنعدْ إلى موضوع قدرات ليوبلن الإقناعيَّة. ما الذي من الممكن أن يفعله لإجبار المهندس على التعاون؟

- من الوارد أنَّ قدرته ليست فيما يمكنه فعله. - فسَّر سيث - إنَّما فيما يمكنه الكفُّ عن فعله.

- لم أفهم. - قال يان .

هذه هي نظريَّتي- تابع سيث - لم نعثر في كلِّ حكاية المهندس على ذكرٍ واحدٍ لجافاهال، صديقُه أيام الشباب، باستثناء رسالة من ليويلين إلى المهندس تشاندرا بتاريخ نوفمبر ١٩١١. في تلك



الرسالة كان صاحبنا الكولونيل يضيف ملاحظةً يقترح فيها بإيجازٍ بأنَّه سيجدُ نفسه مرغمًا على إتاحة الفرصة لصديقه القديم جافاهال، في حال رفض تشاندرا الدعوة إلى المشاركة في المشروع. أعتقد أنَّ المهندس استطاع إخفاء علاقاته القديمة بجافاهال، في فترة سجنه، واستطاع متابعة مسيرته الناجحة دون أن يدري أحد بالتغطية التي كان قد عرضَها عليه. ولكنَّنا نفترض أن ليويلين قابل جافاهال في السجن وأنَّ جافاهال أطلعه على طبيعة علاقته الحقيقيَّة بتشاندرا. كان لهذا أن يعزِّزَ موقفه لابتزاز أيِّ أحد وإجباره على التعاون.

- وكيف نعرف أن ليويلين وجافاهال تعارفا؟ - سأل يان .

- هذه مجرَّد فرضيَّة، لكنَّها ليست مستبعَدَة. - أفصح سيث - آرثر ليوبلين، الكولونيل في الجيش البريطانيّ، يقرِّر الاستعانة بمهندسٍ مرموق، وهذا المهندس يرفض. فينبش ليويلين في ماضيه ويكتشف محاكمة مريبة قد تورّط بها بشكل من الأشكال. فيقرِّر أن يتعرَّف على جافاهال، فيروي له جافاهال كل ما يودُّ الكولونيل سماعه. بسيطة.

- لا أصدِّق. - قالت شير.

- الحقيقة أصعب الأشياء على التَّصديق أحيانًا. تذكري كلمات أريامي. - علَّق بِنْ - ولكن دعونا لا نذهب بعيدًا. أما زال دي روثيو يجري أبحاثَه؟



- في هذه اللحظة، أجل. - ردّ سيث - كميّة الأوراق كبيرة حتى إنّها تتطلَّب جيشًا من فئران المكتبات للخروجِ منها بنتيجة.

.أحسنتُما صنعًا. - اعترف يان.

- هذا لا يفاجئني. - قال بِنْ - عودَا إلى أمين المكتبة واحرصَا ألا تغفل عنه أعيُنُكما ولو لحظةً واحدة. ففي كلِّ هذه الحكاية ثمَّة شيء يفوتنا .

- وأنتم ما الذي ستفعلونه؟ - سألهم مايكل متوقِّعًا الإجابة.

- سنذهب إلى دارِ المهندس. - أجاب بِنْ - لعلَّ ما نبحث. عنه موجودٌ هناك.

- وربَّما تجدون شيئا آخر... - لاحظَ مايكل. ابتسم بِنْ.

- سبق أن قلتُ: سنخاطر!

وصلت شير وبان وبن إلى البوَّابة الحديد لدار المهندس تشاندرا تشاترغي قبل منتصف الليل بقليل. وبالنَّظر صوب الشرق، كان البرج الحاد والضيِّق المطل على سيام بازار يقطع ضوء القمر ويعرض ظلَّه ليرسمَ سهمًا أسود على غموض حديقة النخيل والأجمات البريّة التي تحجب ذلك المبنى الملغز.

استندَ بِنْ إلى القضبان الحديدية وتفحَّص حرابها المستنَّة والخطيرة. - ينبغي أن نعتليها. - قال - ولا يبدو الأمر سهلاً.



- لا ضرورة. - ردت شير بجانبه - لقد وصف والدنا في كتابه كلّ ملمتر هذه الدار قبل بنائها، وقد أمضيتُ أعوامًا في حفظ كل زاوية عن ظهر قلب. إن كان ما كتبه صحيحًا، وليس لديَّ أي شك بهذا الخصوص، فإنَّ خلف هذه الأجمات بركة صغيرة، ولا بد للدار أن تكون ما بعدها .

- وماذا تخبرينني بشأن هذه الرماح ؟ - سألها بِنْ - هل تحدَّث عنها أيضًا؟ لا أودُّ أن أضطّرّ إلى تخييط جلدي في ختام هذه السهرة.

- هناك طريقة أخرى لدخول الدار دون الحاجة إلى اعتلاء البوابة.
- قالت شير.

- فما الذي ننتظره إذاً؟ - سألها يان وبن بصوتٍ واحد.

اقتادتهما شير عبر زقاقٍ ضيّقٍ، أضيقُ من ثغرة بين البوابة وجدار بناية محاذية ذات طابع عربيّ، حتى وصلوا إلى فتحة دائريَّة تبدو أنَّها كانت قناة تصريف أو أنها مجمع أساسيّ لأنابيب الدار. فاحت رائحةٌ كريهةٌ وثاقبةٌ من داخلها .

- هل سندخل من هنا؟ - سأل بِنْ مشدوهًا .

- وماذا كنتَ تتوقَّع؟ - امتعضَت شير - سجادة فارسية؟

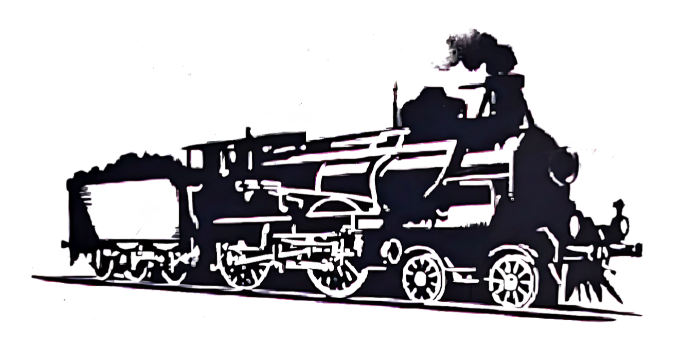
أطلَّ بِنْ إلى داخل نفق الصرف وتشمَّم ثانية.

- رائع... - اختتم متوجِّهًا نحوها - تفضَّلي أنتِ أولاً.





طائر النار



انفتحَ النَّفَق على الهواء الطَّلق تحتَ أقواس جسرٍ خشبيٍّ صغير، معلَّقٌ على البركة التي تبدو مثل رداءٍ مخمليٍّ داكن اللون قبالةَ دار المهندس تشاندرا تشاترغي. اقتادت شير الفتيَيْن على امتداد ضفة طينيّة ضيّقة ترتخِي تحت أقدامهم، نحو الطرف الآخر من البركة، وتوقَّفت لتستمتعَ برؤية المبنى الذي حلمت به طوال حياتِها. صار بإمكانها في تلك اللَّيلة أن تراه بعينيها، تحت القبَّة السماويّة المزيّنَة بالنجوم والغيوم العابرة والمهاجرة نحو المدى المفتوح. انضمّ بِنْ ويان إليها بصمت.

كان القصر مؤلَّفًا من طابقَين ينتصب برجان على جانبَيه. وكانت ملامحه تمزجُ أساليبَ معماريَّة مختلفة، من المظاهر الباروكيّة إلى عجائب الحصون والأشكال الفروسيّة التي تبدو مستمدَّة من قلعة معزولة في جبال بافاريا. ورغم ذلك، كان الجمع بين تلك المكوِّنات يختزن فخامة تبعث على الطمأنينة وتتحدَّى نظرة



المُراقب الناقِدة. كانت الدار تشعُّ بفتنةٍ خلَّابَة، إذ تؤسِّس بعد انطباعِ الارتباك الأوَّليّ فكرةً مفادَها أنَّ استحالةَ التوليف بين تلك الأساليب والملامح مقصود لإثبات إمكانيَّة التناغم والانسجام فيما بينها.

كان مقام المهندس، الغارق في دغل النباتات البريَّة الكثيفة في قلب المدينة السوداء، يبدو مثل صرح سياديٍّ متين، ينتصبُ شامخًا أمامَ البركة، كبجعةٍ مهيبة سوداء تتأمَّل انعكاسَها في بحيرة مترَعة بحجرِ السبج الكريم .

- أهكذا وصفها والدكِ؟ - سألها يان.

أومأت شير متعجِّبةً، واتَّجهت نحو السلالم المؤدِّية إلى باب الدار.

وقف بِنْ ويان يراقبانها حائرَين، يتساءلان كيف تفكِّر في إمكانيَّة دخول ذلك الحصن. أمَّا شير، من جانبها، فبدَت أنَّها تتحرك في ذلك المشهد الملغز كما لو أنَّها عاشت في القصر منذ طفولتها. فكانت الأريحيَّة التي تستخدمها لاجتياز العقبات المخفيّة في عباءة الليل توحي للفتيَين بإحساسٍ غريب: أنّهما دخيلان، مدعوَّان بالصدفة للقاء بين شير والحلم الذي راودها خلالَ أعوامِ ترحالها. أدرك بِنْ وبان وهما ينظرَان إليها وهي تصعد السلالم، أنَّ ذلك المكان الخاوي والمحاط بهالة شبحيّة هو البيت الحقيقي والوحيد الذي حصلت عليه الفتاة.

- هل ستبقيان هناك الليلة كلَّها؟ - سألتهما شير وهي عند أعلى عتبة.



- كنَّا نتساءل من أين سندخل. - أجاب بِنْ، وأومأ يان متقاسِمًا شكوك صديقه.

- لديَّ المفتاح. - قالتِ الفتاة.

- المفتاح؟ - تعجَّب بِنْ - أين ؟

- هنا. - أجابت شير وهي تلمِس رأسها بإصبعها - أقفال هذه الدار لا تُفتَح بالطريقة المعتادة. ثمَّة مفتاحٍ من نوع آخر .

اقترب بِنْ ويان مذهولَين. وحينما وصلَا، انتبها أنّ وسط الباب أربع مسنَّنات متراكبة على محور، يصغر قطرها كلما ابتعدت عن السطح. وفي نطاق المسنَّنات ثمّة علاماتٍ مختلفةٍ منقوشةٍ على المعدن مثل أرقام السَّاعات .

- ماذا تعني هذه الرموز؟ - سأل يان محاولاً فك شيفرتها في العتمة.

أخرجَ بِنْ علبةً من أعوادِ الثقاب لطالما حملها معه احتياطًا، وأشعل أحدها عند المسنَّنات. لمع المعدن تحت أعين الفتية الثلاثة.

- أبجديّات! - هتف بِنْ - على كل مسنَّنة أبجديّة. إغريقيّة، لاتينيَّة، عربيَّة وسنسكريتيَّة.

- رائع. - زفر يان - سيكون فتح الباب أسهل من شرب الماء...



- حذارِ أن يخمد حماسكما. - تدخَّلت شير - المفتاح سهل. يكفي أن نؤلِّف كلمةً من أربعةِ حروفٍ وكلُّ حرفٍ من أبجديَّةٍ مختلفة.

رمقها بِنْ باهتمام.

- وما هذه الكلمة؟

- ديدو. - أجابتِ الفتاة .

- ديدو؟ - سألها يان - ماذا تعني.

- هذا اسم ملكة في الأساطير الفينيقيَّة [ديدون]. - فسّر بِنْ .

شعر يان ببعض الغيرة من اللَّمعان الذي بدَا في نظرة كلٍّ من الشقيقَين .

- ما زلتُ لا أفهم. - اعترض - ما شأن الفينيقيِّين بكلكتا ؟

- كانت هناك ملكة في قرطاج، اسمها ديدو، ألقت بنفسها في محرقة للتخفيف من غضب الآلهة. - شرحت شير - وهي رمز قوة النار المطهِّرة... حتَّى المصريون القدماء كانت لديهم أسطورتهم... طائر الفينيق.

- طائر النار. - أضاف بِنْ .

- أليس هذا اسم المشروع العسكريّ الذي تحدث عنه سيث؟ - سأله يان.



هزَّ بِنْ رأسه بنعم.

- صار بدني يقشعرُّ من هذه الحكاية. - أكَّد يان - هل تفكِّران جدّيًّا في الدخول؟ ما الذي سنفعله الآن؟

تبادل الشقيقان نظرةً حاسمة.

- أمرٌ في منتهى البساطة. - أجاب بِنْ - سنفتحُ هذا الباب.

***

باتت أجفانُ أمين المكتبة البدين مثل صفيحتَين من الرُّخام، أمام مئاتٍ من الوثائق من حوله. ناهيك بالكلمات والأرقام المستخرَجة من أرشيف المهندس تشاترغي، التي بدت محيطًا يتراقص ويهلل في أذنيه تهويدة لا تقُاوَم.

- يا أولاد، أعتقدُ أنَّه ينبغي إرجاء العمل إلى صباح الغد. - أفصح السيد دي روثيو.

وسرعان ما ظهر سيث من المجلَّدات والملَفَّات، وهو الذي خشي سماع ذلك الاقتراح، فاستعرض أبهى ابتسامةٍ لديه.

- نرجئ العمل يا سيد دي روثيو؟ - اعترض باحترام - مستحيل! لا يمكننا التراجع الآن .



- إن هي إلَّا دقائق وأسقطُ على الطاولة يا بني. - ردَّ أمين المكتبة - وإنَّ شيفا بنعمته اللَّامتناهية، أمدَّني بوزنٍ قُدِّرَ في شهر فبراير الماضي بما يتراوح بين ٢٥٠ و٢٦٠ رطلاً. أتعلم ما يعنيه هذا .

اتبسم سيث بسرور.

- ما يقارب ١٢٠ كيلو غرامًا. - تكهَّن.

- بالضبط. - أكد دي روثيو - هل جربت أن تحمل رجلاً بالغا يزن ١٢٠ كيلو يا بنيّ؟

فكَّر سيث في السؤال.

- لا يحضرني في هذه اللَّحظة ولكن...

- لحظة. - هتف مايكل من مكانٍ ما تحتَ السُّلم الذي يغضُّ بالملفَّات والعُلَب وأعمدةِ الأوراق المصفرَّة - وجدتُ شيئًا!

- آمل أن يكون وسادة! - قال دي روثيو وهو يحرِّك كتلته الهائلة بمشقَّة.

ظهر مايكل من خلف عمودٍ من الرُّفوفِ التي يعتليها الغبارُ حاملاً علبةً مليئةً بالملفَّات والأختام، وقد بهّت الزمنُ لونَها بلا رحمة. قوَّس سيث حاجبَيه مؤمِّلاً في أن تكون اللُّقيا قيِّمة.



- أعتقد أنها تحقيقات محاكمة حول جملةٍ من جرائم القتل. - قال مايكل - كانت تحت مذكَّرات استدعاء باسم المهندس تشاندرا تشاترغي.

- محاكمة جافاهال؟ - قفز سيث واتَّضح التشويق على ملامحه.

- دعني ألقي نظرة. - أمره دي روثيو .

وضع مايكل العلبة على مكتب أمين المكتبة. فأفاضت غيمةٌ من غبار مصفرّ بقرن الضوء الذي رسمه القنديل. تفحَّصت أصابع دي روثيو الغليظة الوثائق، بينما كانت عيناه تعاينان محتواها. لاحظ سيثَ وجه أمين المكتبة بقلبٍ خافق منتظرًا أن ينطق بكلمةٍ توضيحيَّة. استوقفت دي روثيو ورقةٌ بدت أنها مليئةٌ بعدة أختام وقرَّبها إلى الضوء.

- انظر، انظر غمغم بينه وبين نفسه.

- ماذا هناك يا سيّدي؟ - ترجَّاه سيث - ما الذي عثرتَ عليه؟ رفع دي روثيو ناظريه وارتسمت على وجهه ابتسامةٌ ماكرة .

- بين يديَّ وثيقةٌ موقَّعَةٌ من آرثر ليويلين.

باستناده إلى دواعي مصلحة الدولة والأمن العسكري، يأمر بوقف تنفيذِ الإجراء القضائيّ رقم ٠٨٩٨٦١/١ الصادر عن القسم الرَّابع من محكمة العدل العُليا بمدينة كلكتا، الذي يدين المواطن لاهافاج تشاندرا تشاترغي، المهندس، بتهمة الضلوع والتستُّر و/أو



إخفاء أدلَّةٍ في تحقيقٍ بجريمةِ قتل، ويأمرُ بنقلهِ إلى المحكمةِ العسكريَّة العُليا لجيش جلالته، وإلغاء كل المقرَّرات السابقة، والأدلَّة التي استعرضتها هيئة الدفاع والادِّعاء العام. بتاريخ: ١٤ سبتمبر ١٩١١

نظر مايكل وسيث مذهولَين إلى السيّد دي روثيو ولم يتمكَّنا من نطْقِ كلمةٍ واحدة.

- جيّد يا أولاد. - اختتم أمين المكتبة - من منكُما يجيد تحضير القهوة؟ ستكون هذه ليلةً طويلةً جدًّا...

***

أصدر القفل المزوَّد بالأبجديَّات والمسنَّنات الأربع طقطقةً طفيفةً، ثم انفتحت كتلةُ الباب الحديديَّة ببطء على مصراعَين، فانبعثَ هواءٌ محبوسٌ في داخل الدار طوال أعوام. شحب وجه يان تحت الظُّلمة.

- لقد انفتح. - همس متوجِّسًا.

- تحدَّث المراقب الكبير. - علَّق بِنْ.

- هذا ليس وقت المزاح. - ردَّ يان - لا نعلمُ ما الذي في الداخل .

أخرج بِنْ علبةَ أعواد الثقاب وهزَّها فخشخشت.

- مسألة وقت. - قال - هل تريد أن تكون أوّل الداخلين.



وجَّه إليه يان ابتسامة متعنِّتة. - أتنازلُ لكَ عن هذا الشرف. - أجاب.

- سأدخل أنا أوّلاً. - قالت شير ودخلتِ الدار دون أن تنتظرَ إجابة من أيٍّ منهما.

سارع بِنْ لإشعال عودِ ثقابٍ آخر ولحق بها.

رمى يان نظرةً أخيرة إلى سماء الليل، كأنّه يخشى أن تكونَ تلك آخرُ فرصة لرؤيتها، وبعد أن تنفَّس عميقًا ولجَ دار المهندس. ثم انغلق البابُ خلف ظهرهم بدقَّة وتلقائيَّةٍ مثلما كان قد سهَّل عليهما الدخول قبل لحظات .

توقَّف الفتيةُ الثلاثة بعضهم بجانب بعض ورفع بِنْ عود الثِّقاب عاليًا. فتجلَّى أمامَ أعيُنِهم مشهدٌ مهيبٌ يفوق تخيُّلاتهم عن ذلك المكان. وجدوا أنفسهم في صالةٍ محاطةٍ بأعمدةٍ بيزنطيَّة غليظة، تظلِّلُها قبَّةٌ مكسوَّةٌ بفسيفساءَ أثريَّة. مئاتُ الأشكال الهندوسيَّةِ الأسطوريّة تكوِّن تاريخًا مديدًا على هيئة صورٍ ورسوماتٍ في دوائرَ متَّحدةِ المركز تدور حول شخصيَّةٍ مركزيَّةٍ منحوتة ونافرة عن الرسم: الإلهة كالي.

كانت جدران الصالة مكوَّنة من رفوف تزدحم بالكتب بما يشكِّل نصف دائرتين على علوّ ثلاثة أمتار. وكانت الأرض مرصوفة بموازييك الطلاءات السوداءِ اللامعةِ ومرصّعة بحجر المرو الكريم الذي يوحي بفضاء النجوم والكواكب. تمعَّن يان بمرسومةٍ تحت



قدمِيه فرأى فيها أشكالاً مختلفةً من التمثُّلات السماويّة التي شرحها له بانكيم في ميتم سانت باتريك.

- ليت سيث يرى ما نراه... - همس بِنْ.

وفي آخر الصالة، ما بعد سجَّادة النُّجوم التي تجسِّد الكون المعروف، ثمَّة سلم حلزونيّ ولولبيّ يصعد إلى الطابق الثاني. أحرقت شعلةُ الثقاب أصابع بِنْ وهو في حالةِ الشرود، فطغى الظَّلامُ الدامسُ على الفتية الثلاثةِ مرَّةً ثانية. ورغم ذلك ما زالت الكواكب تحت أقدامهم تلتمع كما تلمع في السَّماء .

- عجيب! - غمغم بِنْ.

- انتظر لترى الطابق الأعلى. - ردّ شير على بعد أمتار.

أشعل بِنْ عود ثقابٍ آخرَ فرأى الصديقان أنَّ الفتاة كانت تنتظرهما هناك بجانب السلم. فلحِقَا بها من دون كلام. كان السُّلَّم الحلزونيُّ يتلولبُ وسط رُدْهةٍ تشبه منورًا كتلك المناور التي درسوها في استنساخ القلاع الفرنسيَّة على ضفاف نهر لوار. رفعوا أبصارهم فتملَّكهم انطباعٌ بأنّهم داخل مشكالٍ عملاقٍ، متوَّجٌ بنافذةِ الوردة الكاتدرائيَّة، التي يحوِّل زجاجُها المتعدِّدِ الألوان ضوءَ القمر ويجزِّئه إلى مئة شعاعِ أزرق، وأحمر، وأصفر، وأخضر، وذهبيّ.



وصلوا إلى الطابق الأول فرأوا أنَّ إبرَ الضوء المتغلغِلَة من علياء المنور تعرض رسومًا وأشكالاً متغيِّرة تقطع جدران السلم ببطء مثل صور سينمائيّة بدائيّة وخياليّة.

- انظرَا هناك. - قال بِنْ مشيرًا إلى مسطَّحٍ كبيرٍ بارتفاعِ مترٍ يشغل مستطيلاً يقارب الأربعين مترًا مربَّعًا.

اقترب الثلاثةُ فاكتشفوا ما بدا لهم مجسَّمًا كبيرًا لمدينة كلكتا، مستنسَخًا بالتفصيل وبواقعيَّة توهِم بأنَّ من يراه كأنّما يحلق فوق المدينة الحقيقيَّة. عرفوا فيه مجرى نهر هوغلي، والميدان، وحصن ويليام، والمدينة البيضاء، ومعبد كالي كلكتا، والمدينة السوداء، والأسواق. تأمَّل كلٌّ من شير وبان وبن بدهشةٍ طويلةٍ في ذلك المجسَّم الفريد، مفتونِين بجماله وجاذبيَّته.

- انظرا، ها هي الدار. - أشار بِنْ .

اقتربَا منه واكتشفَا أنَّ في قلبِ المدينة السوداء دارًا مستنسخة عن تلك التي كانوا موجودين فيها. وكانت الأضواء المتعدِّدة الألوان التي يبثها المنور تكتسح طرقات المجسّم مثل برق هابط من السماء ليكشفَ أسرار كلكتا .

- ما الذي خلف الدار؟ - سألت شير.

- تبدو سككًا حديديَّة. - لاحظ يان.



- إنها كذلك حقًّا. - أكَّ بِنْ متّبعًا مسارها حتى اكتشف بنظره مجسَّم محطَّة جيتر المهيب، خلف جسرٍ حديديٍّ يقطع نهر هوغلي.

- هذا الطريق يصل إلى المحطة حيث اندلع الحريق. - أضاف - إنه طريق مسدود .

- هنالك قطارٌ متوقِّفٌ على الجسر. - لاحظت شير.

التفَّ بِنْ حول المجسَّم ليقترب من السكَّو وعاينها بإمعان. كان يعرف ذلك القطار. كان قد رآه في اللَّيلة الماضية، مع أنه اعتبره كابوسًا. اقتربتْ منه شير بصمتٍ فلاحظَ بِنْ أنَّ الدمع في عينيها .

- هذه دار أبينا يا بِنْ. - غمغمت - لقد بناها من أجلنا، لكي تكون لنا .

عانقها بِنْ وضمَّها إليه. أشاحَ يان ببصره إلى مكانٍ آخر. حنى بِنْ على وجه شقيقَتِه وقبَّل خدَّها .

- من الآن فصاعدًا، ستكون هذه دارنا إلى الأبد. - قال.

وفي تلك اللَّحظة التمعت أضواء القطار الصغير المتوقِّف على الجسر، وبدأتْ عجلاتُه بالدوران على السكَّة ببطء.

***



بينما كان السيّد دي روثيو محاطًا بصمت المقابر، يكرِّس كلَّ إمكانيَّاته التحليليّة ومكر الثعالب الذي يميِّز العاملين في الأرشفة، ويخوض في تقارير المحكمة التي تعهَّد ليوبلين بردْمها، كان سيث ومايكل منغمسَين في مجلَّدٍ غريبٍ يحتوي على مشاريعَ وملاحظاتٍ عديدةٍ مكتوبة بخطِّ اليد من قبل تشاندرا نفسه. وجده سيث في جوف إحدى العلب التي تحوي أغراضًا شخصيّة عائدة للمهندس. بعد اختفائه، ونظرًا إلى أنّ لا أحد من الأسرة أو المؤسَّسات طالب بها، وبأخذ شعبيّة هذه الشخصيّة بعين الاعتبار، انتهى المطافُ بأغراضه في متاهة أرشيف المتحف، الذي كانت مكتبتُه تُستخدم من قبل عدَّة مؤسَّسات علميَّة وأكاديميَّة في كلكتا، ومن بينها المعهد العالي للهندسة، الذي كان تشاندرا أحد أعضائه المرمُوقِين والمثيرين للجدل. وكان المجلَّد البسيط مُبوَّبًا بعبارةٍ وحيدة، مكتوبةٍ بالحبر الأزرق: طائر النار.

أخفى سيث ومايكل هذه اللُّقيا لئلّا يشتّتان أمين المكتبة البدين عن العمليّة التي استنزفتْ أفضل مواهبه والتي لا يمكن الاستغناء في خلالها عن خبرة شيطان مخضرَمٍ بالأرشيف. لذا انسحبَا إلى آخر الصالة ليجريَا تحاليلَهُما على الوثائقِ بهدوء.

- هذه الرسوم بديعة. همس مايكل وهو يستمتع برؤية أعمال المهندس بعدّة رسومات تبيِّن أدوات آلية غامضة في طريقة عملها.

- فلنركِّز على ما يهمُّنا. - أجاب سيث - ماذا تفصِح هذه الرسومَ عن طائر النار؟



- العلم ليست من نقاط قوتي. - بادر مايكل - ولكن، فلْأمت إن لم تكن هذه رسومات لآلةٍ حارقةٍ ضخمة.

نظر سيث إلى المشاريع ولم يفهم منها شيئًا. فاستبق مايكل تساؤلاتِه.

- هذا خزَّان وَقود أو مادَّة قابلة للاشتعال. - أشار إلى الرسمة - مزوَّد بآليَّة امتصاص.

مجرَّد مضخِّة تغذية، كمضخَّات الآبار. تزوِّد المضخّة الوقودَ لتغذية هذه الحلقة بالنار. ما يشبه مصباح الإرشاد.

- ألا ينبغي لهذه النيران أن تكون أعلى ببعض السنتمترات. - اعترض سيث -

لا أجد فيها أيّ قدرةٍ حارقة. - انظر إلى هذا الأنبوب.

نظر سيث إلى الشيء الذي أشار إليه صديقه: نوع من الأنابيب الشبيهة بسبطانة البندقيَّة.

- تخرج النيران من حول فوهة السبطانة.

- وبعد؟

- انظر إلى الطرف الآخر. - قال مايكل - إنه خزان. خزان أكسجين .

- كيمياء للمبتدئين. - تذمَّر سيث وهو يربط الخيوط بعضها



- تخيَّل ما الذي قد يحدث لو أنَّ الأكسجين، المدفوع بقوَّة الضغط، يخرج من الأنبوب ويعبر حلقة النار. - اقترح مايكل.

- مدفعيَّة تقذف النار. - أكَّد سيث.

أغلق مايكل المجلَّد ونظر إلى صديقِه. - أيُّ سرٍّ هذا الذي تعيَّن على تشاندرا إخفاؤه ليُسَخِّر مواهبه لتصميم لعبةٍ كهذه من أجل سفّاح من عيار ليوبلين؟ كأنك تهدي حمولة بارود لنيرون...

- هذا ما يجب علينا اكتشافه. - قال سيث - وبأقصى سرعة.

***

تابعت شير وبن ويلن حركةَ القطار إلى أن توقّف خلف مجسَّم دار المهندس. انطفأت أضواؤه وظلَّ الأصدقاءُ الثلاثة يترقَّبون بفارغ الصبر

. - كيف يتحرَّك هذا القطار اللعين؟ - سأل بِنْ - لا بدَّ أن يستمدَّ الطاقةَ من مكانٍ ما. هل في الدار مولِّدة كهرباء يا شير

لا، على حدِّ علمي. - أجابت شقيقتُه. -

لا بدَّ من وجودها قطعًا. - أكَّد يان - فلنبحثْ عنها.

هزَّ بِنْ رأسه.

- ليس هذا ما يشغلني. - قال - فلنفترض أنَّها موجودة، لا أعرف أي مولِّدة قادرة على العمل تلقائيًّا. ناهيك بأعوام طويلة من السكون .

- ربَّما كان هذا المجسَّم يعمل بآليَّة أخرى. - أفادت شير ولم تكن على اقتناعٍ تامّ

. - أو ربما ثمة غيرنا في الدار. - ردّ بِنْ.

لعنَ يان حظَّ في سرِّه.

- كنتُ أعلم ذلك. غمغم مقهوًرا .

- مهلاً! - هتف بِنْ.

نظر يان إلى صديقِه ورأى أنّه يشير إلى المجسَّم ثانية. استأنف القطارُ حركته على المسار نفسَه، إنما نحو الجهة المعاكسة.

- إنَّه يعود إلى المحطَّة. - لاحظت شير .

اقترب بِنْ ببطء إلى حافَّة المجسَّم وتوقف أمام السِّكك التي كان القطار متَّجِهًا إليها.

- ما الذي يخطر في بالك؟ - سأله يان.

لم يردّ، بل مدَّ ذراعه نحو السِّكة، بينما كان القطار يقترب. وعندما مرَّ بجانبه أمسك قاطرةَ المحرِّك ورفعها، فانفصلت عن القاطرات الأخرى التي فقدت سرعتها شيئًا فشيئًا حتى توقَّفت. اقتربَ بِنْ



من الضوء الهابط من المنور وتفحَّص قاطرةَ المحرِّك. ما زالت العجلات تدور لكنها تتباطأ.

- هناك من لديه حسّ دعابةٍ غريب من نوعه. - علَّق بِنْ.

- لماذا؟ - أرادت شير أن تعرف.

- ثمّة ثلاث شخصيات في القاطرة. - قال بِنْ - تشبهنا نحن الثلاثة بغضِّ النظر عن المصادفات.

جاورت شير أخاها وأمسكت القاطرة الصغيرة بين يديها. كانت أشعَّة الضوء المتراقِصة ترسمُ قوس قزحٍ على وجهها. تمدَّدت شفتاها بابتسامةٍ مطمئنة.

- إنّه يعلمُ أننا هنا. - قالت - لا داعي للاختباء بعد.

- عمَّن تتحدثين؟ - سألها يان .

- عن جافاهال. - أجاب بِنْ - إنَّه ينتظر. لكنِّي لا أفهم ماذا ينتظر.

***

توقف سراج وروشان أمام خيال الجسر الحديديّ الذي يتلاشى في الضباب المتصاعد من نهر هوغلي، واسترخيَا عند جدار، منهكَين بعد أن مشَّطا المدينة في البحث عن أثر لإيزوبيل ولكن عبثًا. وكانت قمم أبراج محطة جيتر تنتأ من الضباب لترسمَ جبين تنين نائم في سحابة من صنع أنفاسه ذاتها.



- لم يبقَ على الفجر إلا القليل. - قال روشان - ينبغي لنا أن نعود. ربَّما كانت إيزوبيل بانتظارنا منذ ساعات.

- لا أعتقد. - ردَّ سراج .

كانت الرّكضة الليليّة تتبدَّى من صوتِ الفتى، لكن روشان لم يسمع تذمُّرًا من صديقه بشأن الربو للمرَّة الأولى خلال أعوام طوال.

- لقد بحثنا في كل مكان. - ردَّ روشان - لم يعد هناك أيّ مكان آخر. فلنذهب لطلبِ النَّجدة على الأقلّ.

- ما زال هناكَ مكانٌ لم نبحثْ فيه...

نظر روشان إلى هيكل المحطَّة المشؤومة في الضباب وزفر.

- إيزوبيل ليست مجنونة لدرجة أن تدخل إلى هذا المبنى. قال - ولست مجنونًا أنا كذلك.

- سأدخله وحدي إذاً. - أجاب سراج وهو ينهض.

سمعه روشان يلهث فأغمض عينيه بحزن.

- اقعد. - أمره، وكان يحسُّ بخطوات صديقه تبتعد نحو الجسر.

وعندما فتح عينيه رأى أنّ طيف سراج الهزيل كان يهم بالانغماس في الضباب.



- اللعنة! - تذمَّر هامسًا ووقف ليلحق بصديقه .

توقَّف سراج في النهاية وحدَّق إلى قنطرة محطّة جيتر التي تنهض أمامه. اقترب منه روشان وأخذا يتمعنان الحالة سويًّا. هبّ تيارُ هواءٍ باردٍ من نفق المحطةِ وتكثَّفت رائحةُ الخشبِ المحروقِ والقمامة. حاول الفتيان التركيز على شيءٍ مّا في بئر الظلمةِ المتَّسِعة ما وراء عتبة القبَّة الكبرى. فما كان سوى أصداء مطرٍ طفيفٍ ينقر على اللّافتاتِ المتساقِطة.

- كأنّها بوابة الجحيم. - قال روشان - فلنذهب من هنا قبل فواتِ الأوان.

- هذه توهُّمات ذهنيَّة. - ردَّ سراج - فكِّرْ أنَّها مجرّد محطّة مهجورة. لا يوجد أحدٌ هنا في الداخل. لا يوجد أحدٌ غيرنا.

- وإن كان كذلك فلماذا ندخلُ أصلاً؟ - اعترض روشان.

- لستَ مجبرًا على ذلك إن أردت. - أجاب سراج ولم يكن في صوتِهِ أيُّ نبرةِ تأنيب .

-حقًّا - أوقفَه روشان - وهل تظنُّ أنَّك داخل بمفردك؟ انسَ ما قلتُه لك. هيَّا بنا .

تقدَّم العضوان في نادي شوبار داخل المحطّة بتتبع مسار السكَّة على الجسر، باتجاه الرصيف المركزيّ. كان الظلام في الداخل، تحت القبَّة الكبرى، أكثر حلكة ممَّا هو عليه في الخارج، وبالكاد



تلحظ أطراف الأشياء ما بين بقع الضوء الرماديّ والمائع. مشى روشان وسراج ببطء، تفصل بينهما مسافةُ متر، في حين كان صدى خطواتِهما يشكِّل ابتهالاً متكرِّرًا في حفيف تياراتِ الهواء التي تزأرُ في أعماقِ النَّفقِ كصوت بحر بعيدٍ وغاضبٍ .

- من الأفضل الصُّعود على الرَّصيف. - لاحظ روشان .

- لم يمرّ من هنا قطارٌ منذ أعوام. ما الفرق؟

- هناك فرقٌ بالنسبة إليّ، موافق؟ - ردَّ روشان الذي تصور رغمًا عنه قطارًا ينبثق من فتحة النفق ويدهسهُمَا بعجلاته.

تذمَّر سراج متفوِّهًا بكلامٍ غير مفهوم، ولكن بنبرة وفاق. وما لبث أن همَّ بالصعود على الرَّصيف حتَّى اندفع شيءٌ مّا من النَّفق ليطفو في الهواء متَّجها نحو الولدين.

- ما هذا؟ - غمغمَ روشان متوجِّسًا.

- قطعة ورق. - قال سراج - الرِّيـح تحملُ المخلَّفات، هذا كلُّ ما في الأمر.

هبطت الورقةُ البيضاء عند أقدامِهما واستقرَّت بجانب روشان. جثم الفتى وحملها بين يديه. رأى سراج كيف يتغيَّر لونُ وجه صديقه.

- وماذا هناك الآن؟ - سأله وقد شعر أنَّ تخوُّف صديقِهِ أصبحَ مُعديًا .



مدَّ روشان الورقةَ إليه بصمتٍ فعرفها سراج على الفور. كانت تحتوي على الرَّسمة التي رسمها مايكل لأعضاء النادي واستحوذت عليها إيزوبيل. أعاد سراج الرَّسمة لصديقه، وفكَّر للمرَّة الأولى منذ بداية البحث أنَّ الفتاة قد تكون في خطرٍ فعلاً.

- إيزوبيل! - صاح باتّجاه الأنفاق...

تاه صدى صوتِه في أحشاء المحطّة وجمَّد دمه. حاول سراج أن يركِّز وأن يسيطِرَ على أنفاسه التي ضاقت أكثر فأكثر. وبعد أن تلاشى ارتدادُ صوته، تمالك أعصابَه ونادى من جديد .

- إيزوبيل!

دوَّى صوتُ ارتطامٍ شديدٍ في إحدى زوايا المحطَّة. جفل روشان ونظر حوله. جلدت رياح النفق وجهه، فتراجع الصديقان بضع خطوات.

- ثمَّة شيء ما هناك في الداخل. - غمغم سراج مشيرًا إلى النَّفق بهدوءٍ لم يتمكَّن رفيقُه من فهمه.

حدَّق روشان إلى فتحة النفق السوداء فرأى عندئذ: أضواءً بعيدةً لقطار يقترب. أحسّ باهتزاز السكة تحت قدميه ونظر مذعورًا إلى سراج .

كان الأخير يبتسم بشكل غريب .



- أنا لا أركض بسرعة مثلك يا روشان. - قال بهدوء - كلانا يعلم ذلك. لا تنتظرني واذهب للبحث عن مساعدة.

- عمَّ تتحدَّث بحقِّ السماء؟ - هتف روشان، وكان مدرِكًا لما يلحُّ عليه صديقُه .

ولجت أضواءُ القطار تحت قبَّة المحَّطة مثل صاعقة في خضمِّ عاصفة.

- اركض. - أمره سراج - الآن.

تاهت نظراتُ روشان في عين صديقه وسمع قرقعة القطار تقتربُ أكثر فأكثر. أومأ سراج. استجمع روشان قواه وانطلق راكضًا باتجاه الطرف المعاكس للرَّصيف، بحثًا عن مكان يقيه مسار القطار. ركض بأقصى سرعته، دون أن يتوقَّف للنظر إلى الخلف، موقنًا بأنَّه لو تجرَّأ على فعلها لوجدَ نفسَه رازحًا تحت مقدِّمَة قاطرة المحرِّك الحديديَّة. غدت الخمسة عشر مترًا التي تفصله عن نهاية الرصيف مئة وخمسين: هالهُ الفزعُ فخيِّل إليه أنَّ السكة تتمدَّد أمام عينيه في هروب يسبب الدُّوار. وعندما ارتمى أرضًا وتدحرجَ على كومةٍ من الأنقاض، سمع زئيرَ القطارِ على بعد سنتمترات عن حيث سقط. وسمع ولولةَ الأطفال التي تصمُّ الآذان وأحسَّ بألسنة اللَّهب تعضُّ جلده مدَّة عشر ثوان فظيعة تصوَّر في خلالها أنَّ المحطة تنهار فوق رأسه.

ثمَّ ساد الصمتُ فجأةً. نهض روشان وفتح عينَيه للمرة الأولى من سقط أرضًا. عادت المحطة خاوية ولا أثر فيها لأيِّ قطار، ما عدا



خطَّين من النِّيران ينطفِئان على امتداد السِّكة. أحسّ بأن أمعاءه تنغمر بماءٍ جامدٍ وعاد راكِضًا إلى حيث كان سراج. لعن جبنَه وبكى من الغيظ، وأدرك أنَّه بمفرده في المحطَّة.

وكانت خيوطُ الفجر الأولى، في البعيد، تضيء له الطريقَ نحو المخرج .

❋❋❋

تبدَّى طلوعُ الضوء على استحياء من بين الدفَّات المغلقة في مكتبة المتحف الهنديّ. كان سيث ومايكل يغفوان على الطاولة من شدَّة الإرهاق، وكادا يفقدان الوعي. تنهَّد السيد دي روثيو عميقًا وأبعد الكرسي عن المكتب وهو يفرك عينَيه. كان قد ظلَّ غارِقًا لساعات في محيط الوثائق محاولاً كشف ذلك الملفِّ الرهيب من الأحكام القضائيَّة. كان بطنه يطالبه بالاهتمام، إضافة إلى وقفٍ حاسمٍ لتجرُّع القهوة، إن أراد الاستمرار بأداء واجبه بكرامة .

- أعلن استسلامي، أيتها الحسناوان الغافيتان. دوّى بصوته.

جفل كلٌّ من سيث ومايكل وانتبها إلى أنَّ الصباح استيقظ قبلهما

- هل استطعتَ العثور على شيء، سيِّد دي روثيو؟ - سأله سيث وهو يكتم تثاؤبه.

كانت معدتُه تقرقر، وشعر بأنَّ رأسه ممتلئ بحساء تفاحٍ مطبوخ.



- هل تمزح يا بنيّ؟ - قال أمين المكتبة - لديَّ انطباع بأنَّكُما كنتما تسخران مني.

- لم أفهم يا سيّد. - تدخَّل مايكل .

تثاءب دي روثيو بقوَّة ليكشف عن حلقوم جوفي وأصدر صوتًا أيقظ في الولدين صورةً متخيَّلةً عن فرسِ نهرٍ يرفِّسُ في الماء .

- بسيطة. - قال - لقد أتيتُما إلى هنا بحكايةٍ عن جرائم قتلٍ واغتيالاتٍ إضافةً إلى قصة جافاهال العجائبيَّة.

- كلُّ ما أتيناك به حقيقيّ. معلوماتُنا من مصادر موثوقة

. ابتسم دي روثيو بمكر.

- على الأرجح أنَّ أحدًا استغفلكما. - ردّ - ففي كلِّ كومة الأوراق هذه لم أعثرْ حتى على ذكرٍ لصاحبكما جافاهال. ولا حتّى كلمة. صفر.

شعر سيث بأنَّ معدته الخاوية تنزلق حتَّى قدميه من بنطلونه .

- هذا مستحيل يا سيّدي. جافاهال مدانٌ ومسجونٌ بسجنٍ فرَّ منه لاحقًا. ينبغي البدء من هذه النقطة. لا بدّ أنّ شيئًا ما سينتج عن ذلك...

رماه دي روثيو بنظرةٍ ثاقبةٍ ومتشكِّكة بعينيه اللتين تشبهان عيون الخنازير. كان وجهه يقول بكل وضوح إنه ما من فرصةٍ ثانيةٍ.



- لو كنتُ مكانكما يا أولاد، لعدتُ إلى من قصَّ هذه الحكاية وأوصيته بقصِّها كاملة. أمَّا بخصوص جافاهال، الذي يدِّعي مُخبِرُكم الغامض بأنَّه مسجون، فيبدو لي أنّه أكثر قدرة على الهرب ممَّا نتخيَّل.

تفحّصت عيناه الولدَين. كانا شاحبَين كالرخام. توجَّه إليهما العلَّامة البدين بابتسامة تعاطف .

- أقدِّم لكما تعازيّ. - غمغم لقد نبشتُما في الحفرة الخاطئة.

وبعد قليل، جلس سيث ومايكل على أعتاب الواجهة الرئيسة للمتحف الهندي لتأمُّل الفجر. وكان المطرُ النَّاعمُ قد غطَّى الطُّرقات بعباءة لامعة مثل رقاقةِ ذهب سائلٍ تحتَ ضوءِ الشمس التي تصعد بين ضباب الشرق. نظر سيث إلى صديقه وأظهر على مرآه عملةً معدنيّة.

- إذا انقلبت على الوجه ذهبتُ أنا إلى أريامي وذهبت أنتَ للتحقُّق من السجن. - قال - والعكسُ بالعكس إذا انقلَبَت على النقش .

وافق مايكل بعينين موارِبتين. رمى سيث العملة عاليًا فصاغت دائرتها البرونزيَّة مسارًا من ومضات متقطِّعة، إلى أنِ استقرَّت على معصمه.

- أبلغ أريامي تحيَّاتي.. غمغم سيث.

✵✵✵



وصل ضوءُ النهار أخيرًا إلى دار المهندس تشاندرا بعد ليلةٍ بدت أنها لا تنتهي أبدًا. حمد يان شمسَ كلكتا، للمرَّة الأولى في حياته، بعد أن أزاحت أشعّتُها الظَّلامَ الذي اكتنفه وأصدقاءَه طوال ساعات.

أزال الصباح مظهر الدار المتوعِّدة، وبدا أنَّ معنويات بِنْ وشير أيضًا قد تحسّنت بقدومِ الضوء، حيث استقبَلاه بتعبيرٍ صادقٍ عن الارتياحِ والتَّعب. لم يتذكروا متى ناموا، مع أنَّ ذلك قد حدث منذ سويعات. وكانت وطأةُ النوم وشدة الإرهاق التي فرضتها وتيرةُ الأحداث تسمحان لهم آنذاك بمواجهةِ الوضع بسكينةٍ ما كان لها أن تراودَهم في ظُلمة الليل.

- جيّد. - قال بِنْ - إن كانت لهذه الدار قيمة، فهي أنها آمنة. وإن استطاع صاحبنا جافاهال الدخول، فكان قد دخل. ربما كانت لوالدنا أهواء غريبة الأطوار، لكنه كان عالمًا بكيفيَّة حماية البيوت. أقترح أن نحاول النوم قليلاً. فبالنسبة إلى مجريات الأمور، أفضل النوم على ضوء النهار وأن أكون صاحيًا عندما يهبط الظلام.

- لا يمكنني إلّا أن أوافق. - قال يان - أين بوسعنا أن ننام؟

- هنالك عدة غرف في البرجين. - فصَّلت شير

- سنحتار في الاختيار. - أقترح أن نستخدم غرفًا متجاورة. - قال بِنْ.

- موافق. - قال يان - ولا بأس إذا أكلنا شيئًا ما.



- بوسع الطعام أن ينتظر. - أوضح بِنْ - سنبحث عن شيء ما لاحقًا.

- كيف بوسعكما أن تشعرَا بالجوع؟ - سألتهما شير.

أرخى بِنْ ويان كتفيهما .

- فيزيولوجيا ابتدائيّة. - أجاب بِنْ - اسألي يان، فهو الطبيب .

- مثلما شرحتْ لي ذات مرة المعلِّمة التي علمتني القراءة في إحدى مدارس بومباي. - قالت شير - الفرق الجوهريّ بين الرجل والمرأة هو أنّ الرجل يبدي معدته على قلبه دومًا، أمَّا المرأة فعلى العكس دومًا .

تمعَّن بِنْ بتلك الفرضيَّة ولم يتردَّد في شنٍّ هجمةٍ مضادَّة .

- أقتبس حرفيًّا من الكاره للنساء المفضَّل لدينا، السيد توماس كارتر، محترف العزوبة: «الفرق الحقيقيّ بين الرجل والمرأة هو أنّ معدة الرجل أكبر من دماغه وقلبه، في حين أنّ قلب المرأة صغيرٌ جدًّا بحيث إنه يخرج من فمها دومًا». شاهد يان تراشق الاقتباسات، ليقع فريسة دهشةٍ مطلقة .

- فلسفةٌ رخيصة. - أصدرت شير حكمها .

- الفلسفة الرَّخيصة يا عزيزتي شير الفلسفة الوحيدة الَّتي لها قيمة. - أفاد بِنْ.



رفع يان يدَه علامةً على الهدنة. - طابت ليلتكما أيها العرِّيسان. - قال متَّجِها نحو البرج مباشرة.

وبعد عشر دقائق غطَّ الجميعُ في نومٍ عميقٍ ما كان أحدٌ ليصحو منه. لقد تغلَّب التعبُ على الخوف.

***

هبط سيث من أعتاب المتحف الهنديّ قرابة نصف ميل باتجاه شارع شوفرنغي جنوبي كلكتا، وانعطف إلى الشرق إلى بارك ستريت، نحو منطقة بينيابوكور، حيث أنقاض السجن الإصلاحي القديم بحصن كيورزون على مرمى حجر من المقبرة الاسكتلنديّة. وكانت المقبرة المتردّية الحال قد بنيت خارج ما كان يعتقد أنها الحدود الرسميّة للمدينة. ففي تلك الحقبة، كانت أعداد الموتى وسرعة تفسُّخ الجثث تفرض نقل المدافن كلها خارج كلكتا لأسباب متعلِّقَة بالصحة العامة.

أمّا الاسكتلنديُّون، للمفارقة، ورغم سيطرتهم المطلَقة على النشاط التجاريّ للمدينة طوال عقود، فقد اكتشفوا عدم السماح لهم بالدفن في مقبرة جيرانهم البريطانيِّين، لذا أُجبروا على بناء مقبرة لهم بالذات. كان الأثرياء في كلكتا يرفضون التنازل عن أراضيهم للفقراء، حتى بعد مماتهم .

وصل سيث قرب بقايا إصلاحيّة حصن كيورزون، وأدرك لماذا لم تكن ضحيَّة للانهيارات السكنيَّة الدَّامية. إذ كانت هيكليَّة المبنى



تبدو معلَّقة على حبل خفي، قد ينقطع عند أدنى محاولة للإخلال بتوازنه.

وبدا أنَّ الحريقَ قد التهم السجن كما لو كان مجسَّمًا كرتونيًّا، وأحدث فيه فجوات ودمَّر دعامات وجسورًا بوحشيَّة غير معهودة. تكشفت السقوف المتفحمة من خلال النوافذ الكبيرة، كأنّها لثَّةٌ مريضة لحيوان عجوزٍ.

اقترب سيث من مدخل المبنى وتساءل كيف له أن يكتشف ما يريد في غمرة هذا الرّدم من الأخشاب والأحجار المحترِقة. لم تبقَ أيّ ذاكرة للماضي هناك بالتأكيد سوى القضبان الحديديَّة والزنزانات التي أنهت أيامها بالتحوُّل إلى أفران مميتةٍ ليس فيها أيّ منفذٍ للهرب

. - هل أتيتَ لزيارة أحدٍ أيها الفتى؟ - همس صوت أجشّ خلف ظهره.

التفت سيث متوجِّسًا، وانتبه أنَّ تلك الكلمات تلفَّظَها شفتا رجل رثِّ الملبس وطاعن في السن، تبدي يداهُ وقدماهُ قروحًا في مرحلة متقدِّمة من الإنتان. عيناه الداكنتان ترمقانه بتوتُّر، ووجهه محجوب بالقذَارة، ولحيتُه البيضاء مشذبة بالسكين.

- أهذا سجن حصن كيورزون يا سيدي؟ - سأله سيث .



جحظت عينا الشحَّاذ على الاحترام غير المعتاد الذي بادر إليه الفتى، فارتسمتْ ابتسامة بلا أسنان على شفتين ذابلتين. - هذا ما تبقَّى منه. - أجاب - هل تبحثُ عن مكانٍ تنام فيه يا بنيّ؟

- أبحث عن معلومات. - رَدَّ سيث بابتسامة ودّيّةٍ ولبقة.

- إنَّنا نحيا في عالم الجهلة، لا أحد يبحث عن معلومات. ما عدَاك. وما الذي تريد معرفتَه أيُّها الفتى؟

- هل تعرف هذا المكان، حضرتُك؟ - سأله سيث .

- إنَّني أعيش فيه. - ردَّ الشحَّاذ - كان سجني ذات يوم وهو اليوم بيتي. لقد ترفَّقت بي العناية الإلهيّة.

- وهل سُجِنت هنا يا سيِّدي؟ - سأله سيث ولم يستطع إخفاء مفاجأته.

- كان ذلك في زمنٍ اقترفت فيه أخطاء... وتوجَّب علي دفعُ أثمانها. - هكذا كانت إجابة الشحَّاذ.

- حتى متى بقيت في هذا السجن يا سيدي؟ - ألحَّ سيث .

- حتَّى النهاية.

- هل كنتَ فيه ليلة الحريق؟

أزاح العجوز الخرق البالية التي يستر بها جسمه، فارتاع سيث من رؤية ندبةٍ بنفسجيّةٍ من آثار الحرق التي تمتدُّ بين صدره وعنقه.



- بوسعك أن تساعدني إذاً. - قال الفتى - لدي صديقان في خطرٍ محدق. هل تذكر أنَّك عرفت محتجَزًا يُدعَى جافاهال؟

أغمض الشحَّاذ عينيه وهزَّ رأسَه نافيًا. - لم يكن أيُّ أحدٍ منَّا يُدعى باسمه الحقيقي يا بنيّ. - شرح - فالاسم مثل الحريَّة، كنا نتركه عند الباب عندما ندخل، مؤمّلين بأنّنا إن استبعدناه عن أهوال هذا المكان، فلربما نستعيده نقيًّا وبلا ذكريات عند خروجنا. وبطبيعةِ الحال، لم يحدث ذلك قط.

- إنَّ الرجل الذي أحدثك عنه كان مدانا بجريمة قتل. أضاف سيث - كان شابًّا. وقد كان وراء الحريق الذي دمَّر السجن.

نظر إليه الشحَّاذ بما ينمُّ عن الفجاءةِ والمرح.

- هو الذي كان وراء الحريق! - هتف غير مصدِّق - لقد اندلع الحريق من جانب سخَّانات المياه. جراء انفجار أحد الصمَّامات. وأنا كنتُ خارج زنزانتي، كنتُ مناوِبًا في الأعمال الشاقَّة. وهذا ما أنقذني .

- لقد دبَّر ذلك الرجلُ الحريق. - ألحَّ سيث - وإنه ينوي الآن أن يقتلَ صديقي.

مال الشحاذ برأسه، متشكِّكًا، لكنّه أومأ موافِقًا .



- ربَّما يا بني، ولكن ما الذي يهمُّ الآن؟ بكل الأحوال، ما كنت لأقلق على صديقيك. فإن هذا الرجل، جافاهال، لم يعد بإمكانه إلحاق الضرر بأحد .

قطَّب سيث حاجبيه. - على أيّ أساس تقول هذا يا سيدي؟ - سأله متشوِّشًا.

ابتسم الشحَّاذ.

كنتُ - يا بني، في ليلة الحريق لم أكن قد بلغتُ عمرك بعد أصغر المساجين. لذا فإنَّ ذاك الرجل، أيًّا كان، لا بدَّ أن يكون قد تجاوز المئة عام الآن.

وضع سيث يديه على صدغيه، مشتِّت الذهن.

- مهلاً. - قال - ألم يحترق السجن عام ١٩١٦؟

- ١٩١٦؟ - ضحك العجوز مرَّةً أخرى - من أين أتيتَ يا بنيّ؟

لقد وقع حريق حصن كيورزون في فجر السادس والعشرين من أبريل العام ١٨٥٧. خمسة وسبعون عامًا مضت بالتحديد.

نظر سيث بفمٍ مفتوحٍ إلى الشحَّاذ الذي عاين وجهه بفضول، وأخذ بعين الاعتبار تلك الصدمة التي تملَّكته.

- ما اسمك يا بنيّ؟ - سأل الرجل.

سيث، يا سيّدي. - أجاب الفتى مغتاظًا .



- يؤسفني أنني لم أستطع مساعدتك يا سيث. - بل على العكس تمامًا. - أجاب سيث - هل يمكنني أن أساعدَك في شيء يا سيدي؟

لمعت عينَا الشحَّاذ تحت الشمس وافترَّت منه ابتسامة مريرة

- هل يمكنكَ إرجاع الزمن إلى الوراء يا سيث؟ - سأله وهو ينظرُ إلى كفِّ يده .

هزَّ سيث رأسه نافيًا.

- لا يمكنك مساعدتي إذًا. عد إلى صديقَيك الآن. ولكن، لا تنسني أبدًا.

- لن أنساك يا سيدي.

ابتسم الشحَّاذ للمرَّة الأخيرة، ورفع يدَه بتحيَّةِ الوداع. استدار وعاد ليغوص في أنقاض السجن المدمَّر. نظر إليه سيث يختفي بين الظلال واستأنف مشيه تحت شمس الصباح الخارقة. دنت ستارة من سحب سوداء تتلوى في المدى، مثل بقعِ دمٍ تتفشَّى في حوض ماءٍ رويدًا رويدًا.

***

توقَّف مايكل عند مدخل الطَّريق المؤدِّي إلى دار أريامي بوز ونظر مشدوهًا إلى أطلال ما كان مقام المرأة تنبعث منه أعمدةُ الدخان. كان الأهالي ينظرون صامتِين من الفِناء إلى رجال الشرطة الذين ينقِّبون بين الأنقاض وبستجوبون الجيران. اقترب مايكل وشقَّ



طريقَه في حشد الفضوليِّين والجيران الممتعِضِين من الحريق. فاعترضَه ضابطُ شُرطة.

- متأسّف يا فتى. المرورُ ممنوع.. أعلمه بنبرةٍ قاطعة.

ألقى مايكل نظرةً من خلفِ الضَّابط ورأى اثنين من زملائه يرفعان دعامة هابطة وما زال الجمر يتساقط منها بكثافة.

- وما الذي حلَّ بالمرأة التي تسكن هذه الدار؟ - سأله.

وجّه إليه الضابطُ نظرة تجمع استياءه بارتيابه. - هل كنت تعرفها؟

- هي جدَّة صديقي. - أجاب مايكل - أين هي؟ هل ماتت؟

حدّق إليه الضابط قليلاً بنظرة ثابتة ثم هزَّ رأسه في النهاية.

- لا أثر لها. - أجاب - يقولُ أحدُ الجيران إنّه رأى شخصًا يهرب مسرِعًا بعيد وصول النيران إلى السطح.

والآن هيّا انصرفْ من هنا. فلقد أخبرتُكَ بأكثر مما ينبغي.

- شكرًا يا سيّد. - قال مايكل متراجِعًا بين الجمهرة البشريَّة الغفيرة التي تنتظر اكتشافات مروِّعة محتمَلة. وما إن تحرَّر من حشد الفضوليِّين، عاين البيوت المجاورة، بحثًا عن أدلَّة ممكِنة تقوده إلى مكان اختفاء المرأة العجوز وسرِّها الّذي استطاعَ مايكل وسيث التوصُّل إليه بالكاد. كان طرَفَا الطريق يضيعان في عقد مباني



المدينة السوداء وبيوتها وأسواقها. قد تكون أريامي بوز في أيِّ مكان .

فكَّر مايكل في عدَّة احتمالات وقرَّر في النهاية أن يتَّجِه نحو الغرب، نحو ضفاف نهر هوغلي. هناكَ حيث يلتجئ آلاف الحجَّاج للغطس في مياه دلتا الغانج المقدَّسة، ليسألوا السَّماء طهارة النفس، ثم لا يحصلون إلَّا على الحمَّى والأوبئة.

لم يلتفت لينظرَ إلى أطلال الدار التي دمَّرَتها النيران، إنَّما سار تحت الشمس، متجنِّبًا الحشود التي تملأ الطرقات في جلبة التُّجار والشجارات والأدعيَة غير المسموعة. هذا هو صوت كلكتا. وها إنَّ شخصًا بدثاره الأسود يظهر من أحد الأزقَّة خلفه، على مسافة العشرين مترًا تقريبًا ويباشر اللَّحاق به بين الجموع.

فتَحَ يان عينَيه على ضوء النهار متيَقِّنًا بأنَّ أرقهُ الدَّائم ما كان ليسمحَ له بساعاتٍ إضافيَّة من الهدنة، على شرفِ التعب المتراكِم والمترتِّب على أحداث السَّاعات القليلة الماضية. وبناءً على الضوء الكثيف الذي فاضَ بالغرفة في البرج الغربيّ من دار المهندس تشاندرا، تكهَّن يان بأنَّ الوقت قد تجاوز منتصف الظَّهيرة. وما كان من الجوع العنيد الذي انقضَّ عليه في الفجر إلّا أن جعل أسنانَه تصطكُّ من جديد. ومثلما اعتادَ بِنْ أن يقول، ساخِرًا من كلمات المعلِّم طاغور، الذي تبعُد قلعتُه بضعةَ أمتارٍ عن هناك: عندما يتكلَّم الجوعُ فعلى الإنسان العاقل أن يصغي إليه جيِّدًا.



خرج يان من الغرفة متسلِّلاً وتحقَّق ما إذا كان بِنْ وشير ما يزالان ينعمان براحة يحسدان عليها بين أحضان مورفيوس.

فكَّر أنّ شير كذلك ما إن تستيقظ حتى تلقي نفسها على أول شيء يؤكل تجده في طريقها. أما بن، فلا شكوك حول ذلك: لا بدّ أن صديقه المفضَّل كان يحلُم بطبقٍ وافرٍ من الطيبات وحلويات شاهانا اللَّذيذة، ومزيجٍ من عصير الليمون والحليب الساخن الذي يعشَقه كل الشرهين في البنغال.

أدرك أنّ النعاس كان كريمًا معه أكثر مما توقَّع، لذا قرَّر أن يغامر خارج الدار بحثًا عن مؤونة تشبع شهيَّته وشهية رفيقَيه. وفكَّر أنّ الحظَّ سيحالفه للعودة قبل أن يتاح لهما الوقت للتثاؤب .

قطع الصالة حيث المجسَّم الكبير واتَّجه نحو السلم اللولبيّ، ملاحِظًا أنَّ الدار تولد ريبة أقلّ تحت ضوء النهار. ما زال الطابق الأول هادئًا، وتبين يان أن الدار معزولة عن الحرارة الخارجيّة بفعاليّة مذهلة. تصوّر بسهولة مدى القيظ الذي يفرض قوانينه خارج تلك الأسوار، إلّا أن دار المهندس كانت تبدو واقعة في بلد الربيع الأبديّ. سار بخطوات خفيفة على مجرات الموزاييك وهو يدوس البلاط وفتح الباب المؤدّي إلى الخارج، واثقًا من أنَّه لن ينسى تركيبة القفل المتَّحد المراكز الذي يوصد حرمَ مقام تشاندرا تشاترغي.

كانتِ الشمس تضرب الحديقة الكثيفة النباتات بلا رحمة، أما البركة التي بدت له في الليلة السابقة صفيحة من الأبنوس



المصقول فكانت آنذاك تبعث وميضًا حادًّا على واجهة الدار. اتَّجه يان نحو مخرج النفق السريّ من تحت الجسر الخشبي، متوهّمًا أنَّ ضوء نهار صيفيٍّ ساطع وحار كذاك، يمحو كلَّ المخاطر التي توعَّدَه بها الليل، يمحوها بسهولةٍ مثلما يذوب رجل الثلج في الصحراء.

ولج يان في ذلك الممر، مستمتِعًا بلحظات الطمأنينة تلك. وخرج من الفتحة التي تفضي إلى الطريق، قبل أن تغزو الروائح الكريهة رئتَيه. وحينذاك، رجح في ذهنه الخطوة الأولى فقرَّر أن يبدأ بحثه عن الطعام متوجِّها نحو الغرب .

وبينما كان يبتعد وهو يغنِّي على امتداد الطريق المقفر، لم يكن بوسعه أن يتخيَّل أنّ قفلَ بابِ الدار بعجلاته الأربع المتَّحدة المركَّز كان ينفتح ببطءٍ شديد، وأنّ الكلمة السريَّة المكوَّنة من أربعة أحرف ما عادت «ديدو»، إنما إلهةٌ ذات أصول أسطوريَّةٍ أقرب بكثير: «كالي» .

✵✵✵

ظنّ بِنْ أنَّه سمع صوتًا في نومه فأفاق في ظلمةٍ دامسةٍ داخل الغرفة التي استراح فيها. وكان الارتباك أوَّل انطباعاتِه الذي دهمه وسط تخبُّط اللحظات التي تتبع الصحوة الجفِلة بعد نومٍ طويلٍ وعميق، إذ لاحظ أنَّ الظلام يسيطر على المكان: لابدّ أنَّهم ناموا أكثر من اثنتي عشرة ساعة. ثم سمع الخبطة التي ظنّ أنه سمعها خلال نومه، فأدرك أن الليل لم يحن بعد ليمنع ضوء النهار من



دخول الغرفة. شيء ما يحدث في الدار. كانت الدفات تنغلق بقوة، مثل حواجز السد بإحكام. وثب بِنْ عن السرير وركض نحو الباب يبحث عن صديقيه.

- بن! - سمع صوت شير.

وعندما فتح الباب، رأى شقيقته ترتجف بلا حراك. عانقها واقتادتها وهو ينظر مذعورًا إلى النوافذ كيف تنغلق واحدة تلو أخرى، كأنّها أجفانٌ حجريَّة.

- بن! - انتحبت شير - شيءٌ ما دخل الغرفة وأنا نائمة ومسَّني.

اقشعرَّ بدنُ بِنْ واقتاد شقيقته إلى وسط الصالة حيث مجسّم المدينة. خيَّم الظلام عليهما بأقل من ثانية. ضمَّ بِنْ شقيقته وهمس لها بأن تلتزم الصمت بينما كان يحاول أن يرصد تحرُّكاتٍ تحت العتمة. لم تميّز عيناه أيّ شكل بين الظلال، لكنّهما سمعا صوتًا بدا أنَّه يتسرَّب عبر الجدران ويوحي بمئات من الحيوانات الصغيرة كأنَّها تركض تحت الأرضِ وداخل الحيطان .

- ما الذي يحدث يا بن؟ - همست شير.

كان أخوها يبحث عن إجابة فإذا بحدث يخطف الكلمات من فمه. كانت أضواء المجسَّم تستنيرُ شيئًا فشيئًا، فشهد الفتيان على ولادة كلكتا ليليَّة تحت أعينهما. ابتلعَ بِنْ ريقَه وأحسَّ بأنَّ شير تضمُّه بقوَّة. وفي وسط المجسَّم، أضيء القطار الصغير وتحرَّكت عجلاته على مهلٍ.



- فلْنذهب من هنا. - غمغم بِنْ مصطحبًا شقيقَته وهو يتلمَّس طريقه في الظلام نحو السُّلم الذي يهبط إلى الطابق الأسفل.

وقبل أن يقدما على أيِّ خطوة، رأى بِنْ وشير حلقة ناريَّة تفتح ثقبًا في باب الغرفة التي نامت فيها الفتاة، وفي أقلِّ من ثانية أتلفت الحلقة الباب كجمرة تخترق ورقة. تجمَّدت قدماَ الفتى في حين اقتربت منه آثار أقدام من نار بسرعة كبيرة .

- اهربي إلى الأسفل. - صرخ ودفع شير نحو السلم - تعجلي!

تدحرجت شير وقد تولَّاها الفزع وظلَّ بِنْ ثابتًا في مرمى تلك البصمات المتَّقدة التي تتقدَّم نحوه بسرعة مهولة. هبَّت في نفثةٍ من هواءٍ ساخنٍ ومشبعٍ برائحة الكيروسين المحترق تمامًا عندما توقَّف أثر النَّار على بعد سنتمترات عن قدميه. أُضيئَت حدقتان حمراوان كالحديد المتوهِّج في الظَّلام وأحسّ بِنْ بمخلب ناريّ يقبض على ذراعه اليمنى. ولاحظ مباشرةً كيف يسحق ذلك المقص قماش قميصه إلى أن يحرق جلده .

- لم تحن بعد ساعة لقائنا. - غمغم صوتٌ حديديٌّ وأجوف قبالته - تنحَّ عن طريقي.

وقبل أن يتصرّف بِنْ بأيِّ حركة، دفعته تلك اليد الحديديَّة جانبًا وأوقعته أرضًا. سقط الفتى وتلمّس ذراعه الجريحة. فرأى شبَحًا متوهِّجًا يهبط السُّلم اللُّولبيّ ويحطّمه بمروره عليه. أمدَّته صرخات شير الهلعة في الأسفل بالقوَّة اللّازمة للنهوض. ركض نحو السُّلم الذي أحيل إلى هيكل عظميّ من قضبان حديديَّة يعتربها



اللّهب، وانتبه أنَّ درجاته اختفت. فألقى بنفسه في تلك الفجوة وسقط على موازييك البلاط في الطابق الأول وشعر بصعقة من الألم تجتاح ذراعه التي مزَّقتها النار.

- بن! - صاحت شير - أرجوك!

رفع الفتى عينيه فرأى شير تنزلق إلى الخلف على بلاط النجوم اللَّامعة، ملفوفة برداء ناريّ شفَّاف، مثل بيضةِ فراشة جهنميَّة. قام ولحق بها، متَّبعًا الآثار التي خلَّفها الخاطف وهو يتَّجه نحو الجانب الخلفيّ من الدار، محاوِلاً تجنُّب مئات الكتب المتساقطة من المكتبة الدائريّة التي ترميها عن الرفوف فتهطل كأمطار من الصفحات المشتعلة. أوقعه أحد الكُتب على الأرض ثانية. سقط بِنْ على وجهه وارتطم رأسُه بالأرض.

تغبَّش بصرُه وهو يلمح الزَّائر الناريّ يتوقَّف ويلتفت لينظر إليه. كانت شير تصرخ تحت وطأة الفزع، لكنَّه لا يسمع صرخاتِها. استبسل بِنْ ليجرجر جسمه بضعة سنتمترات على البلاط الممتلئ بالجمرات وحاول أن يمانع النّعاس الذي يعتزم التغلُّب على مقاومته. ارتسمت أمامه ابتسامة قاسية لها أنياب حادَّة: وفي غمرة الفوضى التي حوَّلت مجال رؤيته إلى لوحة مائيَّة رخوة، عرف بِنْ الرجل الذي كان قد رآه في قاطرة محرِّك ذلك القطار الشبحيّ: جافاهال.

- تعال وابحث عنِّي عندما تستعد. همس روح النَّار - بتُّ تعرف أين تجدني...



وبعدئذٍ أمسك جافاهال الفتاة من جديد واجتاز بها الجدار الخلفيّ كما لو كان مجرَّد ستارة من دخان. سمع بِنْ أصداء قطار يمضي، ثمَّ فقدَ وعيِه.

***

- ها هو يستعيد وعيه. غمغم صوتٌ على بعد مئات الأميال. حاول بِنْ أن يركِّز بصره على البقع المهتاجة التي تتحرك أمامه. وسرعان ما تعرَّف فيها على ملامح مألوفة. رفعته يدان عن البلاط برفق ووضعت تحت رأسه شيئًا طريًّا ومريحًا. خفقت رموش بِنْ غير مرة. كانت عينا يان المحمرَّتان واليائستان تنظران إليه بقلقٍ كبير. وكان بجانبه كلٌّ من سيث وروشان .

- هل تسمعنا يا بن؟ - سأله سيث، وكان وجهه يوحي بأنَّه لم ينم منذ أسبوع .

تذكر بِنْ ما حدث وانتفض لينهض. فاعترضته أيدي الفتية الثلاثة.

- أين شير؟ - قال بمشقَّة.

تبادل يان وسيث روشان نظرة متجهِّمة.

- ليستْ هنا. - قرَّر يان أن يجيب .

شعر بِنْ بأنَّ العالم يتساقط على رأسه وأغمض عينيه.



- ما الذي حدث ؟ - سأل بعد حين.

- استيقظت قبلكما. - قال يان - وقرَّرتُ أن أخرج لآتي بشيء نأكله. فالتقيت بسيث على الطريق وكان قادِمًا إلى هنا.

وبينما كنَّا عائدين، رأينا أنَّ كلَّ نوافذ الدار مغلقة وأن دخانًا ينبعث من الداخل. فركضنا باتجاه الدار ووجدناك فاقد الوعي. شير لم تكن هنا .

- لقد اختطفها جافاهال.

تبادل يان وسيث نظرةً بطرف العين.

- ما الذي حدث؟ ماذا اكتشفت؟

رفع سيث يدَيه إلى شعره الكثيف وسرَّح غرَّته. كانت عيناه تخونانه.

- لستُ واثقًا من أنَّ جافاهال له وجود، يا بِنْ. - أكَّد الفتى المكتنز - أعتقد أنَّ أريامي كذبتْ علينا .

- عمَّ تتحدث؟ - سأله بِنْ - ما الذي يدفع أريامي لتكذبَ علينا؟

لخَّص سيث ما الذي اكتشفه في المتحف مع السيّد دي روثيو وأوضح أنَّهم لم يعثروا على أيِّ ذكر لجافاهال في كلِّ توثيقات المحاكمة، ما عدا في رسالة خاصة موجَّهة إلى المهندس وموقعة



من الكولونيل ليوبلين، الذي عمل على دفن الحادثة لأسبابٍ غامضة. أصغى بِنْ إلى تلك الإفادات غير مصدِّق

. - هذا لا يدلُّ على شيء. - اعترض - جافاهال أُدِين وسُجِن. وفرَّ منذ ستة عشر عامًا وبدأتْ سلسلةُ جرائمه منذئذٍ .

تنهّد سيث، وهزّ رأسَه ثانيةً. - ذهبتُ إلى سجن حصن كيورزون يا بِنْ. - قال بنبرةٍ حزينة - ليس هناك حالات فرار ولا حرائق ستة عشر عامًا مضت. فلقد اندلع الحريق في ذاك السجن الإصلاحيٍ عام ١٨٥٧. لا يمكن لجافاهال أن يكون هناك، ولا أن يهرب من سجن لم يعد قائِمًا منذ عقود عندما انعقدت جلسات المحاكمة. المحاكمة التي لا يوجد أيّ ذكر فيها لاسمه حتَّى. لا يبدو الأمر منطقيًّا.

نظر إليه بِنْ بفمٍ مفتوح.

- كذَبتْ علينا يا بِنْ. - قال سيث - جدَّتك كذَبَت علينا .

- وأين هي الآن؟

- مايكل يبحثُ عنها. - أوضَح يان - وعندما يعثر عليها سيأتي بها إلى هنا.

- وأين الآخرون؟ - سأل بِنْ.

نظر روشان إلى يان حائِرًا، فأومأ الأخير متأسِّفًا. - أخبره! - سمح له.



***

توقَّف مايكل لينظرَ إلى ضباب الغسق الذي يخيم على الضفَّة الشرقيَّة لنهر هوغلي. عشرات الأشخاص الذين يرتدون أردية بيضاء وبالية كانوا يغطسون في مياه النهر، وكانت جموع أصواتهم تتوه في همهمة المجرى. وكان رفيف الحمام الذي يخفق جناحيه للريح، وهو يطير فوق دغل القصور والقبب الباهتة الألوان والمخطَّطة قبالة صفيحة النهر المضيئة، توحي بما يشبه فينيسيًّا إذا رزحت تحت الظلمات .

- هل أنت تبحث عني؟ قالت المرأة العجوز الجالسة بالقرب منه، و وجهها محجوب بملفع. نظر إليها مايكل فأزاحت المرأة ملفعها. بهتَت عينا أريامي الحزينتان والعميقتان بتأثيرٍ من الغسق.

- ليس لدينا كثير من الوقت يا سيِّدتي. - قال الفتى - لم يعد لدينا وقت .

أومأت أريامي ونهضت ببطء. فأعانها مايكل بذراعه وسارَا نحو بيت المهندس تشاندرا تشاترغي بحماية الغروب .

اجتمع الفتية الخمسة بصمت حول أريامي بوز. نفدَ صبرُهم وهم ينتظرونها لتستريحَ وتنتهزَ اللحظة الملائمة لسداد الدين الذي فرضته على نفسها عندما قررت أن تخفي عنهم الحقيقة. لم يجرؤ أحد أن يلفظ كلمة واحدة قبلها. وتحوَّلت العجالة المقلِقة التي كانت تنهشهم من الداخل في لحظة إلى هدوءٍ حذِر، إلى ظلٍّ من الحيرة في حال كان السر المحفوظ ينطوي على خطورةٍ مستحيلة.



حدَّقت أريامي إلى وجوه الفتية بحزنٍ عميق، ثمَّ ابتسمت بالكاد. وفي النهاية، أخفضت ناظرَيها، وتنهَّظت ونظَرَتْ إلى أكفِّ الأولاد الصغيرة والمرتجفة، وباشرت كلامها. لكنّ صوتها في هذه المرة بدَا للفتية خاليًا من أي سطوة أو عزيمة اعتادوا توقُّعَها من أريامي بوز. كان الخوف قد أبطل قوَّة روحها التي تنبض في شخصيَّتها، وقد أيقن أعضاء نادي شوبار أنَّ المرأة التي تتوجَّه إليهم إنَّما هي عجوز، ضعيفة، تخاف من الموت، طفلة عاشت أطول ممَّا ينبغي.

***

- قبل البدء، اسمحوا لي بالقول إنّني ما كذبتُ في حياتي إلا لأصونَ أحدًا ما، وقد وجدتُ نفسي مرغمة على الكذب مرارًا. فلقد كذبتُ عليكما تلك المرة إذ ظننتُ أني أحميكما يا بِن، أنت وشقيقتك شير، من شيء قد يلحق بكما الضرر أكثر من أي حيلٍ يتبعها مجرمٌ مجنون. لا أحد يقدِّر حجم الأسى الذي ألمَّ بي جرَّاء حمل هذا العبء بمفردي منذ ولادتكما. وإنّ كل الأشياء التي سأخبركم بها الآن هي الحقيقة، على حدّ إحاطتي بها. فأصغوا إليَّ جيدًا وخذوا ما تفوه به شفتاي على أنّه يقين، علمًا بأنَّه ما من شيءٍ أصعبُ وأقسى من تصديق الحقيقة كما هي...

يبدو لي أنّ سنوات طويلة مرت منذ رويتُ عليكم حكاية ابنتي كيليان. حدّثتكم عنها، وعن نورانيَّتها الرائعة، وعن كيف اختارت من بين كلِّ الطالبين يدها للزواج شابًّا ذا أصول متواضعة وموهبة عظيمة، مهندسًا واعدًا، لكنَّه كان منذ صباه يحمل على كاهله عبئًا شديد الوطأة، سرًّا أدَّى به إلى الموت وآخرون غيره. وقد يبدو لكم



ما سأقوله مفارقة، ولكن اسمحوا لي لمرَّةٍ واحدة على الأقل بأن أبدأ سرد الحكاية من نهايتها لا من بدايتها، وذلك لكي أجيبكم على الأمور التي اكتشفتموها بذكاءٍ لافت .

كان تشاندرا تشاترغي رجلاً حالمًا، متعلِّقا أشدَّ التعلُّق برؤية مستقبل أفضل ينعم فيه ناسه بالعدالة وقد كان يراهم يموتون في الشَّقاء على طرُقات هذه المدينة.

وفي الأثناء، كان من يعتبرهم غزاة ومستغلِّين لثروات شعبنا الطبيعيَّة، يقطنون قصورًا فخمة، ويغتنون ويعيشون حياةً رغيدة وماجنة على حساب شقاء الملايين من المعدمين الذين كتَب عليهم الفقر في الميتم الكبير الذي لا سقف له، ألا وهو هذا الوطن.

كان حلمه يقتضي بوجوب منح الأمَّة وسيلة للتقدُّم والرَّخاء، الأُمَّة التي ستتمكَّن برأيه من التحرُّر من سطوة التاج البريطانيّ؛ وسيلة لفتح طرقات جديدة للتواصل بين المدن، أراض جديدة ودروب جديدة نحو المستقبل الذي تتطلَّع إليه العائلات الهنديّة. كان يحلم دائمًا بابتكار من حديد ونار: السكك الحديديَّة. كانت السكك بالنسبة إلى تشاندرا شرايين شأنها أن تنقل دماء التقدُّم الجديدة إلى هذه الأرض، ومن أجل هذه الشرايين خطَّط لقلبٍ يضخُّ تلك الطَّاقة كلّها: رائعته الهندسيَّة، محطّة جيتر.

لكن الحد الفاصل بين الأحلام والكوابيس رفيع كالإبرة، وسرعان ما عادت ظلال الماضي لتصفيةِ الحسابات. كان هنالك ضابط ذو



رتبة عُليا في الجيش البريطانيّ، الكولونيل آرثر ليويلين، وقد حقَّق نجاحًا باهِرًا، قائِمًا على مجازِره بحقِّ الأبرياء والعجَّز والأطفال والرجال العزل والنساء الفزعات، في بلدات وقرى من كافّة مناطق البنغال. حيثما وصلت رسائل السلام ووحدة الهند الجديدة، وصلت بنادقه ومدافعه. رجلٌ ذو موهبة كبيرة ومستقبل عظيم، كما كان رؤساؤه يصفونه بافتخار. مجرمٌ يحمل علم التاج وسطوة جيشه بيديه .واحدٌ بين كثيرين.

لم يتأخَّر ليويلين في الانتباه إلى موهبة تشاندرا، ومن دون أن يفكِّر مرَّتين نفَّذ سياسة الأرض المحروقة حوله، ليوقفَ جميع مشاريعه. وفي غضون أسبوعين، انغلقت في وجهه الأبواب في كلكتا ونواحيها. عرض عليه الكولونيل تنفيذ مشاريع ضخمة لمصلحة الجيش، جسور وسكك حديديّة... وقد رفض والدُكِ كل تلك العروض، وفضَّل الصمود بالعطايا الضئيلة التي يتصدَّق بها عليه الناشرون في بومباي مقابل مخطوطاته. خفَّ حصار ليويلين مع الوقت، واستأنف تشاندرا العمل على رائعته. استعاد ليوبلين غضبه بعد سنوات. كانت مسيرته المهنيَّة في خطر، وكان في حاجة إلى ضربة ناجعة، حمام دم طازج يجدِّد به اهتمام المراتب العُليا في لندن بإمكانيَّاته لإنعاش لقبه «فهد البنغال». كانت استراتيجيّته واضحة: أن يضغط على تشاندرا، ولكن بأسلحةٍ أخرى هذه المرَّة.

أجرى تحقيقات مطوَّلة عن والدك، واستطاع رجاله التوصُّل إلى آثار الجرائم التي تورط بها جافاهال. فاعتزم ليوبلين على إعادة



القضيَّة إلى السَّطح، عندما كان والدكِ في أشدِّ انغماسه في مشروع محطّة جيتر، ثم تدخَّل ليدفنها من جديد ويهدّد بكشف الحقيقة في حال لم يوافق تشاندرا على ابتكار سلاح جديدٍ من أجله، أداة قمع فتَّاكة قادرة على إبادة العوائق التي يضعها السلميُّون والمنادون بالاستقلال عثرةً في طريقه. اضطُّر تشاندرا إلى الاستسلام، وهكذا اخترع طائر النار، الآلة القادرة على إحالة مدينة أو قريةٍ إلى محيط من اللَّهيب في غضون ثوانٍ.

كان تشاندرا يعمل على طائر النار ومحطِّة جيتر بالتوازي، تحت الضغط المستمرّ للكولونيل الذي أصبح مهددا بالتحول إلى شخصية مزعجة بسبب جشعه والريبة التي أضمرها رؤساؤه بحقه. فهو الذي كان في الماضي يعد رجلاً مترويًّا، متوازِنًا ومتفانيًا بواجبه، صار آنذاك أشبه بمعتوه مقزِّز، تقوِّضُ حاجتُه إلى النجاح والتكريمات إمكانيَّة بقائه على قيد الحياة.

أيقن تشاندرا أنَّ سقوط ليويلين مسألة وقت، وراح يتلاعب به. جعله يصدِّق أنه سيُسلِّمه المشروع قبل الوقت المتوقَّع. لكنَّ هذه الحركة فاقمت تشنج ليويلين وأفقدَتْه ما تبقَّى من رُشده .

في العام ١٩١٥، قبل عام على افتتاح محطّة جيتر الذي ينطلق منها، أوعز ليويلين بلا أيّ مسوِّغ بارتكاب مجزرة بحقِّ أُنَاس عُزَّل وطُرد من الجيش البريطانيّ بعد فضيحةٍ وصلتْ أصداؤها حتى إلى مجلس العموم. فأفلَ نجمُه.



وكان ذلك بدايةً لجنونه. دعا مجموعةً من الضُّباط الذين ظلُّوا له أوفياء وكانوا مثله مجرَّدين من رُتَبهم ومضطَّرين إلى مغادرة الجيش. فنظَّم مع جماعةِ السفَّاحين هؤلاء عصابةً إجراميَّة شبه عسكريَّة تعمل من غير ترخيص. كانوا يرتدون بدلاتِهم العسكريَّة القديمة ونياشينهم ويجتمعون في إقامة ليويلين، متظاهرين بأنَّهم وحدة سريَّة من النُّخبة ما كانت لتتوانى عن تسريح من وقَّع بحقِّهم قرارات الطرد. لا شكَّ أن ليويلين لم يعترف بأنَّه مسرَّح ومطرود. بل كان يقول إنَّه وأعوانه استقالوا لتأسيس نظامٍ عسكريٍّ جديد .

وما لبث أن تلقَّى أبوكَ تهديداتٍ بالقتل له ولزوجته التي كانت حبلى، وإلَّا سلَّم طائر النّار. وبما أنَّ الأمر برمته غير مرخّص، اضطُّر تشاندرا إلى التحرُّك فيه باحتراس كبير. إن التمس مساعدة الجيش، سينكشف ماضيه. لم يكن أمامه خيار سوى تلبية مطالب ليويلين ورجاله.

وفي ذلك الجوِّ المشحون، قبل يومين على تدشين المحطَّة، لا بعد ذلك كما أخبرتكم، أنجبت كيليان توأمًا، ذكرًا وأنثى. أنتَ وشقيقتك شير.

نُظِّمت رحلةٌ رمزيَّة في مساء التدشين. كان القطار الأول سينطلق على خط كلكتا - بومباي ويحمل على متنه ٣٦٥ طفلاً بلا عائلة، طفلاً عن كلِّ يوم من السنة، باتجاه مياتم تلك المدينة. تقدَّم تشاندرا إلى ليويلين ورجاله بالاقتراح التالي: كان سينصب طائر النار على القطار، وسينتهز وقفةً تقنيَّة بعد خمسين كيلو مترًا، في موازاة بيشنبور، حيث يحصل عليه الجنود. وافق ليوبلين. كان تشاندرا



يفكر في تعطيل الآلة والتملُّص من الكولونيل السَّابق ورجاله قبل أن يصفِّر القطار. لكن ليويلين كان في سرِّه مُرتابًا في هذا الاتفاق فأمر رجاله بالتحرُّك مسبقًا.

واعدَ والدُكِ الجنودَ في داخل المحطّة، المتاهة الحقيقيّة التي لا يعرفها أحد سواه، وتذرَّع بضرورة إظهار طائر النار على مرآهم فأدخلهم في الأنفاق. لكن ليويلين الذي تكهَّن بخطَّة من هذا النوع كان قد اتَّخذ احتياطاتِه؛ واختطف والدتَكما واختطفَكما قبل الذهاب إلى الموعد. وعندما تهيَّأ تشاندرا لإبادة مبتزِّيه، أخبره ليويلين بأنَّكما في قبضَته وهدَّد بقتلكما ما لم يستلم طائر النار. فما كان أمام تشاندرا سوى الاستسلام. إلّا أنَّ ليويلين لم يكتف حتَّى بذلك. فقيَّده على قاطرة المحرِّك بانتظار أن يتمزَّق إلى أشلاء عند بداية الرحلة. وهناك تحديدًا، وعلى مرأى عينيه، غرس سكِّينًا في عنق كيليان بدمٍ بارد. ثم تركها تنزف ببطء وهي متدلِّية بحبلٍ من القُبَّة الكبرى للمحطَّة. وأقسم أنه سيترككما في الأنفاق لتلتهمكما الفئران.

وبعد أن ترك تشاندرا مقيَّدًا على قاطرة المحرّك، أمر رجاله بتشغيل القطار والاستيلاء على طائر النار. وفي الأثناء كان سيخفيكما في نفق حيث لا أحد بوسعه العثور عليكما. ولكنَّ شيئًا ما لم يجر وفق مخطَّطاته. بالغ ليويلين الغبيّ في تقدير ذكائه، وافترض أن تشاندرا تشاترغي قد وضع في يد مجرم مثله قوة تدميريّة كطائر النار هكذا مجَّانًا. لكن والدك كان قد اتّخذ كامل احتياطاته، فقد زوَّد طائر النار بآلية سرِّيَّة موقوتة لا يعرفها أحدٌ



سواه. آلية قد تفجر قوَّة السلاح التدميريَّة من تلقاء ذاتها إذا حاولت يد غير يده أن تفعِّلها .

وعندما صعد ليويلين وجوقة زبانيته على متن القطار، قرَّر ذلك قائد المجموعة أن يستبق ثأره بحرق المدينة ما إن يحوز على ذلك الاختراع الفتَّاك، وذلك بتدمير المحطَّة على رؤوس من سيجتمع احتفالاً بتدشينها. وهكذا شغل ليويلين طائر النار، وحكم على نفسه وجميع من كان معه بالموت على متن القطار. ولم تكد خمس دقائق تنقضي فإذا بالجحيم تندلع داخل المحطَّة، آخذة بنيرانها أرواح المذنبين والأبرياء بلا تمييز.

لعلَّكم تتساءلون عن الأجوبة، وعن السبب الذي دفعني لأن أكذب عليكم بخصوص السجن الذي حُبس فيه جافاهال، أو السبب وراء انعدام ذكر اسمه. قبل أن أكمل، عليكم أن تدركُوا أنَّ ما سأرويه هو الجانب الأهمّ في الحكاية، وأنَّه مهما كانت انطباعاتكم حول ما ستسمعونه، تأكَّدوا أن تشاندرا كان رجلاً عظيمًا.

أحبَّ زوجته وكان سيحبُّ أبناءه لو أنه حظي بفرصة رؤيتهم. ومع ذلك ستعرفون الحقيقة الآن...

عندما مرض والدك بسبب الحمَّى في صباه، لم ينتهِ به المطاف في كوخٍ على النهر حيث اعتنى به فتى حتى شفائه كما أخبرتكم في المرَّة الماضية. إنَّما نشأ في مؤسَّسة ما زالت موجودة جنوب كلكتا، واسمها غرانت هاوس. لا أعتقد أنّ سنَّكم تسمح لكم بتذكُّرها، لكنَّها في الماضي كانت شهيرة بما يثيرُ الحزن. غرانت هاوس هو



المكان الذي اقتِيد إليه أبوك بعد أن شهد حادثًا مروِّعًا قبل أن يُتِمَّ عامَه السادس. كانت أمُّه المريضة تبيع لحمها مقابل ثمنٍ بخس، وأشعلتِ النَّار في جسمها لتضحِّي بنفسها للإلٰهة كالي. فكانت مؤسَّسة غرانت هاوس، المكان الذي نشأ فيه تشاندرا، مصحَّة نفسيَّة، أو ما قد تسمُّونها بمستشفى المجانين...

عاش تشاندرا أعوامًا في مهاجع تلك المصحَّة، لا أب له ولا أم ولا أصدقاء سوى الأشخاص المصابين بالهذيان والمعاناة. أشخاص يعرفون أنفسهم على أنهم شياطين، أو آلهة أو ملائكة، ثم ينسون اسمهم في اليوم التالي. وعندما بلغ سن الخروج من هناك، مثلما حدث لكم، عاش تشاندرا طفولة ملؤها الرعب والبؤس المتفشِّي في هذه المدينة.

لم يعد من الضروريّ أن أخبرَكم بأنَّه لا وجود لصديق شرِّير ارتكب تلك الجرائم، وأنه لا ظل في حياة والدك سوى تلك الدودة التي نخرت رأسه واستقرَّت فيها. لقد ارتكب بيدَيه تلك الجرائم التي طاردته بمشاعر النَّدَم والعار حتى باتت تنزل عليه كاللَّعنة.

ولم يُشفَ من تلك المشاعر لولا طيبة كيليان ونورانيَّتها ، فاستعاد قدرته على تقرير مصيره. ألَّف معها الكتب التي تعرفونها، وخطَّط للمشاريع التي خلَّدته وأبعدت شبح حياته المزدوجة. لكنّ طموح الرجال لم يمنحه فرصة، كما أنّ الوعد بحياة سعيدة ومزدهرة ضاع في الظلمات. إلى الأبد هذه المرَّة.



وفي اللَّيلة التي قُدِّر على لاهافاج تشاندرا تشاترغي فيها أن يشاهد مقتل زوجته، عادت أعوام الرعب الذي عاشه في طفولته لتطاردَه مثل كلب الصيد، وقذفته من جديد في أتون جحيمه الخاصَّة. كان قد شاد حياته كلها على تلك الركيزة التي رآها بأمِّ العين تتهاوى. وبينما كانت النيران تلتهمه، مات موقنًا بأنه المذنب الوحيد في تلك المأساة، وبأنه يستحق ذلك العذاب .

لذا حين شغل ليويلين طائر النار وشبَّ الحريق في الأنفاق والمحطَّة، استيقظ ظلٌّ مشؤوم من طوايا روح تشاندرا العميقة، وأقسم أنه سيعود من الموت يومًا ما. سيعود مثل ملاك ناريّ. ملاك مبيد ومنتقِم. ملاك يجسِّدُ الجانب المظلم من شخصيَّته. فالذي يطاردكم ليس مجرمًا. وليس حتى بشرًا. إنه شبح. إنه روح. أو شيطان إن أردتم. لطالما عشق والدك الأحاجي، حتى النهاية. وقد حدَّثتموني عن رسمة لصديقكم مايكل، تظهر فيها انعكاسات وجوهكم على سطح بركة ماء. وتبدو فيها وجوهكم مقلوبة. يبدو أنّ مايكل كان يتنبَّأ. فإن كتبتم اسم ذلك الرجل، لاهافاج، فإنّ انعكاسه على سطح الماء سيعطي كلمة أخرى: جافاهال.

إنّ روحَ جافاهال المعذَّبة تعيش منذ ذلك اليوم رفقة الآلة الجهنميَّة التي اخترعها بنفسه، وفي لحظة موته أمَّلته بحياةٍ أبديَّة مثل شبح الظلمات. إنه وطائر النار شيءٌ واحد. تلك هي لعنته: اتحاد روح غاضبة بآلة دمار. روح ناريَّة محبوسة في مراجل ذلك القطار المحترق. وها هي تلك الروح الآن تبحث عن دارٍ جديدة



. إلهذا السبب يطاردكم، لأنكم عندما تبلغون سن الرشد ستحتاج روح جافاهال إلى واحد من أبنائه لتستمرَّ في الحياة، لتسكنَ جسده وتبسط نفوذها حتى على عالم الأحياء. لذا سينجو واحد منكما حصرًا. أمَّا الآخر، الذي ستعشَّش في روحه روح جافاهال، فعليه أن يموت، لكي يتسنَّى لهذا الروح أن يعيش.

لقد أقسم منذ ستة عشر عامًا على أن يبحث عنكما ليستحوذَ عليكما. ولطالما كان رجلاً يصون عهوده. في الحياة، وما بعدها أيضًا. ولا بدَّ أن تعرفوا أنَّ جافاهال، في حين أروي عليكم هذه الأحداث، اختار واحدًا منكما سلفًا ليقيم في روحه الملعونة. هو وحده يعرف مَن اختار.

وشاءت العناية الإلهيَّة أن تمدَّكما بفرصةٍ عندما دخل الملازم بيك منذ ستة عشر عامًا في متاهة أنفاق محطّة جيتر ووجد كيليان بعد أن فارقت الحياة معلَّقَة في الفراغ فوق بركة من الدماء، سمِعَ المُلازِم بكاءكما وسكت على ألمه وبحث عنكما وانتزعَكما من يد روح أبيكما. لكنَّه لم يستطعِ الاستمرار طويلاً. قادته خطواته إلى بابي، حيث أرغم على ترككما ليهرب من جديد .

عندما ستروي هذه الحكاية على مسمع شقيقتك شير يومًا ما، لا تنس أبدًا أنَّ الروح المنتقمة، التي عادت في تلك الليلة من بين نيران محطّة جيتر وقتلت الملازم بيك بينما كان يحاول إنقاذ حياتكما، هي ليست والدكما. لأن والدكما مات في الحريق، مع أرواح الأطفال الأبرياء. ومن عاد من الجحيم ليدمِّر حياته وثمرة زواجه وعمله، إنما هو روح. روح هالكة بشرور الحقد والكراهية



والرعب الذي زرعه البشر في قلبه. هذه هي الحقيقة، ولا أحد ولا شيء بوسعه تغييرها .

إن كان هنالك إله، أو ألف ذات إلهية، فأرجو أن يغفروا لي عن الألم الذي سبَّبته لكم بسرد هذه الحقائق مثلما وقعت تمامًا...



ماذا بوسعي أن أقول؟ أيّ كلمات أختار لأعبِّر عن الحزن الذي رأيته تلك الظهيرة من شهر مايو في عيون بِنْ، صديقي المفضل؟ لقد لقَّننا النبش في الماضي درسًا قاسيًا وكشف لنا الحياة مثل كتاب كان من الأفضل عدم تقليب صفحاته إلى الوراء؛ مسيرة لا جدوى من معرفة وجهتها، اتّخذناها لأنَّنا ما كنَّا قادرين على اختيار مصيرنا. وددتُ لو أنني كنتُ على متن السفينة التي ستحملني بعيدًا، وددتُ لو أنها انطلقت في اليوم التالي. كان الجبن في قلبي يمتزج بالأسى على صديقي ومرارة مذاق الحقيقة.

أصغينا جميعًا إلى حكاية أريامي، ولم يجرؤ أيّ منا على صياغة سؤالٍ واحد، مع أنَّ أذهاننا كانت تعجُّ بمئة تساؤل وتساؤل. كنَّا نعلم أنَّ خطوط مصائرنا تتقاطع عند نقطة معينة في النهاية، عند موعد ينتظرنا ولا يسعنا التغيُّب عنه في ظلمات محطّة جيتر حين هبوط المساء .

عندما خرجنا إلى الهواء الطلق، كانت أواخر أضواء النهار تنطفئ في أفق أحمر يتمدَّد على زرقة أعماق غيوم البنغال. بلَّل مطرٌ ناعم وخفيف وجوهنا ونحن ندخل السكَّة المسدودة التي تنطلق من فناء دار لاهافاج تشاندرا تشاترغي الخلفيّ نحو المحطَّة الكبرى على الضفة الأخرى من نهر هوغلي، مرورًا بالمنطقة الغربيَّة من المدينة السوداء .

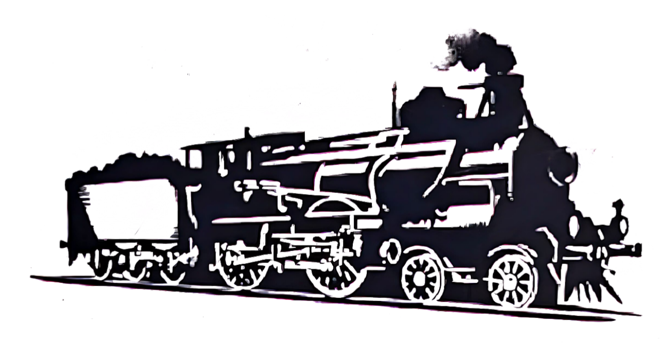
أذكر أنه، قبل اجتياز الجسر الحديديّ على نهر هوغلي المفضي إلى أفواه محطّة جيتر مباشرة، أوصانا بِنْ والدمع في مقلتيه ألَّا نبوح بما سمعناه أبدًا ومهما كان السبب. وأقسم أنه لو عرف أنَّ أحدًا



منا أطلع شير على حقيقة والدها وعلى الوهم الذي أذكى حياتها منذ الطفولة، فإنَّه سيقتله بيديه العاريتين. فأقسمنا جميعًا على كتمان السرّ. لم يتبقَّ إلا جزء واحد لإكمال حكايتنا : الحرب...



اسم منتصف الليل



كلكتا، ٢٩ مايو ١٩٣٢

سبق ظلُّ العاصفة منتصف الليل وبسطَ ستارةً واسعة ورصاصيَّة اللون على مدينة كلكتا التي أضاءت مثل كفن دام عند كلّ صعقة كهربائيَّة غاضبة. وكان دويّ الإعصار المستمرّ يرسم في السماء عنكبوتًا عملاقًا من الضوء كأنه ينسج شبكته فوق المدينة. وفي الأثناء كنست ريح الشمال العاتية الضباب الرابض على نهر هوغلي لتعرِّي هيكل الجسر الحديديّ المُحطَّم في ظلام الليل.

برز طيف محطّة جيتر في الضباب الزائل. ضربت الصاعقة برجَ القبَّة المركزيَّة للمحطَّة، وتفتَّت في ضوءٍ أزرق كاللِّبلاب يقطع عقدة الأقواس والدعامات الفولاذيَّة حتى أساساتها .

توقَّف الفتية الخمسة عند بداية الجسر. تقدَّم بِنْ وروشان بضع خطوات نحو المحطَّة. كانت السكّة ترسم دربًا مستقيمًا يحاذيه خطَّان فضّيَّان يغوصان في قلب المحطَّة. توارى القمر خلف



ستارة الغيوم فبدت المدينة تحت حماية ضوءٍ وحيدٍ آتٍ من قنديل أزرقَ بعيد .

عاين بِنْ الجسر بحثًا عن صدوع أو شقوق قد تودي بهم في مجرى النَّهر الدَّاكن مباشرة، لكنَّه لم يستطع أن يلمح شيئًا سوى أثر السكّة اللامع بين النباتات والحطام. جلبت الريـحُ من الضفة الأخرى صوتًا مكبوتًا. نظر بِنْ إلى روشان الذي كان يحدِّق متوتِّرًا إلى أفواه المحطَّة المظلمة. ثمَّ اقترب الأخير من السكَّة وجلس القرفصاء، دون أن يحيد بصره عن محطّة جيتر. أسند كفُّه على سطح السكة ورفعها فورًا، كما لو أنَّه أُصيبَ بصقعةٍ قويَّة.

- إنها تهتزّ. - قال متخوِّفًا - هذا يعني أن قطارًا يوشك على الوصول.

اقترب بِنْ ولمس الخط الحديديّ الطويل نظر إليه بقلق .

- الجسر يهتزّ بسبب التيار. - طمأنه - لا وجود لأي قطار.

اقترب منهما سيث ومايكل، بينما جلس يان القرفصاء ليربطَ خيوطَ حذائه بعقدة مزدوجة، وهذه عادة يمارسها خصوصًا في المواقف التي تغدو فيها أعصابه أسلاكًا فولاذيَّة.

رفع يان نظره وابتسم بخجل إلى بن، دون أن يظهر شيئًا من خوفه، مثله مثْل الآخرين تمامًا. - من الأفضل ربط الخيوط بعقدة ثلاثية هذه اللَّيلة. - مازحهُ سيث.



ابتسم بِنْ وتبادل أعضاء نادي شوبار نظرة ترقُّب. وبعد لحظة قلَّد الجميع يان وربطوا خيوط أحذيتهم، كأنَّهم يتمسَّحون بتلك العادة التي تشبه التميمة والتي لطالما أمدت رفيقهم بنتائج طيبة في مواقف أخرى.

ثم شكلوا طابورًا يبدأه بِنْ وينهيه روشان في الخلف، وتوغلوا الجسرَ بحذر. نفّذ بِنْ نصيحة سيث وظلَّ يمشي بجانب السكَّة حيث البنية أمتن. لو كانوا يسيرون في وضح النهار لسهل عليهم تجنُّب الدعائم المحطَّمة والرؤية المسبقة للمواطئ التي استهلكها مرور الزمن فأمست حينذاك تتدلَّى كالزلاقات إلى وسط النهر مباشرة؛ ولكن في منتصف الليل، وتحت غيوم العاصفة الوشيكة، تحوَّل المسار إلى غابة موحشة ومزروعة بالعثرات والفخاخ حيث يجدر التقدُّم خطوة بخطوة وليس قبل تحسُّس الأرضيَّة.

وما لبثوا أن مشوا خمسين مترًا، أي المسافة، حتى توقَّف بِنْ ورفع يده إشارة للآخرين أن يفعلوا مثله. نظر رفاقُه إلى الأمام ولم يفهموا. وظلُّوا صامتين قليلاً، متحجِّرين على العوارض التي تهتزُّ كالهُلام بسبب فوران النهر الهادر تحت أقدامهم .

- ما الذي حدث؟ - سأله روشان من آخر الطابور - لماذا توقَّفنا؟

أشار بِنْ إلى المحطَّة فرأى الجميع شريانين من النَّار يتقدَّمان نحوهم بسرعة قصوى على امتداد السِّكَّة.

- تنحُّوا على الجانبين! - صاح بِنْ.



فارتمى الفتية الخمسة أرضًا فيما قطع الجداران الناريان الهواء بجانبهم بغضب كأنَّهما سكينان من غاز مشتعل. ونجم عن مرورهما أثر شديدة الوطأة يشبه الامتصاص، وحمل معه قطعاً من بنية الجسر وخلف وراءه خطًّا ملتهبًا.

- هل الجميع بخير؟ - سألهم يان وهو ينهض متحقِّقًا من أنّ البخار ينبعث من ثيابه.

أومأ الآخرون صامتين .

- فلننتهز الفرصة لنعبرَ الجسر قبل انطفاء ألسنة اللهب .

- بن، أعتقد أن ثمّة شيئًا ما تحت الجسر. - لاحظ مايكل .

ابتلع الآخرون ريقهم. صدرت طقطقة غريبة من الصفيحة المعدنيَّة تحت أقدامهم. ولمعت ذكرى الشريان الفولاذيّ في ذهن بِنْ.

- لن نبقى هنا لنكتشف ما هو بالتأكيد. - رد الفتى - بسرعة.

سارع أعضاء النادي لمتابعة بِنْ ولحقوا به على خطوات ملتوية باتجاه الطرف الآخر من الجسر، دون أن يتوقَّفوا للنظر إلى الخلف. وعندما وطئوا اليابسة من جديد قبل بضعة أمتار عن مدخل المحطَّة، التفت بِنْ وأشار إلى رفاقه بالابتعاد عن الجسر الحديديَّ.

- ما كان ذاك؟ - سأله يان من خلفه .



رفع بِنْ كتفيه.

- انظروا إلى هناك. - هتف سيث .

توجَّهت أنظار الجميع إلى وسط الجسر. كانت السكّة تكتسب لونًا ضاربًا إلى الحمرة المشعَّة في كلا الاتجاهين وتنبعث منها هالة دخانيّة. بدأت السكَّة تلتوي في غضون ثوان. وأخذ الجسر يقطر دموعًا ثقيلة من حديد مصهور تتساقط على النهر وتسفر عن انفجارات عنيفة كلما ارتطمت إحداها بمجرى التيَّار البارد .

شاهد الفتية الخمسة مشدوهين ذلك المنظر المريع الذي تذوب فيه مئتَا متر من الفولاذ، مثل زبدة في مقلاة ساخنة. غرق الضوء الذهبي للحديد السائل في النهر وأضاء وجوه الأصدقاء الخمسة. وفي النهاية، تحوَّل الأحمر المشعّ إلى لون حديديّ كدِر، وسقط طرفَا الجسر في النهر مثل شجرتيّ صفصاف حديديَّتين تتمعنَان في انعكاس صورتهما.

هدأت ضجَّة الفولاذ الغاضب وهو يلتمع في الماء شيئًا فشيئًا. فسمع الفتية الخمسة خلف ظهورهم صوت صافرة الإنذار القديمة لمحطّة جيتر تخدش ليل كلكتا للمرَّة الأولى بعد ستة عشر عامًا. فالتفتوا صامتين وتخطوا الحدود التي تفصلهم عن المشهد العجائبي للمباراة التي كانوا يتجهزون لخوضها.

فتحت إيزوبيل عينيها على نواح صافرة الإنذار الذي قطع الأنفاق كأنَّه يحذر من قصف مدفعيّ. كانت يداها وقدماها مكبَّلة بحديدتين صدأتين. وما من إنارة سوى ما تسرَّب من فتحة تهوية



فوقها. خفُتَ صوت الصافرة تدريجيًّا.. وإذ بها تحسّ بشيء يزحف نحو الكوة. نظرت إلى المنور ولاحظت أن مثلث الضوء يغدو قاتمًا بينما تنفتح الكوة. أغمضت عينيها وحبست أنفاسها. انفكَّت الأغلال المعدنيَّة التي شلَّت يديها وقدميها، وأحسّت الفتاة بيد طويلة الأصابع تمسكها من عنقها وترفعها عموديًّا باتجاه الفتحة. صرخت مذعورة عندما رماها خاطفها على جدار النفق كأنها جثَّة.

فتحت عينيها ورأت طيفًا طويلاً وأسود، ثابتًا أمامها: شخص بلا وجه .

- جاء أحدهم يبحث عنك. - غمغم صاحب الوجه الخفي

- لن ندعه ينتظر. وفي اللَّحظة نفسها أضاءت حدقتان مشقتان على ذلك الوجه، كعيدان الثِّقاب المشتعلة في الظلام. أمسكها الشخص من ذراعها وجرَّها نحو النفق. وبعدما بدت أنَّها ساعات مسير عصيب في الظلام، لمَحت إيزوبيل جانبًا طيفيًّا من قطار متوقِّف في العتمة. انصاعت لخاطفها الذي جرَّها إلى المقطورة الخلفيَّة ولم تقاومه عندما دفعها بقوَّة إلى الداخل، حيث حبَسَها .

وقعتْ على وجهها عند الأرضيّة المتفحِّمة في المقطورة وأحسَّت بصعقة ألم في بطنها. شظية سبَّبت لها جرحًا من عدِّة سنتمترات. أنت. تولَّاها الفزع كليًّا عندما أحسَّت بيد تمسكها وتحاول أن تديرها. فصرخت لتجدَ نفسها أمام وجه متَّسِخ ومنهك لفتى مذعور مثلها وأكثر.



- هذا أنا يا إيزوبيل. - غمغم سراج - لا تخافي.

وللمرَّة الأولى في حياتها، سمحت إيزوبيل لدموعها بالانهمار بلا توقُّف في حضور سراج، وعانقت جسد صديقِها المريض والهزيل .

***

توقَّف بِنْ ورفاقه تحت الساعة الكبيرة التي ذابت عقاربها فوق الرَّصيف المركزيّ للمحطَّة. كان مشهد الظلال والأضواء الحادّة المتسرِّبة من المنور الزجاجيّ والحديديّ يتمدّظ حولهم في كل اتجاه، فبالكاد رأوا آثار ما كانت في الماضي أفخم المحطَّات التي لم يحلم بمثلها أحد من قبل، شبه كاتدرائيَّة من حديد منصوبة على شرف إلٰه السكك الحديديَّة. تخيَّل الرفاق الخمسة مظهر المحطَّة مثلما كانت عليه قبل وقوع الكارثة: قبَّة هائلة ومنيرة ترتكز على أقواس خفيَّة لكأنّها معلَّقة في السماء لتغطي صفوفًا متعدِّدَة من الأرصفة بترتيب منعطف كما لو أنَّها أمواج تصنعها عملة سقطتْ في بركة ماء. لافتات عملاقة تعلن انطلاق قطارات ووصول أخرى. أكشاك فاخرة من حديد مطروق ونقوش بارزة على الطراز الفكتوريّ. سلالم مهيبة تصعد نحو طوابق عليا على امتداد أروقة من زجاج وفولاذ وممرَّات معلّقة أشخاص في الهواء .

جموع يتمشُّون في الصالات ويركبون القطارات الطويلة والسَّريعة التي كانت ستنقلهم إلى أيِّ مكان في البلاد... لم يعد من كلِّ هذا



البهاء سوى انعكاس مخرب ورث، وقد تحوَّل إلى بوادر جحيم تتوعَّد به الأنفاق.

حدَّق يان إلى عقارب الساعة، التي شوَّهتها النيران، وحاول أن يتخيَّل أبعاد الحريق. اقترب منه سيث، لكن كليهما تحاشى أن يدلي بدلوه.

- علينا أن ننقسم إلى مجموعتين لمتابعة بحثنا. فهذا المكان شاسع. - اقترح بِنْ.

- لا أعتقد أنَّها فكرةٌ صائبة. - ردَّ سيث الذي أخفق في نسيان مشهد الجسر وهو يسقط في الماء.

- وحتَّى لو اعتمدناها، فنحن خمسة فقط. - لاحظ يان - من سيكون بمفرده؟

- أنا. - أجاب بِنْ. رمقه الآخرون بمزيجٍ من الارتياح والقلق.

- ما زلتُ أعتقد أنها فكرة غير صائبة. - ردَّ سيث.

- بِنْ على حق. - تدخَّل مايكل - بناءً على ما رأيناه حتى الآن، لا فرق إن كنَّا خمسة أو خمسين.

- رجلٌ قليل الكلام، لكنه ما فتح فمه إلا وبث الحماس. علَّق روشان.



- مايكل. - اقترح بِنْ - اصحب روشان للبحث في الطوابق الأخرى. وسيبحث يان وسيث في هذا الطابق .

لم يكن يبدو أنّ أحدًا مستعد لمناقشة تقسيم الوظائف. إذ إنّ جميعها لا تفتح الشهيَّة. -

وأنت، أين ستبحث؟ - سأله يان متوقِّعًا الإجابة .

- في الأنفاق.

- بشرط... - قال سيث محاولاً فرض الحسّ السليم - بلا بطوليَّات ولا حماقات. من يجد دليلاً قبل الآخرين يتوقَّف، يميز المكان ويعدّ لمناداة الآخرين.

- يبدو شرطًا منطقيًّا. - وافق يان.

أومأ مايكل وروشان موافقين.

- بن؟ - حثَّه يان.

- موافق. - غمغم الفتى.

- لم نسمع. - ألحَّ سيث .

- أعدكم بذلك. - قال بِنْ - سنلتقي هنا بعد نصف ساعة .

- فلتسمعْ منك السماء. - اختتم سيث المحادثة.



***

تحوَّلت الساعات الأخيرة في ذاكرة شير إلى ثوان قليلة، بدت خلالها أنَّها خضعت ذهنيًا لمفعول مخدِّر جبَّار أفقدها وعيها وألقاها في هاوية لا قرار لها. تذكَّرت بشكل عام أنها بذلت جهودًا عبثيَّة لتحرِّر نفسها من قهر ذلك الشكل الناريّ الذي جرَّها عبر شبكة هائلة من قنوات الصرف الأشد حلكة في منتصف الليل. تذكَّرت أيضًا - كمشهد مقتطف من واقعة بعيدة ومشوَّشة - وجه بِنْ وهو يتخبَّط على بلاطِ دارٍ مألوفة الجوانب، مع أنَّها تجهل كم مضى من الوقت. ربَّما ساعة، أسبوع، أو شهر.

وعندما استعادت وعيها بجسدها والرضوض التي تسبَّبت بها ممانعتها، أدركت شير أنّها كانت مستيقظة منذ بضع دقائق وأنَّ المشهد الذي حولها لا يشكل جزءًا من كابوسها. وجدت نفسها داخل غرفة طويلة وعميقة، وفيها نوافذ على الجانبين يتغلغل من خلالها ضوء بعيد يتيح رؤية ما تبقَّى ممَّا كانت تبدو صالة ضيِّقة. كانت الهياكل المهشَّمة للقناديل الزجاجيَّة الصغيرة الثلاثة تتدلَّى من السقف مثل أجمات يابسة. وهناك جزء من مرآة متشظِّية تلتمع في العتمة خلف مصطبَة توحي بأنّها كانت مشرب في حانة راقية. حانة راقية، لكن حريقًا غاضبًا عديم الرحمة قد التهمها.

حاولت أن تنهض، تحقَّقت مما إذا كانت السلسلة التي تكبِّل معصميها على ظهرها موثقة بأنبوب هزيل، فاستوعبت أين كانت: داخل قطار متوقِّف في أنفاق محطّة جيتر. وإنّ يقينها المشوَّش



بالمكان التي حُبست فيه كان بمثابة حمَّام ماء بارد أيقظها من الدوار والغثيان اللَّذين أثقلا على ذهنها.

شحذت أبصارها وتفرَّست في فوضى أكوام الطاولات المقلوبة وبين بقايا الحريق، بحثًا عن أداة قد تفيدها لتتحرَّر من السلاسل. ولم يبد أن تلك المقطورة المحطَّمة قد تحتوي على شيء سوى مخلَّفات متفحِّمة لا جدوى منها، وقد صمدتْ بفعل أعجوبة. حاولت أن تملص يائسةً، بلا أيِّ نتيجة سوى تصلُّب الأغلال التي كانت تُكبِّلُها .

هنالك كتلة سوداء أمامها بمترين، ظنَّتها في البدء كومة أنقاض، فإذا بها تلتفتْ نحو الفتاة فجأة، بسرعة هرٍّ محاصر حتَّى تلك اللحظة. أُضيئَت ابتسامةٌ منيرةٌ على وجهٍ خفيٍّ في العتمة. خفق قلبُ شير بشدّة، وبات الطَّيف قريبًا بمسافةٍ عن وجهها. كانت عينا جافاهال تلمعان كالجمر في مهبّ الريـح، وشمَّت شير رائحة حامضة وثاقبة من وقود محترق.

- مرحبا بك فيما تبقَّى من داري يا شير. - غمغم جافاهال بنبرة جامدة

- هذا هو اسمك، أليس كذلك؟

أومأت شير، وقد شلّها الرعبُ الذي يوحي به حضور ذلك الطَّيف .

- لا ينبغي لك أن تخشي مني. - قال جافاهال.



كبتت الفتاة دموعها التي كانت تضغط للخروج عن سيطرتها؛ لم تفكِّر في الاستسلام بسهولة. أغمضت عينيها بإحكام وتنفست بمشقَّة.

- انظري إليَّ حين أخاطبك. - قال جافاهال بنبرة جمَّدَت الدماء في عروقها.

فتحت شير عينيها ببطء ورأت مبهورة يد جافاهال تدنو من وجهها. كانت أصابعه الطويلة، المغلولة بقفاز أسود، تلامس خدها وتزيح برهافة فائقة غرَّتها المنسدلة على جبينها. بدتْ عينا الخاطف تغرورقان بالدمع خلال لحظة وجيزة .

- تشبهينها كثيرًا. همس.

انسحبت اليدُ فجأة كحيوان مذعور، وقام جافاهال.

شعرت شير بأنَّ السلاسل خلف ظهرها تتزحزح وأنَّ يديها تتحرَّران .

- انهضي واتبعيني. - أمرها.

انصاعت شير لأوامره بينما كان جافاهال يرشدها على الطريق. وما إن سبقها الطَّيف الغامق مسافة مترين وسط الخراب، حتَّى انطلقت راكضة في الجهة المعاكسة بكلِّ ما أُوتيت عضلاتُها المتخدِّرة من سرعة. قطعت المقطورة وهي تتدحرَج وألقتْ بنفسها على الباب الذي يفصل بين المقطورات المرتبطة بعضها



ببعض بمنصَّة صغيرة ومكشوفة. وضعتْ يدها على المقبض الحديديِّ المسودّ وشدَّت عليه بقوَّة.

فارتخي المعدن كفخارٍ طريّ، ولاحظتْ شير مذهولةً كيف يتحوَّل إلى خمس أصابع حادَّة تمسك معصمها. انطبق الباب على نفسه تدريجيًّا واتَّخَذ شكل تمثال متألِّق برزتْ من وجهه الأملس ملامح جافاهال. ارتعشت ركبتاها وسقطَتْ أمامه ساجدة. فرفعها جافاهال إلى الأعلى وقرأت الفتاةُ في عينيه ما فيهما من غضب.

- لا تحاولي الفرار منّي يا شير. عمَّا قريب سنتَّحد أنا وأنتِ في كينونة واحدة. لستُ عدوًّا لكِ إنني مستقبلكِ فانتقلي إلى صفِّي، وإلَّا هذا ما سيحدث لك.

حمل جافاهال عن الأرضيَّة بقايا كأسٍ مكسورة، ضغط عليها بأصابعه بشدَّة. فذاب الكريستال في قبضته وانسكب على هيئة قطرات غليظة من زجاج سائل تتساقط على أرض المقصورة لتكون مرآة ملتهبة بين الحطام. ترك جافاهال الفتاة فأوقعها على بعد سنتمترات عن الزجاج الساخن.

- والآن، افعلي ما أقوله لكِ.

❋❋❋

جلسَ سيث القرفصاء بجانب ما بدا أنَّه صفيحة لامعة على أرض المنطقة الوسطى من المحطَّة وجسَّها بأنامله. كان السَّائل فاترًا وكثيفًا، له قوامُ زيتٍ مسكوب.



- يان، تعال وانظر.

اقترب الفتى وجلس القرفصاء بجواره. أظهر سيث أصابعه المبلَّلة بتلك المادَّة اللَّزجة على مرأى رفيقه. تلمَّسها يان بطرف سبَّابته، وبعد أن تحقَّق من كثافتها إذ فرك سبابته بإبهامه، تشمَّمها.

هذه دماء. - شخَّص الطَّبيب الطموح.

تجهَّم سيث فجأة ومسح أصابعه ببنطلونه نافد الصبر .

- إيزوبيل؟ - سأله مبتعدًا عن البركة ومقاوِمًا الغثيان الذي تصاعدَ من فم معدته.

- لا أدري. - أجابه يان مشتَّت الذهن - هذه دماء طازجة، أو هكذا تبدو على الأقل.

نهض وتفحَّص أطراف البقعة القائمة والمتَّسعة. - لا يوجد أثر حولها. ولا بصمات. - غمغم.

نظر إليه سيث دون أن يفهم معنى هذه الإثباتات .

- أيّ ّا كان الذي نزف كل هذه الكميَّة من الدماء، لن يكون قادرًا على الابتعاد كثيرًا دون أن يخلِّف أثرًا وراءه. - فسّر يان

- حتى لو كان هناك من نقله بعيدًا جدًّا. هذا غير معقول. قيَّم سيث نظريَّة صديقه ولفَّ حول بركة الدم، ليؤكِّد ملاحظته بألّا وجود لأيٍّ أثرٍ في نطاقها.



تبادل الصديقان نظرة اندهاش. ثمَّ طغى على وجه يان ظلٌّ من الارتياب، وسرعان ما تلقَّف سيث ما جال في ذهن صديقه. فرفع الاثنان رأسيهما ببطء ونظرَا نحو القُبَّة التي تعلو في الظُّلمات.

لمح يان وسيث ظلالاً تسود الصَّالة الرَّحبة وتوقَّفت أنظارُهما على هيكل نجفة كبيرة من كريستال تتدلَّى من الأعلى. ثمَّة حبل أبيض عند أحد أطرافها يعلّق جسدًا ملفوفًا في رداء لامع يتمايل في الفراغ. ابتلع الاثنان ريقهما.

- أهو ميّت؟ - سأل سيث على استحياء .

أبقى يان نظراته مركزة على تلك اللُّقيا المشؤومة ورفع كتفيه.

- ألا يجدر بنا إبلاغ الآخرين؟ - سأله سيث متوتِّرًا .

- حالما نكتشف من يكون. - ردَّ يان - إن كانت هذه الدماء دماءه، ويبدو أنَّ كل شيء يثبت هذا، فعلى الأرجح أنَّه ما يزال حيًّا. وعلينا أن ننزله من هناك.

وارب سيث عينيه. حين عبَر الجسر، تخيَّل حدوث شيء من هذا القبيل، غير أنَّ التحقُّق من صحّة نبوءته عزَّز الغثيان الذي كاد يخنق حلقه. تنفَّس بعمق وقرَّر ألَّا يفكرَ في الأمر كثيرًا.

- موافق. - قال مستسلمًا - كيف... ؟

عاين يان المنطقة العليا من الصالة فرأى منصَّة معدنيّة يرتفع محيطها قرابة خمسة عشر مترًا، حيث يوجد ممشى ضيّق يؤدي



إلى نجفة الكريستال، أضيق من ممر، وربما كان الهدف منه تأمين صيانة المبنى ونظافته.

- سنصعد إلى ذلك الممر لنصلَ إليه.

- على أحدنا أنْ يبقَى هنا لكي يتلقَّاه. - اقترحَ سيث - وأعتقدُ أنَّه من الأفضل أن تبقَى أنت .

رمق يان رفيقه بإمعان. - هل أنتَ واثق من أنَّك تريد الصعود بمفردك؟

- أتوق إلى هذا... - ردَّ سيث - انتظرني هنا. ولا تتحرَّك .

أومأ يان ورأى صديقه يتَّجه نحو السلَّم الصاعد إلى الطابق الأعلى في محطّة جيتر. وما إن ابتلعته العتمة، واختفى صوت خطواته على السُّلم، دقَّق يان في الظلام المحيط به.

كانت النَّسَائم التي تهب من الأنفاق تهمس في أذنيه وتدفع فتات الركام على الأرض. رفع يان نظره ثانية وحاول أن يتعرَّف على الشخص المتدلِّي من الأعلى، ولم يستطع لم يكن يجرؤ على تصوُّر أنَّه جسد إيزوبيل أو سراج أو شير.

وفجأة لمح انعكاسًا خاطفًا يضيء سطح بركة الدم عند قدميه، لكنّه عندما أخفض ناظرَيه لم يجد شيئًا.





جرَّ جافاهال شير في ممر مخيف داخل القطار المتوقِّف في النفق، حتَّى وصل بها إلى المقطورة الأولى، التي تليها قاطرة المحرِّك مباشرة. كان ضوء كثيف ذو انعكاس برتقاليّ يتسرَّب من الشُّقوق أسفل النوافذ، وثمَّة مرجل يزأر بقوَّة في الدَّاخل. أحسَّت شير بالحرارة تتصاعد حولها بوضوح، فتفتّحت مسامها كلِّيًا عند ملامسة الهواء المتأجِّج والحارق .

- ما الذي هناك في الداخل؟ - سألت شير جزعة.

. شدَّ جافاهال أصابعَه الشبيهة بالأصفاد على ذراع الفتاة وجذبها إليه بعنف .

- آلة النار. - أجاب وهو يفتح الباب ويدفعها إلى الداخل - هذه داري وسجني. لكن الأمور ستتغير قريبًا جدًّا، بفضلكِ يا شير. فها نحن سنتَّحد من جديد، بعد مضيّ أعوامٍ طويلة. أليس هذا ما رغبتِ فيه على الدوام؟

حمت شير وجهها من نفثة الحرارة التي لا تُحتِمل، إذ انقضَّت عليها فجأة، ونظرَتْ من بين أصابعها إلى داخل المقطورة .

هنالك آلة عملاقة مكوَّنة من مراجل حديديَّة ضخمة، موصولة بمقطرة كبيرة مزوَّدة بأنابيب وصمامات، تهدر أمام عينيها وتهدّد بالانفجار. وكانت وصلات تلك الأداة المخيفة تصدر نفثات غاضبة من بخار وغاز، تتَّسم بلون نحاسيّ يكسو جوانب المقطورة. رأت شير لوحًا معدنيًّا يسند جملة من مفاتيح الضغط ومقاييس الضغط، وتعرَّفت على شكلٍ منحوت في الحديد يمثِّلُ



نسرًا يحلِّق شامخًا من بين النيران. وتحت شعار الطائر كلمات منقوشة بأبجديَّة لم تكن شير تعرفها .

- طائر النار. - قال جافاهال بجوارها - أناي الأعلى.

- هذه الآلة من صنع والدي. - غمغمتْ شير - لا يحقُّ لحضرتك استعمالها. أنت مجرد لص وقاتل.

نظر إليها جافاهال حائرًا ومرَّر لسانه على شفتيه.

- أيُّ عالمٍ هذا الذي بنيناه، إن كان ما عاد حتَّى بوسع الجَّهَلة أن يصبحوا سعداء؟ - قال لها - استيقظي يا شير.

التفتتِ الفتاةُ لتنظرَ إليه باحتقار.

- أنت من قتله... - قالت موجهة نحوه نظرةً ملؤها كراهية.

زمَّ جافاهال شفتَيه بتكشيرةٍ صامتة وبشعة. ففطنتْ شير بعد قليل إلى أنَّه .يبتسم. دفَعَهَا جافاهال برفقٍ إلى جدار المقطورة السَّاخن و وجَّه إليها إصبعًا آمِرًا.

- ابقي هناك ولا تتحرَّكي.

رأته شير يقترب من آلة طائر النَّار النابضة، ويسند كفَّيه على معدن المراجل الملتهِب. التحمتْ يداه باللَّوح فأحسَّت الفتاة برائحة الجلد المحروق والصوت المُرِيب الصادر عنه. فتح جافاهال شفتَيه ببطء فدخلتْ غيومُ البخارِ الحائمِ في المكان إلى



أحشائه. ثمَّ التفتَ وابتسَمَ على مرأى الفتاة المصعُوقة والمذعورة.

- هل تخافين اللَّعب بالنار؟ سنلعب لعبة أخرى إذاً. يعزّ علينا إحباط رفاقكِ.

ودون أن ينتظر إجابة، ابتعد جافاهال عن المراجل واتَّجه نحو الطرف الآخر، حيث أمسَكَ سلَّة من قشٍّ واقترب بها إلى شير محافظًا على ابتسامته المقلِقة.

- هل تعلمين أيُّ الحيوانات أكثر شبهًا بالإنسان؟ - سألها بلُطف.

نفت شير برأسها.

- أرى أن التَّعليم التي لقَّنَتكِ إيَّاه جدَّتُكِ أقلّ من المتوقَّع. لا يمكن ملء فراغ الأب...

فتح السلّة وأدخل يدًت فيها، فيما كانت عيناه تبثَّان لمعةً خبيثة. أخرج يده فإذا به يمسك جسمًا مُلتويًا ولامعًا. ثعبان.

- هذا هو أكثر الحيوانات شبهًا بالإنسان. يزحف ويغير جلده عند اللُّزوم. يسرق ويأكل صغار الأنواع الأخرى وهي ما تزال في أوكارها، لكنَّه يعجز عن مواجهتها في قتال متكافِئ. اختصاصه هو انتهاز أقلِّ فرصة لتنفيذ لدغتِه الفتَّاكة. سمُّه يكفي للدغةٍ واحدة، ويحتاج إلى ساعات ليتجدَّد، لكن من تعرَّض للدْغة أدين بموتٍ بطيء ومحتوم. وبينما يتغلْغل السّم في شرايين الضَّحية، تتقلَّص نبضاتِ



قلبها تدريجيًّا حتَّى يتوقف. وإنَّ هذا الحيوان أيضًا، في خسّته، يمتلك ذائقة بالشِّعر، مثل الإنسان. مع أنَّه بخلاف الإنسان لا يلدغ أيًّا من أبناء نوعه. نقيصة، أليس كذلك؟ ربما لهذا السبب استخدم للتسلية في عروض الشوارع من قِبَلِ الدراويش والفضوليين. الثعبان لا يصل إلى مستوى مليك الخلق.

اقترب جافاهال بالزاحف إلى شير فالتصقتْ الفتاة بالجدار. ابتسم مستمتعًا بنظرة الرعب التي لمحها في عينيها.

- نخاف دومًا ممَّن يشبهنا. ولكن لا تقلقي. - طمأَنها - فهذا ليسَ لكِ.

ثم أخذَ عُلْبةً خشبيَّة صغيرة حمراء وأدخل فيها الثعبان. زفرت شير وهدَأت حالمًا خرج الزاحف من مجال رؤيتها .

- ما الذي ستفعله بهذه الأفعى؟

- كما سبق وقلت، تلزمني للعبة بسيطة. - شرح جافاهال - فهذه اللَّيلة لدينا مدعوُّون وعلينا أن نسلِّيهم قدر المستطاع.

- ومن هم؟ - سألته الفتاة، مؤمِّلَة بألَّا يؤكِّد جافاهال أسوأ مخاوفها.

- سؤالٌ تافه عزيزتي شير. احفظي تساؤلاتك للمسائل الحقيقيَّة. تساءلي، على سبيل المثال، عمَّا إذا كان لأصدقائنا أن يرَوا نور صباح الغد. أو مثلاً كم ستستغرق صديقنا الثعبان لتقديم قبلته



لقلبٍ فتيٍّ وسليم، مفعمٍ بصحَّة أعوامهِ الستة عشر. إنّ البلاغة تعلُّمنا أنَّ هذه الأسئلة المهمَّة والجوهريَّه. وإن كنتِ لا تجيدين التعبير عن نفسكِ فأنتِ لا تفكِّرين بشكلٍ جيد. وإن كنتِ لا تفكِّرين بشكلٍ جيِّد فقد قُضِيَ عليكِ.

- هذه كلماتُ أبي. - اتّهمته الفتاة - هو الذي كتبها.

- أرى أنَّ كلينا نقرأ الكتب نفسها. - ردَّ جافاهال - ما أجملها من بداية لصداقةٍ أبديَّة، عزيزتي شير!

أصغت شير إلى خطابه القصير دون أن تشيح ببصرها عن العلبة الخشبيَّة الصغيرة الحمراء التي تحتوي على الثعبان.

- حسنًا. - اختتم كلامه - والآن اعذريني إن تغيَّبْتُ بضع دقائق، عليَّ أن أنجز تحضيرات استقبال ضيوفنا. فاصبري وانتظري. فالأمر يستحقُّ العناء.

وسرعان ما أمسك بها ثانيةً واقتادها إلى حجرةٍ صغيرة عبرَ باب ضيِّق محفور في جدار النفق، كانت في الماضي تُسْتَخدم لتعليق مفاتيح أمان المحولات. دفعها إلى الداخل ووضع العلبة الحمراء عند قدمَؤها. نظرَتْ إليه شير بتعبيرٍ متوسّل، لكنّ جافاهال صفَقَ الباب في وجهها وتركها في ظلامٍ دامس.

- أخرجنِي من هنا، أرجوكَ - ناشدَته الفتاة -

. - سأخرجكِ في أسرع وقتٍ يا شير. - همس صوت جافاهال من الجانب الآخر للباب - ولن يكونَ في وسع أحدٍ أن يفرِّقَ بعدُ بيننا حينذاك .

- ما الَّذي ستفعله بي؟

- سوف أحيا فيكِ. في عقلكِ، في روحكِ، في جسمكِ. أجاب جافاهال - قبل أن يطلع النهار، ستكون شفتاكِ شفتي، وسترى عيناكِ ما أراه. في الغد ستصبحين مخلَّدة يا شير.

ماذا يودُّ المرء أكثر من ذلك!

بكتِ الفتاة في الظلمة.

- لماذا تفعل بي كلَّ هذا؟ - ترجَّتْه.

التزم جافاهال الصمت عدَّة لحظات.

- لأني أحبُّكِ يا شير... - أجاب - ولا بدَّ أنَّك تعرفين أنَّنا نقتل دومًا من في حبِّه نهيم.

بعد انتظارِ طويل، ظهر سيث عند قمّة المنصّة الممتدة على المنطقة العليا للصالة بأكملها. تنفس يان الصعداء.

- أين اختفيت؟ - صاح.

ارتدّ صوته لينسج حوارًا غريبًا مع صداه. كانت آماله الضئيلة بالتواري خلال مدَّة التفتيش تتبدَّ بسرعة هائلة.



- ليس من السهل الوصول إلى هنا. -صاح سيث - هذا المكان أسوأ وكر للأروقة والممرات المتشابكة والمظلمة التي أعرفها، باستثناء أهرامات مصر. ممتنّ أنني لم أتُه .

هزَّ يان رأسه وأشار إلى صديقه بالتوجُّه نحو الممرِّ الواصل إلى قلب نجفة الكريستال. قطع سيث المنصّة وتوقَّف عند بداية الممشَى.

- ما بك؟ - سأله يان وهو ينظر إلى رفيقه على ارتفاع عشرة أمتار عنه.

نفى سيث برأسه وتابع السير على الممشى الضيق حتى توقف مجدَّدًا على بعد مترين من الجسد المعلّق بالحبل. اقترب ببطء إلى الحافة وانحنى لمعاينته. رأى يان وجه صديقه يتجهَّم .

- سيث، ما الذي يحدث يا سيث؟

مضتِ الثواني الخمس التَّالية بسرعة جنونيَّة، ولم يكن في حيلة يان إلَّا مشاهدة ذلك الحدث الرَّهيب الذي وقع أمام عينيه ليسجِّلَ كلَّ تفاصيله دون أن يسعفه الوقت للتصرُّف حياله.

جثم سيث على ركبتَيه ليفكَّ الحبل الذي يتدلَّى منه الجسد، ولكنَّه ما لبث أن أمسك بالحبل الغليظ حتى التفَّ على ساقَيه كالأفعى، وهوى الجسد الخامل في الفراغ. رأى يان الحبل يكبل صديقه ويرفعه نحو ظلمات القبَّة، كأنَّه دمية عرائس لا حول لها أو قوَّة. قيَّد سيث من ساقه، وراح يتخبَّط عبثًا ويصرخ مستغيثًا،



في حين كان يرتفع عموديًّا بسرعة مذهلة وبتواري عن الأنظار. وفي الأثناء، هوى الجسد الهابط على بركة الدم. لاحظ يان في محيطه بقايا هيكل عظميّ تفتَّتت عظامه بالارتطام بالأرض؛ وتغطَّى الهيكل بوشاح داكن وامتصَّه. فاستعاد يان قواه حينذاك واقترب. وعندما تفحَّص الوشاح، تذكَّر أنَّه رآه في مناسباتٍ عديدةٍ في ميتم سانت باتريك خلال ليالي الأرق التي كان يعيشها، على منكبي تلك السيدة المحاطة بهالة النُّور التي كانت تزور صديقه بِنْ في منامه. رفع نظره ثانية بحثًا عمَّا يشير إلى صديقه سيث، لكنّ الظلمات الكثيفة ابتلعته ولم يبق له من أثر سوى صدى صرخاته المنازعة التي تجوب أرجاء تلك القبة الكاتدرائيَّة.

- هل سمعت؟ - سأل روشان وهو يتوقَّف ليصغي إلى صرخات بدَتْ آتية من أعماق المبنى الهائل الحجم. أومأ مايكل. تبدّد صدى الصَّرخات وسرعان ما طغتْ عليهما تكتكة متقطِّعة صادرة عن قطرات المطَر النَّاعم المتَسَاقط على الجزء العلويّ من القبَّة التي كانا تُظلِّهما. كانا قد صعدا إلى الطابق الأخير، واكتشفا هناك إطلالة خارقة للمحطة من الأعلى. بدت الأرصفة والسكك بعيدة، بينما كان بنيان الأقواس والمستويات الدقيق واضحًا بشكل مهيب .

توقَّف مايكل عند حافة سياج معدنيّ فوق الساعة الضخمة التي مرُّوا من تحتها عند دخولهم المحطّة. أتاح له حدسُه التصويريّ أن يعي التأثير البصريّ المنوّم الناجم عن استمراريّة مئات الدعائم المقوّسة بانطلاقها من مركز القُبّة الهندسيّ لتتوه في منعرج غير



محدود ولا يطأ الأرض أبدًا. فمن تلك النقطة المتميّزة يتملك المتفرّج انطباعًا بأنَّ المحطة تصعد إلى السماء، بما يشبه برج بابل الغامض الأغوار، لتلج السحاب وتتلوَّى فيها كالأعمدة البيزنطيَّة. دنا روشان من صديقه وألقى نظرةً خاطفة على تلك الرؤية الصاعقة التي كادَت تسحره .

- هيَّا فلنتقدم، وإلا أصابتك الدوخة .

رفع مايكل يده معترضًا. - كلّا. تمهَّل! تعال إلى هنا .

أطلَّ روشان على حافة السياج متعجِّلاً.

- إن نظرتُ مرة أخرى سقطتُ لا محالة.

افترَّت ابتسامة ملغزة من شفتي مايكل. حدَّق روشان إلى رفيقه، متسائلاً عما اكتشفته عيناه .

- ألم تنتبه يا روشان؟ - سأله مايكل.

نفى الصديق برأسه.

- اشرح لي أنتَ.

- هذه البنية. - أشار مايكل - ستدرك الأمر إذا تمعَّنت في الإطلالة من هذه النقطة من القبَّة.

حاول روشان اتِّباع توجيهات مايكل، لكنَّه لم يستوعب موضوع ملاحظاته.



- قل لي بماذا تفكّر!

- في منتهى البساطة. هذه المحطة، مبنى محطّة جيتر بأكمله ليس سوى كرة هائلة لا نرى منها سوى الجزء الظاهر على السطح. برج الساعة موجود تمامًا في مركز القبّة العمودي، كدليلِ على الشعاع .

استوعب روشان كلام مايكل متحفِّظًا. -

حسنًا. إنّها كرةٌ لعينة. - أَقرَّ - ما بها؟

- هل تدرك الصعوبة التقنيّة اللّازمة لتشييد بناء كهذا؟. سأله مايكل.

هزَّ الرفيق رأسه من جديد .

- أتخيَّل أنها صعوبةٌ كبيرة. - قال.

- مطلقة. - أطلق مايكل حكمه لينفض الغبار عن الصفة التي لا يستخدمها إلّا في الحالات القصوى

- ما السبب الذي يجعل شخصًا يخطِّط لبناءٍ كهذا؟

- لستُ واثقًا من رغبتي في معرفة الإجابة. - ردَّ روشان - دعنا ننزل إلى المستوى الأسفل. لا يوجد شيء هنا .

أومأ مايكل وقد بان عليه التَّعب، ولحق برفيقه نحو السلّم .



كان الطابق الأوسط الذي يمتد تحت منصّة المراقبة التابعة للقبّة لا يعلو عن متر ونصف، وكان فائضًا بالمياه المتسرِّبة بسبب الأمطار التي بدأت بالهطول على كلكتا منذ بداية مايو. وكانتْ الأرضيَّة الغارقة بأكثر من شبر من ماء متعفّن وراكد تفوح برائحة كريهة تثير الغثيان، ومكسوَّة بطبقة من الطين والفتات المتفسِّخ بفعل التَّرسيب الحاصل على مدى عقود.

انحنى روشان ومايكل لدخول ذلك المستوى الفرعيّ الضيق، وتقدّما بمشقَّة في الطين الذي غاصت فيه كواحلهما.

- هذا المكان أسوأ من السراديب. - علَّق روشان - لماذا سقفه منخفض إلى هذه الدرجة اللَّعينة؟ فالبشر باتوا منذ قرون أطول قامة من متر ونصف .

- من الوارد أنَّها منطقة محظورة. - أجاب مايكل - ربَّما تحتوي على جزء من منظومة الأثقال التي من شأنها إسناد القبّة. حذار أن تتعثَّر، فقد ينهار المبنى كليًّا .

- هل هذه دعابة؟

- أجل. - ردَّ مايكل بجفاء.

- هذه ثالث دعابة أسمعها منك على مدى ست سنوات - لاحظ روشان - وهي الأسوأ.



لم يعبأ مايكل بالرد وتابع تقدُّمه ببطء في ذلك الرغام العجيب ذي المنسوب المرتفع. صارت رائحة الماء الفاسدة تعذِّبه حتى أخذ يفكِّر في إمكانيّة الرجوع إلى الخلف للنزول إلى طابق أسفل، طالما أنّه ليس من المنطقيّ أن يختبئ أحد أو شيء في تلك المنطقة الطينيَّة المنِيعة.

- مايكل؟ - ناداه روشان من خلفه ببضعة أمتار.

التفت الفتى ولمح طيف رفيقه المنحني بجانب عارضةٍ حديديَّةٍ مائلة .

- مايكل.

- قال روشان بصوتٍ حائر - هل من المعقول أنَّ هذه العارضة تتحرَّك أم إنَّني أتخيَّل؟

فكَّر مايكل أنّ صديقه أيضًا تشبَّع كثيرًا بتلك الأبخرة النتنة. وكان يتهيَّأ للخروج من ذلك الطابق نهائيًّا، فإذا به يسمع دويًا قويًّا من الطرف الآخر. التفت كلاهما معًا وأمعنا النظر. تكرَّر الدوي، مصحوبًا هذه المرَّة بحركة، رأى الفتيان شيئًا قادمًا نحوها بسرعة كبيرة، غارقًا في الطين ومحدِثًا موجة من مياه وسخة وقاذورات تتطاير على السقف المنخفض. فسارعا إلى الركض نحو المخرج، بكل ما أوتيا من عجالة، منحنيين على طبقة من ماءٍ وطين مرتفعة ثلاثين سنتمترًا.



وقبل أن يتمكَّنا من الابتعاد بضعة أمتار، تجاوزهما الشيء بأقصى سرعة، ثم انعطف واتَّجه نحوهما مباشرة. تفرَّق روشان ومايكل وركضا باتجاهين متعاكسين، في محاولة لتشتيت انتباه ذلك الشيء الذي يطاردهما بلا هوادة. انقسم المخلوق المتواري تحت الطين على نفسه، وانطلق كلٌّ جزء منه في مطاردة هوجاء.

التفت مايكل اللَّاهث ومنقطع الأنفاس نصف ثانيةٍ ليتحقّق ممَّا إذا كان يلاحقه فتعثَّر في عتبة مغمورة بالوحل. وسقط على السطح الطيني وابتلعته المياه الآسنة. وعندما قام وفتح عينيه اللَّتين تعرَّضتا لحرقة رهيبة، كان عمود من الطين ينتصب قبالته، كشلَّالٍ من الشوكولاتة السَّاخنة المصبوبة من جرَّةٍ خفية. جرجر مايكل نفسه في الرُّغام وانزلقتْ يداه من جديد، لتبقياه ممدَّدًا في بحيرة الطين.

بسط الشّكل الطينيّ ذراعين انبثقت من طرفيهما أصابعٌ طويلة ومعوجَّة إلى أن شكّلت خطَّافين حديديّين كبيرين. شهد مايكل الهلع على تكوُّن هذا المسخ المربع ورأى أنَّ رأسًا ينبت من جذعه، ليرتسمَ على الوجه فكٌّ تبرز منه أنيابٌ حادَّة كسكاكين الصيد. ترسّخ المسخ باللحظة ذاتها وتصاعدت من ذلك الفخار اليابس ستارة من بخار. وثب مايكل وسمع قعقعة البنيةِ الطينيَّة، ومئات التشقُّقات. تمدَّظت الصدوع تدريجيّا فأُضِيئت عينَا جافاهال الناريَّتَين على ذلك الوجه. تشظَّى الفخار اليابس إلى ألفِ قطعةٍ كأنَّها فسيفساء. وأمسك جافاهال بمايكل من عُنقِه وقرَّبه إليه.

- هل أنتَ الذي يرسم اللَّوحات؟ سأله وهو يرفعه في الهواء .



أومأ مايكل.

- جيّد. - قال جافاهال - أنت محظوظ يا ولد. لأنَّك اليوم سترى أشياء ستنشغل ريشتُك في رسمها حتى آخر يوم من عمرك. هذا إن استطعتَ طبعًا أن تبقى على قيد الحياة لترسمهَا.

ركضَ روشان في الأثناء نحو الباب وكان فيض الأدرينالين في عروقه مثل دفقات وقود مشتعل. قفز على بعد مترين عن المخرج فسقط على وجهه على السطح الجاف والخالي من الطّين. نهضَ بدافعِ الرَّكض حتَّى يذوب قلبه كالزبدة. إذ لم يندثر بعد حدسه الذي اكتسبه في الأعوام السابقة على دخوله المَيتم، عندما كان لصًّا في شوارع أدغال كلكتا .

لكنَّ شيئًا ما استوقفه. كان قد فقد أثر مايكل عندما تفرَّقا في الطابق الأوسط، ولم يعد آنذاك يسمع صرخات صديقه الذي ركض يائِسًا لإنقاذ حياته. تجاهل روشان نصائح الحسّ السليم واقترب مرَّة أخرى من مدخل الممر. لا أثر لمايكل وللمسخ الذي كان يطاردهما. شعر روشان بشيء شبيه بطعنة الخنجر الفولاذيّ في معدته حين أدرك أنّ مطارده انقضَّ على صديقه، وأنَّه لولا ذلك ما خرج سالِمًا غانمًا. أطلَّ برأسه إلى الدَّاخل وحاول العثور عليه.
- مايكل! - صرخ بشدَّة. فلم يحصل نداؤه على جواب. زفَر روشان مُحبطًا وتساءل عن خطوته التالية: هل يذهب ليبحث عن الآخرين ويترك مايكل أم يدخل للبحث عنه؟ لم يبد. أي من الخيارين مبشِّرًا بنتيجة عظيمة، لكنَّ أحدًا غيره كان قد اتَّخذ القرار نيابةً عنه. ظهرت ذراعان طينيَّتان طويلتان من الباب على مستوى



الأرضيَّة، كصاروخين موجَّهين إلى قدميه. أحكمت الذراعان قبضتهما على كاحليه.

حاول روشان أن يتخلَّص منهما لكن الذِّراعين هوتاه بعنف فانقلب على الأرض لتسحباه إلى الطابق الأوسط ثانيةً، مثلما يفعل الطفل بلعبة محطَّمة.

لم يأتِ أحد سوى يان إلى الموعد من بين الفتية الخمسة الذين تواعدوا تحت الساعة بعد ثلاثين دقيقة. لم تبدُ له المحطة خاوية كما بدت في تلك اللحظة. وكان القلق جرَّاء عدم معرفته بمصير سيث وأصدقائه تخنقه ولا تبالي. فتصوَّر وهو بمفرده في ذلك المكان المريب، أنَّه الناجي الوحيد من بين براثن المضيف المخيف. نظر متوتِّرًا في كلِّ الاتجاهات، متسائِلاً عمَّا ينبغي فعله: هل يبقى هناك بالانتظار أم يتحرك للبحث عن نجدة في قلب الليل؟ بدأ المطر الناعم المتسرِّب من السقف بتشكيل شلالات تسقط. من مرتفعات غامضة العلوّ. توجَّب عليه استدعاء صفاءَ ذهنه كليًّا لئلَّا يشبه تلك القطرات الهاطلة على السكك بدماء صديقه سيث الَّذِي كان يتمايل معلَّقًا في الظلمات .

رفع ناظرَيه مرارًا مؤمِّلاً بلا جدوى بالعثور على دليل يساعده اكتشاف مكان سيث. وكانتْ عقاربُ الساعة تبدي ابتسامتها المترهِّلة، وقطراتُ المطر تتساقط عليها، لتشكِّل جداولَ لامعة بين الأرقام البارزة. تنهَّد يان. بدأت أعصابُه تخونه، فتصوَّر أنَّه في حال لم يحصل على إشارة واضحة على حضور أصدقائه، كان سيغامر في ولوج تلك الشبكة الدهليزيَّة، لتقفِّي أثَرَ بِنْ. لم تخطر



في باله فكرة ذكيَّة، إلَّا أنَّ أوراق الخطط البديلة التي في حوزته كانت تخلو من أيِّ ورقةٍ رابحة.

فإذا هو يسمعُ خشخشةً تقترب من عمق أحد الأنفاق، فتنفَّس الصعداء لأنَّه لم يكن بمفرده .

بلغ نهاية الرصيفِ وتمعَّن بالشكل المحيِّر الذي كان يتبلوَر تحت قوس النفق. اقشعرَّت رقبته على رؤية عربة تقترب ببطء، تتحرَّك على رسلها. وعلى سطحها كرسيٌّ يجلس عليه شخصٌ هامد ملثَّم بقلنسوة سوداء. مضغ يان ريقه. انسابت العربةُ أمامه حتى توقفت نهائيًّا. ظل يان متسمِّرًا في مكانه، يمعن النظر في ذلك الشخص المشلول، وفوجئ بصوته المرتعش الذي صدر ليعبر عن ارتيابٍ رابضٍ على قلبه.

- سيث؟ - قال بنبرةٍ مرتجفة.

لم يُبدِ الشخص أيُّ نأمة

. اقتربَ يان من العربة وقفزَ عليها .

لا يبدو على من يشغلها أنَّه حي. مشى يان ببطء الموتى تلك المسافة التي تفصله عنها وتوقَّف على بعد سنتمترات عن الكرسيّ.

- سيث؟ - غمغَمَ من جديد.

صدر صوتٌ غريبٌ من تحت القلنسوة، أشبه باصطكاك الأسنان. شعر يان أنَّ معدته تنقَبض حتى تصير بحجم كُرَة الكريكت. تكرَّر



الصوت المخنوق. فأمسك يان القلنسوة بكلتا يدَيه وعدَّ إلى الثلاثة. ثمَّ أغمض عينَيه ونزعها. وعندما فتح عينيه، رأى وجهًا باسِمًا ومسرحيًّا يراقبه بعينين زائغتين. سقطتْ القلنسوة من يدَيه. كان بصدد دمية بيضاء الوجه كالخزف، وفي مكان الحدقتين معينان أسودان مرسومان، تسيل زاويتاهما السفليَّتان على الخدَّين كدمعةٍ من قطران .

كزَّت الدمية على أسنانها تلقائيًّا. فعاين يان وجهها الذي يوحي بأنّه لبائع متجوِّل، وأراد أن يعرف ما الذي تخفيه وراء تلك الحيلة الخارجة عن المألوف. مدَّ يده بحذرٍ نحو الوجه وحاول أن يتفحَّصه بحثًا عن الآليَّة الَّتي تشغله.

وإذ، تُسقِط الدمية ذراعها اليمنى بسرعة الهرر على ذراع يان. فانتبه الأخير أنَّ معصمه الأيسر مكبَّل بقيدين، واحدٌ في يده والآخر مثبَّت بذراع الدمية. سحب الفتى يدَه بقوَّة، لكنّ الدمية كانتْ مربوطة بالعربة بشدّة. كزَّت على أسنانها فيما حاول يان التخلُّص من قيده بلا جدوى. وعندما أدرك أنَّه لن يستطيع بمفرده، باشرت العربة حركتها، لكنَّها في هذه المرة كانت تعود على أعقابها نحو فم النفق المظلم.

***

توقَّف بِنْ عند تقاطُعٍ بين نفَقين، وظنَّ لوهلةٍ أنَّه مرَّ من المكان نفسه مرتين. فمنذ دخل أنفاق محطّة جيتر، غدا ذلك الإحساس متكرِّرًا ومُقلقًا. أخرج واحدًا من أعواد الثقاب التي وفَّرها بتقشُّفٍ



شديد وحكَّ طرفه على الحائط برفق فأشعله. خفَّت الظلمة الواهنة من حوله بضوء الشعلة الدافئ. عاين بِنْ اتَّحاد الأنفاق التي تسلكها السكك وفتحات التهوية التي تخترقها عموديًّا.

أطفأت هبَّةُ هواءٍ مغبرٍّ الشعلةَ فعاد بِنْ إلى عالم العتمة الذي يشي له بعدم الوصول إلى أيِّ غاية سواء أكان قد اتَّخذ هذه الوجهة أم تلك. خامره شكٌّ بالضياع، وراوده انطباع بأنَّه سيستغرق ساعاتٍ وربما أيّامًا للخروج من تلك المتاهة الجوفيّة المعقَّدَة التي ما انفكَّ يتوغَّل في أعماقها. ونصحه الحسُّ السليم بالرجوع إلى الخلف والتوجُّه إلى المنطقة الأساسيَّة. وعلى الرغم من محاولاته الجهيدة في تصوُّر أبعاد متاهة الأنفاق ومنظومة التّهوية المحيِّرة ونقاط التواصل بين الأروقة المتجاورة، ما انفكّ يشكُّ في أنَّ ذلك المكان كان يتحرَّك من حوله. فما ساقه البحث عن مساراتٍ جديدة تحت الظَّلام إلّا إلى نقطة البدء .

قرَّر التغلُّب على التشويش النَّاجم من تلك الشبكة الفوضويَّة، فعاد أدراجه وسارع الخطى، متسائِلاً ما إذا حان وقت التلاقي تحت ساعة المحطَّة. وبينما كان يجوب الممرَّات التي لا تُحصَى، تخيّل وجود قانون فيزيائيّ غريب ينقضي الوقت بموجبه بشكل أسرع في غياب الضوء. فكَّر بِنْ أنَّه قطع أميالاً طويلة تحت الظلام عندما لمح الضياء الشفيف الآتي من الردهة الكبيرة المفتوحة تحت القبَّة الكبرى من عمق النفق.

تنفس الصعداء وركض باتجاه الضوء موقنًت بأنَّه يتخلَّصُ من كابوسِ المتاهة بعد طواف لا ينتهي. لكنَّه عندما اجتاز مدخل



النفق وسلك القناة الضيِّقة الممتدَّة بين رصيفين محاذيَين، تبيَّن أنَّ جرعة تفاؤلِه كانتْ عابرة وسرعان ما خيَّم عليه ظلٌّ قلقٍ جديد.

✵✵✵

بدتِ المحطَّة مقفرة ولا أثر فيها لأيٍّ من أعضاء نادي شوبار. وثب إلى الرصيف وسار خمسين مترًا تفصله عن برج الساعة، لا صاحب يرافقه سوى صدى خطواته ودوي العاصفة الكهربائيّة المتوعِّدة. دار حول البرج وتوقَّف تحت الساعة ذات العقارب المعوجَّة. لم يكن في حاجة إلى ساعة ليدركَ أنَّ الوقت المُحدَّد مع رفاقه للتَّلاقي هناك كان قد انقضى منذ مدَّة. استند إلى أحجار البرج المسودَّة وراح يفكِّر أنَّ اقتراحه في الانقسام إلى مجموعات لم يؤتِ أكله. فالفرق الوحيد بين تلك اللَّحظة ولحظة دخوله المحطّة يكمن في أنّه كان حينذاك وحيدًا؛ فقد ما تبقَّى له من رفاق، مثل شير تمامًا .

دوت العاصفة بزئيرٍ غاضب، كما لو أنّها تشقُّ السماء نصفين. قرَّر بِنْ أن يهب للبحث عن أصدقائه. فما همَّه إن استغرق أسبوعًا أو شهرًا لاكتشاف مكانهم؛ آنذاك وقد بات يغامر بأوراق مكشوفة، لم يعد له من نقلة معقولة سوى هذه .

ذهب نحو الرصيف المركزيّ، باتجاه الجناح الأمامي للمحطَّة، حيث كانت هنالك مكاتب وصالات انتظار وبازار صغير ومقاهٍ ومطاعمٍ متفحِّمة لم يكتب لها أن تعيشَ أكثر من دقائق. فلمح عندئذٍ ستارةً لامعة ملقاة على أرضيَّة إحدى الصالات.



أشارتْ عليه ذاكرتُه بأنَّه في المرَّة الأخيرة التي رأى فيها ذلك المكان ، قبل أن يدخل الأنفاق، لم يكن لتلك القماشة المصقولة وجود. سارع بِنْ خطاه، فلم ينتبه في تقدُّمه المتعجِّل أنَّ أحدًا ما كان بانتظاره متسمِّرًا تحت الظلال. جلس القرفصاء أمام الستارة ومدَّ يده نحوها. كانت القماشة مشبعة بسائل فاتر وداكن اللون، يبدو من ملمسه مألوفًا ويحفِّز لديه شعورًا ذهنيًّا بالنفور. وتحت الستارة أخيلة لمَّا بدت لناظريه شظايا مبعثرة لغرض ما. أخرج علبة الثقاب ليضيء عودًا ويتحقَّق، لكنّه رأى أنَّه لم يبق لديه سوى عود واحد. فاضطُّر إلى الاحتفاظ به من أجل مناسبة أفضل، وشحذ بصره محاولاً جمع أكبر عدد من التفاصيل في البحث عن دليل أصدقائه.

- يا لها من تجربة فريدة من نوعها، أن تتأمَّل في دمائك المراقة، أليس كذلك يا بن؟ - قال جافاهال من خلف ظهره - دم والدتك، مثلما هو دمي، لا يجدْ راحة.

شعر بِنْ برعشةٍ تستولي على يديه فالتفت ببطء. كان جافاهال جالسًا على طرف مقعدٍ حديديٍّ، مثل ملك الظلمات المرعب المتربِّع على عرشه القائم بين الدمار والخراب .

- ألا تسألني أين هم أصدقاؤك يا بن؟ - قال جافاهال - لعلَّك تخشى تلقِّي إجابة لا ترضي آمالك .

- هل إن سألتُك أجبتني؟ - ردّ الفتى، واقفًا بلا حراك بجانب الستارة النازفة.



- ربَّما. - ابتسم جافاهال.

حاول بِنْ ألا يحدِّق في تلك العينين المنوّمتين، وحاول أن يشرد عن وحي عابث يصيح داخل عقله، لإقناعه بأنّ ذلك الطيف المربّع الذي يخاطبه في مشهد مستمد من الجحيم إنَّما كان والده، أو ما تبقَّى من والده.

- أتنهشك الشكوك يا بن؟ - سأله جافاهال الذي بدا مستمتِعًا بتلك المحادثة.

- حضرتك لست بوالدي. فوالدي ما كان ليؤذي شير. - صرخ بِنْ بعصبيَّة.

- ومن قال لك إنَّني أريد إيذاءها؟

قطَّب بِنْ حاجبَيه ورأى يد جافاهال المغلولة في قفاز تطول وتلامس بقعة الدم التي عند قدميه. ثم استرجع أصابعه المشبعة بالدم إلى وجهه ورشّه على ملامحه الحادَّة الزوايا ، وقال:

- ذات مساء، منذ عدّة أعوام، كانت المرأة التي أريقت دماؤها في هذا المكان بالذات، كانت زوجتي وأمًّا لولدَيّ، وكان أحدهما يدعى بن، مثلك تمامًا. من المستغرَب كيف تصير الذكريات كوابيس أحيانًا. ما زلتُ أشعر بفقدانها. هل يفاجئك هذا ؟ من والدك برأيك؟ الرجل الذي يعيش في ذكرياتي أم هذا الطّيف الذي فارق الحياة ويجلس قبالتك؟ ما الذي يجعلك تظن بوجود فرقٍ بين الاثنين؟



- الفرق واضح. - ردَّ بِنْ - كان والدي رجلاً طيِّبًا. أمَّا أنت فلسْت سوى مجرم.

حنى جافاهال رأسه وأومأ ببطء. فأولى بِنْ إليه ظهره .

- وقتُنا يوشك على الانتهاء. - قال جافاهال - حانت اللحظة لملاقاةِ مصائرنا. كل منَّا يلاقي مصيره. فكل منَّا أصبح راشدًا، صحيح؟ هل تعلم ما معنى سن الرُّشد يا بن؟ دع لأبيك أن يشرحه لك. الرشد ليس إلّا شوطًا إذا قطعته اكتشفتَ أنّ كلَّ ما آمنت به في صباك باطل، وأنَّ كل ما رفضْتَ الإيمان به في صباك حقّ.

- لا أعتقد أنَّ فلسفتك تهمُّني. - ردَّ بِنْ بنفور.

- سيتولى الزمن مهمِّة تذكيرك بفلسفتي يا ولدي .

التفت بِنْ وحدق إلى جافاهال بنظرةِ حقد. - ما الذي تريده؟ - هتف .

- أريد أن أوفي بعهد، العهد الذي يبقي ناري حيَّة.

- وما هو؟ - سأله بِنْ - أن ترتكب جريمة؟ أهذه هي مأثرة وداعك؟

وارب جافاهال عينيه نافد الصبر.

- عادةً ما يتعلَّق الفرق بين الجريمة والمأثرة بمنظور المشاهد يا بِنْ. إنَّ العهد الذي قطعته هو العثور على مقام جديد تأوي إليه روحي. وستتبرَّعان لي بذلك. أنتما ابناي .



كزَّ بِنْ أسنانه وأحسّ بدمائه تغلي في صدغيه. - أنتَ لستَ بوالدي. - قال بهدوء - وإن كنت كذلك يومًا فإنَّني أشعر بالعار.

افترَّت من جافاهال ابتسامة أبويَّة.

- ثمَّة شيئان في الحياة لا يسعك اختيارهما يا بِنْ. الأوَّل، أعداؤك. والثاني، هم عائلتك. وأحيانًا يصعب التمييز بين من هم أعدائك وعائلتك، لكن الزمن يعلِّمك أنَّ أوراقك في نهاية المطاف كان لها أن تكون أسوأ بكثير. فالحياة يا ولدي مثل أول مباراة شطرنج: ما تكاد تفهم كيفيِّة تحريك القطع، حتّى تُحسبَ عليك خسارة .

انقضَّ بِنْ على جافاهال فجأة بكل ما أوتي من غضبٍ كامن. وظلَّ جافاهال في مكانه بلا حراك، وعندما اخترق الولد صورته، تبدَّد الطيف في الهواء كأنَّه منحوتة من دخان. وقع بِنْ على الأرض وأحسَّ بأن أحد المسامير الصدئة البارزة من تحت المقعد يحدث خدشًا في جبينه.

- ستتعلَّم الدرس قريبًا. - قال صوت جافاهال من ورائه - قبل أن تهاجمَ عدوَّك، عليكَ أن تعرف طريقة تفكيره .

مسح بِنْ الدم الذي سال على وجهه والتفت بحثًا عن ذلك الصوت تحت الظلام. كان طيف جافاهال جالسًا بوضوح على الطرف الآخر من المقعد. ولوهلةٍ راود الفتى حدسٌ محيِّر بأنَّه من حاول اختراق مرآة وأنه كان ضحيَّة حيلة معقَّدة من هندسة بيزنطيَّة.



- لا شيءَ يبدو على حقيقته. - قال جافاهال - كان عليك أن تدرك الأمر داخل الأنفاق. فعندما صمَّمت هذا المكان، احتفظتُ ببعضِ المفاجآت الَّتي لا يعرف أمرُها أحدٌ سواي. هل تحبُّ الرياضيات يا بن؟ الرياضيات هي ديانةُ مَن لديه عقل، ولهذا السبَب ترى أنَّ أتباعها قِلَّة.

من المؤسف أنَّك لن تخرج لا أنتَ ولا رفاقك السذَّج من هنا، وإلّا كان بإمكانك أن تبوح للدنيا بعضًا من الألغاز الخبيئة في هذا المبنى. كنت ستحصل بالمقابل على سخريةٍ وحسدٍ وازدراءٍ حصل عليها مبتكِر هذا المكان.

- لقد أعماكَ الحقد. وهذا منذ زمنٍ بعيد .

- الأثر الوحيد الذي أحدثه الحقد فيَّ، هو أنَّه فتح عيني. - ردَّ جافاهال - والآن ينبغي لكِ إبقاء عينيك مفتوحتين، لأنًَّك سترى كيف تسنح لك فرصةٌ ذهبيَّةٌ لتنجيتك وتنجية أصدقائك، أنَّك تعتبرني مجرَّد مجرم .

فرصة لم أحظَ بها أنا نفسي على الإطلاق.

نهض طيفُ جافاهال ودَنا من بِنْ. ابتلعَ الفتى ريقه وتهيَّأ للفرار. توقَّف جافاهال على بعد مترين عنه، ضمَّ يديه ووجَّه إليه تحية انحناء طفيفة.

- سررتُ بهذه المحادثة يا بِنْ. - قال بلطف - والآن جهِّز نفسك وتعال وابحثْ عنِّي.



وقبل أن ينطقَ بِنْ بكلمةٍ أو يحرِّك يدًا، تفكَّك طيف جافاهال في دوَّامة ناريَّة، انعكست على قبَّة المحطَّة لترسمَ قوسًا من لهيب. وسرعان ما غطس خطُّ النار في الأنفاق مثل سهم متّقد، مخلِّفًا إكليلًا من شفرات وامضة تتبدَّد في الظلام، لترشدَ الفتى إلى الطريق الواجب اتباعه.

وجَّه بِنْ نظرةً أخيرةً إلى الستارة النازفة وولج من جديد في الأنفاق، واثقًا هذه المرَّة من أن أي طريق سيسلكه كان سيفضي به إلى النقطة ذاتها .

❋❋❋

برزِ طيفُ القطار من الظلمات. لاحظ بِنْ أنَّ قافلة المقطورات ما زالت تحمل ندوب النيران، وظنَّ لوهلة أنَّه أمام جيفة أفعى حديديَّة عملاقة هاربة من مخيلة جافاهال الشيطانيَّة. اكتفى بالاقتراب خطوتين ليتعرَّف على القطار الذي توهَّم أنَّه رآه منذ عدّة ليال يخترق جدران الميتم مطوَّقًا بالنَّار، وينقل أرواح مئات الأطفال الَّذِين يكافحون للفرار من تلك الجحيم الأبديَّة. كان القطار هناك هامدًا وغامضًا، لا يوحي له بأي دليل على أنَّ رفاقه في الداخل .

لكنَّ حدسه اقتاده إلى التفكير بعكس ذلك. مشى ليتركِ قاطرة المحرِّك خلف ظهره، واتجه نحو المقطورات بحذر باحثًا عن أصدقائه.



توقَّف في منتصف الطريق لينظرَ إلى الخلف فرأى أنَّ مقدِّمة القطار تتوارى في الظلّ. وبينما استعدَّ لاستئناف مشيته، انتبه إلى وجه شاحب كجثَّة يراقبه من نافذةِ المقصورة .

التفت بِنْ بقوّة وشعر بأنَّ قلبه يكاد ينفجر. طفلٌ لا يتعدَّى الأعوام السبعة يراقبه بإمعان، وعيناه السوداوان الغائرتان تحدِّقان إليه. مضغ ريقه وتابع خطواته. وارب الطفل شفتيه فبرزت من فمه ألسنةُ لهب أضرمت النار في صورته لتحرِقَها كورقة يابسة. أحسَّ بِنْ ببرد جامد أسفل رقبته لكنَّه تابع المسير، متجاهلاً همهمة الأصوات المخيفة التي تبدو أنّها تتصاعد من مكان ما في قلب القطار.

وفي النهاية، عندما بلغ المقطورة الأخيرة، اقترب من مدخلها ودفع المقبض. فرأى ضوءًا مركَّبًا من مئات الشموع المتَّقدة في الداخل. تقدَّم بِنْ فأُنير كلٌّ من وجوهِ إيزوبيل وبان وسيث ومايكل بالأمل. تنفَّس بِنْ الصعداء.

- والآن ها نحن أُولاء جميعًا. أعتقد أنَّه بوسعنا البدء باللَّعب. - قال صوتٌ مألوفٌ بجانبه .

التفتِ الفتى ببطء، كانت ذراعَا جافاهال تضيِّق الخناق على شقيقته شير. أغلق الباب من ورائه فخلص جافاهال الصغيرة من قبضته.

- هل أنتِ بخير؟ - سألَها بِنْ.



- طبعًا. - تدخَّل جافاهال.

- هل الجميع بخير؟ - سأل بِنْ أعضاءَ نادي شوبار المقيَّدين على أرضيّة المقطورة، متجاهلاً كلمات جافاهال.

- بأفضل حال. - أكَّد يان .

تبادل الاثنان نظرةً أبلغ من ألف خطاب. فهزَّ بِنْ رأسه .

- إنْ أُصيب أحدُهم بخدوش طفيفة، فهذا لأنَّه قليل خبرة. - أوضح جافاهال.

التفت بِنْ نحوه وأبعد شير.

- قل ما الذي تريده بوضوح.

كشر جافاهال متفاجِئًا .

- هل أنتَ متوتِّر يا بن، أم أنَّك مستعجل؟ لقد انتظرتُ هذه اللحظة ستة عشر عامًا، فلا أمانع انتظار بضع دقائق. لاسيما منذ وصَّدت هذه العلاقة الجديدة بيني وبين شير.

كانت فكرة أنَّ جافاهال أفصح عن هويته الحقيقية لشير معلَّقة على رقبة بِنْ مثل سيف دموقليس. ولعلّ جافاهال قرأ أفكاره وتلذّذ بالموقف.

- لا تعبأ بأمره يا بِنْ. - قالت شير - فهذا الرجل قد قتل أبانا. وإنَّ كلَّ ما يقوله أو يطالبنا بتصديقه يساوي قذارةَ هذا المكان .



- كلماتٌ قاسيةٌ بحقِّ صديق. - علَّق جافاهال بطول أناة .

- أُفضِّل الموت على أن أكونَ صديقةً لكَ...

- إنَّ صداقتنا يا شير هي مسألة وقت فقط.

غمغم جافاهال. اختفتْ ابتسامتُه المتوازنة على حين غرَّة. وبإيماءة من يده ارتطمت شير بالطرف الآخر من المقطورة، كأنّها سهم أطلقه قوسٌ خفيّ.

- استريحي الآن. فعمَّا قريب سنكون معًا إلى الأبد..

سقطتْ شير على الأرض مغمى عليها بعد أن ارتطم رأسها بالجدار. هبّ بِنْ نحوها لكنّ قبضة جافاهال الحدِيديَّة اعترضته.

- أمَّا أنت فستبقى في مكانك. - قال. ثم توجَّه بنظرته الجامدة إلى الآخرين وأضاف: - مَن سيفتح فمَه ليدلي برأيه سيجد شفتيه مختومَتين بالنار.

- اتركني. - كان بِنْ يصيح متألِّمًا إذ كادتِ اليد التي تشدُّ على عنقه تخلع فقراته.

تركه جافاهال فسقط الفتى على الأرض.

- انهض وأصغِ إليّ. - أمره جافاهال - فهمتُ على ما يبدو أنَّكم تشكلون ما يشبه الجماعة الأخويّة وأنَّكُم أقسمتم على التعاون والمؤازرة حتى الموت. أهو كذلك؟



- نعم، إنَّه كذلك. - قال سيث من مكانه على الأرض. فإذا به يتلقَّى لكمةً خفيَّةً لتطيحَ به كدميَةٍ من الخرق.

- لم أسألك أنتَ يا ولد. - قال جافاهال - ها يا بن، هل تجيب أم تفضِّل أن نجري فحص الربو لصديقك؟

- دعه وشأنه. أجل، الأمر كذلك حقًّا .

- جيِّد. اسمح لي إذاً بتقديم التهاني لك على إنجازك الرائع باصطِحَاب أصدقائك إلى هنا. ما أعظمها من طريقة لمؤازرتهم .

- قلتَ إنَّك ستعطينا فرصة. - ذكَّره بِنْ.

- أعرف أنَّني قلتها. ماذا تساوي حياة أصدقائك كلٍّ على حدة؟

تجهَّم الفتى.

- لم تفهم السؤال أم تريدني أن أعثر على الإجابة بطريقةٍ أخرى؟

- حياتُهم تساوي حياتي.

ابتسم جافاهال. - أستصعب تصديق ما قلتَه.

- لا يهمُّني ما تصدِّقه وما لا تُصدّقه

- فلنتحقَّق إذًا ممَّا إذا كانت كلماتك الجميلة تتجاوب للواقع يا بِنْ. - قال جافاهال - سأعرض عليك اتفاقًا. أنتم سبعة، ما عدا



شير. ستبقى شير خارج هذه اللُّعبة. لكلِّ واحدٍ منكم علبة مغلَقَة تحتوي على... لغز.

أشار جافاهال إلى صفٍّ من العلب الخشبيَّة المطليَّة بألوانٍ مختلفة، ومرتَّبَة بعضها بجانب بعض مثل صناديق البريد الصغيرة.

- لكلِّ علبة فتحة في الجانب الأمامي تتيح لليد أن تدخلها، ولكن لا يحقُّ للمرء سحب يده قبل مرور عدة ثوان. هي أشبه بفخ للفضوليِّين. تخيَّل أنَّ كلاً من هذه العلب تحتوي على حياة واحد من أصدقائك يا بِنْ. وهي كذلك بالفعل، ففي كلِّ علبةٍ شارة خشبيَّة صغيرة تحمل أسماءكم. بإمكانك أن تدخل يدك وتسحبها. وكلما غلّلت يدك في علبةٍ وسحبت اسمًا، حرّرتُ من أصدقائك. ولكن، بطبيعة الحال، ثمَّةُ مجازفة. واحدة من تلك العُلب تحتوي على الموت، بدلاً من النجاة.

- ماذا تقصد؟ - سأله بِنْ.

- هل رأيت ثعبانًا في حياتك يا بن؟ حيوانٌ متكدِّر المزاج .

أتعرف شيئا عن الأفاعي؟

- أعرف الثَّعابين. - ردّ بِنْ وكانت ركبَتاه ترتجفان .

- سأوفِّر عليك التفاصيل إذًا. عليك أن تعرف أنَّ إحدى تلك العلب تخفي ثعبانًا.



- لا تفعلها يا بِنْ. - قال يَان .

رماه جافاهال بنظرة خبيثة.

- ها أنا أنتظر يا بِنْ. أعتقدُ أنَّ لا أحد في مدينة كلكتا كلّها يعرض عليك اتِّفاقًا أسخى من هذا. سبع حيوات واحتماليّة خطأ واحدة

وكيف لي أن أثق بأنَّك لا تكذب؟ - استفسر بِنْ .

رفع جافاهال سبَّابته وهزَّ رأسه قبالة وجه الفتى. - الكذب هو من الأشياء القليلة التي لا أفعلها يا بِنْ. وأنتَ تعلم ذلك. هيّا قررِ الآن، وإلّا إن كنتَ عديم الشجاعة لخوض اللُّعبة وإثبات معزَّتك لأصدقائك كما تدَّعي، فقلها بوضوح لنطلب الشهادة من أحد غيرك يتمتَّع بالعزيمة.

تحدَّى بِنْ نظرة جافاهال وأومأ في النهاية.

- كلَّا يا بِنْ. - ردَّد يان .

- قل لصديقك أن يخرس. - همس جافاهال - وإلَّا فعلتها بنفسي.

وجّه الفتى نظرةً متوسّلةً إلى يان. - لا تصعِّبِ الأمور يا صديقي.

- يان على حقٍّ يا بِنْ. - تدخلت إيزوبيل - إن أراد أن يقتلنا فليفعلها بنفسه. لا تنخدعْ!

رفع بِنْ يده طلبًا للصمت وتموضع في مواجهة جافاهال.

- هل تعدُني؟

نظر إليه بِنْ طويلاً وهزَّ رأسه موافقًا .

- لن نهدر مزيدًا من الوقت. - أنهى المحادثة متوجِّها نحو صفِّ العلب التي كانت في انتظاره .

❋❋❋

دقَّق بِنْ بالعلب الخشبيَّة السبع وحاول أن يتخيَّل بأيِّ علبة أخفى جافاهال ذلك الثعبان. إذ إنّ التوصل إلى فهم المعيار الذي ترتبَّت عليه العُلَب كان مثل تجميع قطع متناثرة لبناء صورة لا يعرفها أصلاً. قد يكون الثعبان في واحدة من العلب المتطرّفة أو المركزيَّة، في علبة ذات لون باهت أو في أخرى غامقةِ اللون. كلُّ افتراضٍ كان بلا جدوى، وجد بِنْ نفسه بلا أيِّ فكرةٍ حاسمةٍ إزَّاء القرار الذي يجب اتِّخاذه على الفور.

- اختيار العُلبة الأولى هو الأصعب. - همَس جافاهال - اخترْ بلا تفكير.

تفحَّص بِنْ تلك النظرة العميقة ولم يعثر فيها سوى على انعكاس وجهه الشاحب والمذعور. عدَّ إلى الثلاثة، أغمض عينيه، وأدخل يده مباشرة في إحدى تلك العُلَب. كانت اللَّحظات التالية لا تنتهي، وهو يترقَّب لمس جلد الثعبان الحرشفي أو لدغته القاتلة. لم يحدث من هذا شيء؛ فبعد انتظارٍ شبيهٍ بالاحتضار، لامست أصابعه شارةً خشبيَّةً فوجَّه إليه جافاهال نظرةً رياضيَّة.



- اختيارٌ موفَّق. الأسود. لون المُستقبل

أخرَج بِنْ الشارة وقرأ الاسم المكتوب عليها. سراج.

وجَّه نظرةً استفهاميّة إلى جافاهال فهزَّ الأخير رأسه موافقًا. سُمِع رنين الأصفاد وهي تنفكّ عن يديّ ذلك الولد السَّقيم.

- سراج. - أمرَه بِنْ - انزلْ من القطار وابتعدْ.

دلَّك سراج معصميه المتألِّمَين ونظر إلى أصدقائه مُحبَطًا. - لن أنزل من هنا. - ردّ.

- افعلْ ما قاله بِنْ. - نصَحه جافاهال محاولاً أن يتمالكَ نبرةَ صوته .

هزَّ راج رأسه متحدِّيًا. فابتسمت له إيزوبيل.

- سراج، اذهب من هنا فورًا. - ترجَّته الفتاة - افعلها من أجلي.

تردَّد الفتى حائِرًا. - ليس لدينا اللَّيل بطوله. - قال جافاهال - قرِّر. إمَّا أن تذهب وإمَّا أن تبقى. واعلم أنَّ الأغبياء وحدَهم من يحتقرون الحظ. فأنتَ في هذه اللَّيلة قد استنفدت فرصكَ حتى آخر يوم من عمرك.

- سراج. - أمره بِنْ بحزم - اذهب من هنا فورًا. حاول أن تساعدني. رماه سراج بنظرةٍ يائسة، لكنَّ صديقه لم يغيِّر تعبيره الحازم والأمر



على الإطلاق. وفي النهاية أومأ مطأطئ الرأس واتَّجه نحو باب المقطورة.

- لا تتوقفْ حتّى تصلِ إلى النّر.هـ - قال له جافاهال - وإلّا ندمتَ.

- لن يفعلها. - أجاب بِنْ نيابةً عنه .

- سأنتظركم. - قال سراج وهو يئن عند عتبات المقطورة.

- نلتقي قريبًا يا سراج. - قال بِنْ - هيَّا، تحرَّك.

ابتعدت خطوات الفتى في النفق وقوّس جافاهال حاجبيه مُشيرًا إلى استمرار اللعبة.

- صنتُ عهدي يا بِنْ. والآن دورك.د العلب تتناقص. والاختيار يصبح أسهل. قرِّر بسرعة لينجو صديقٌ آخر بروحه.

حطَّ بِنْ عينيه على العلبة المجاورة للعلبة الأولى. قد تكون مثل الأخريات. مدّ يده ببطء وأوقفها على بعد سنتمتر عن الفتحة.

- أواثقٌ أنت؟ - سأله جافاهال .

نظر إليه بِنْ يائسًا.

- فكِّر جيّدًا. خيارُك الأول كانَ ممتازًا. فلا تفسد كل شيء الآن.



ابتسم له بِنْ بازدراء، وأدخل يدَه في العلبة التي اختارها، دون أن يشيح ببصره عنه. تضيّقت حدقَتا جافاهال كعينَي هرٍّ جائع. سحب بِنْ الشارة وقرأ الاسم

سيث. - أشار - اخرج من هنا .

انفكّ قيد سيث في اللَّحظة ذاتها ونهض الفتى على قدميه متوتِّرًا.

- هذا الأمر لا يعجبني يا بِنْ. - قال. -

ولا أنا. - ردَّ بِنْ - اخرجْ وتأكَّد من أنَّ سراج لم يضيّع الطريق.

أومأ سيث على مضض، مدركًا أنَّ أي بديل عن توجيهات بِنْ قد يعرِّض حياة الجميع للخطر. وجَّه نظرة وداع إلى أصدقائه وسار نحو الباب. التفت هناك ونظر إلى أعضاء نادي شوبار مجدَّدًا .

- سننجو هذه المرة أيضًا، موافقون؟

أومأ الرِّفاق بكل ما يسمح لهم حساب الاحتمالات .

- أمَّا حضرتك - قال مشيرًا إلى جافاهال - فلستَ سوى كومةٍ من الروث .

لعق جافاهال شفتيه وهزَّ رأسه .

- من السهل تأدية دور البطل عندما نفر بجلدنا ونترك أصدقاءنا للموت المحتوم، أليس كذلك يا سيث؟



بإمكانك أن تشتمني أكثر إن كان يحلو لك. لن أؤذيك. فذلك قد يساعدك على النوم بشكل أفضل عندما تتذكَّر هذه الليلة في حين سيكون الآخرون وجبةً للدود. بإمكانك أن تروي للنَّاس دومًا أنَّك الشجاع الباسل الذي شتم الشرير. أليس هذا ما تريد؟ لكنّنا، أنا وأنتَ، نعرف الحقيقة جيِّدًا. ها؟

اشتعل وجه الفتى غضبًا وتفجًَرت من عينيه نظرةَ حقدٍ أعمى. اتجه نحو جافاهال، لكنَّ بِنْ اعترض طريقَه وأوقفَه.

- أرجوك يا سيث. - همس في أذنه - اذهب من هنا فورًا. أرجوك .

وجَّه سيث نظرةً أخيرةً إلى صديقه وأومأ برأسه وشدَّ على ذراعه بقوَّة. انتظرَ بِنْ أن ينزلَ سيث من المقطورة والتفت إلى جافاهال ثانيةً.

- اتفاقنا لا ينصُّ على هذا. - لامَه بِنْ - لن أكملَ ما لم تتوقَّفْ عن تعذيبِ أصدقائي.

- ستفعلها شئت أم أبيت. لا بدائل لديك. ولكنِّي سأثبتُ حسن نيتي وسأدَّخر تعليقاتي على رفاقك. هيّا، تابعِ الآن .

نظر بِنْ إلى العُلَب الخمس المتبقِّيَة وحطَّ نظره على العلبة التي على الطرف الأيمن. ودون أن يفكر مليًّا أدخل فيها يده وتحسّسها من الداخل. شارةٌ أخرى. تنفّس بعمقٍ وسمعَ تنهيدات ارتياح أصدقائه .



- لا بدَّ أن هناك ملاكًا يحرسك يا بِنْ. - قال جافاهال بينما يعاين الفتى الشارة الخشبيَّة.

- إيزوبيل.

- السيَّدة محظوظة. - قال جافاهال .

- اسكت. - غمغم بن، وقد بات سئمًا من التعليقات التي يتلذَّذُ بها جافاهال عند كلِّ خطوة من تلك اللعبة المرِيعة - إيزوبيل، نلتقي قريبًا.

نهضت الفتاة ومرَّت أمام رفاقها مطأطئة الرأس، تجرُّ قدَمَيها كما لو أنهما مخيَّطَتان بالأرض.

- أليس عندكِ كلمةً أخيرةً لمايكل يا إيزوبيل؟ - سألها جافاهال.

- كُفَّ عن ذلك. - قال بِنْ - ما الذي تجنيه من كلِّ هذا؟

- اختر علبةً أخرى. - ردَّ جافاهال - سترى ما الذي أجنيه.

نزلت إيزوبيل من المقطورة، وتفكَّر بِنْ في العلب الأربع المتبقية.

- هل قرَّرت؟ - سأله جافاهال.

أومأ الفتى ووقف أمام العلبة المطليَّة باللون الأحمر.

- الأحمر.



لون الولع. - علَّق جافاهال - ولون النار. هيَّا يا بِنْ. أعتقدُ أنَّ هذه سهرتك بلا منازِع.

✵✵✵

فتحت شير عينيها ورأتْ بِنْ يمدُّ ذراعه إلى العلبة الحمراء. اقشعرَّ بدنها من الفزع. فانتفضَت ووثبت نحوه بكلِّ ما أوتيت من قوة. ما كانت لترضى أن يدخل أخاها يده في تلك العُلْبة. فحياةُ الآخرين لا تساوي شيئًا لدى جافاهال. كانوا مجرَّد أوراقِ ابتزازٍ يستخدمها لدفعِ بِنْ إلى التهلكة الذاتيَّة. كان يريد أن يقدِّم له بِنْ موتَهُ على طبقٍ من فضَّة، ممهِّدًا له الطريق.

فهكذا، يدخل ذلك الرُّوح الملعون روحَه ليخرج من تلك الأنفاق بكيان من لحمٍوعظم. كان في حاجةٍ إلى كيان شابٍّ يردُّه إلى الدنيا ليفتكَ بمَن يريد .

أدركت شير أنَّه ما من خيارٍ آخر لإفشال الأحجية المعقَّدَة التي شيَّدها جافاهال حولهم. هي وحدها القادرة على حرف مسار الأحداث بتنفيذ الأمر الوحيد الذي لم يتوقَّعه جافاهال.

نقشت الثواني اللاحقة في ذهنها بدقَّة مجموعةً من المطبوعات الغنيَّة بالتفاصيل. قطعتْ شير الأمتار الستة التي تفصلها عن شقيقها، متجاوزةً أعضاء النادي الثلاثة المتبقِّين والمكبَّلين. التفتَ بِنْ فتحوَّل تعبيره عن الفجاءة والارتباك إلى تجهُّم ينمُّ عن خوفه حينما رأى جافاهال ينهض لتشتعلَ أصابع يده اليمنى بالنَّار. وبينما ألقت الفتاة بنفسها على أخيها، سمعت صرخته تستحيل



صدىً بعيدًا. طرحته على الأرض ونزعت يده من فتحة العلبة الحمراء. ارتمى بِنْ ورأتْ شير أنّ طيف جافاهال الشبحيّ ينتصب أمامها ويمدّ المخلب المضطرم نحو وجهها. ثبَّتت ناظريها في عين المجرم وقرأت استنكاره اليائس الذي أخذ يرتسم على شفتيه. وبدا أنَّ الزمن توقَّف حولهم مثل دوَّارة الأحصنة المحطّمة.

علقت يد شير بفتحة العلبة الحمراء وانغلقت صفيحةُ الفتحة على معصمها كزهرة مفترسة. صرخ بِنْ بينما كان جافاهال يشدُّ قبضته الناريَّة قرب وجهها. لكنَّ شير ابتسمت ابتسامة الظافرين، وأحسّت بقبلة الثعبان الفاتكة واندلاع السم في دمائها التي تسري في عروقها مثلما تفعل الشعلة بمضخَّة وقود.

ضمَّ بِنْ شقيقته بذراعيه وانتزع يدها من العلبة الحمراء، ولكن بعد فوات الأوان. رأى نقطتين نازفَتين تلتَمِعان على جلد معصمها الشاحب. ابتسمت له شير وهي تفقد وعيَها.

- إنّني بخير. - غمغمت، لكنّها قبل أن تنطقَ الحرف الأخير ارتجفت ساقاها بخضَّة خفيَّة واسترخت في حضن أخيها .

- شير! - صاح بِنْ. شعر بغثيان لا يوصف يستبدُّ به، وكانت قواه تنسحب من جسمه، مثلما ينفد الزمن في ساعة رمليًَة. أمسك أخته ووضع رأسها في حضنه، وداعب وجهها.

فتحت شير عينيها وابتسمت له بوهن. كان وجهها أبيض كحجر الكلس.



- لا أشعرُ بألمٍ يا بِنْ. - كانت تئنُّ.

بلع أخوها كلَّ كلمة كما لو أنَّها ركلة على البطن ورفع عينيه بحثًا عن جافاهال.

كان الطيف يراقب المشهد صامتًا وعابس الوجه. فتلاقت نظراتهما .

- لم تكن هذه خطتي يا بِنْ. - قال جافاهال - الآن يغدو الوضع أصعب. شعر بِنْ بالحقد يتنامَى في وجدانه، ويمزِّق روحه نصفين بصدع هائل.

- أنتَ مجرمٌ حقير. - تمتم حانقًا.

وجَّ جافاهال نظرةً أخيرة إلى شير التي كانت ترتجف في حضن شقيقها وهزَّ رأسه متأسِّفًا وبدت أفكاره تسرح بعيدًا عنه.

- لم يبق سوى أنا وأنتِ يا بِنْ. - قال - وجه العملة ونقشها.

ودِّعها وتعال خذ بثأرك.

تقنّع وجه جافاهال بحجابٍ من نار، استدار واخترق جدار المقطورة، مخلِّفًا ثغرةً في المعدن الذي كان يسيل مثل فولاذٍ مصهور.

سمع بِنْ طقطقة السلاسل التي كانت تقيِّد يان ومايكل وروشان. ركض يان نحو الشقيقين، أمسك بذراع شير وقرَّب شفتيه إلى



الوخزة. امتصَّ بقوَّة وبصق الدم المُشبع بالسم الذي كان يحرق لسانه.

جثم مايكل وروشان على ركبتَيهما أمام الفتاة ونظرَا بيأس إلى بِنْ الذي كان في الأثناء يلعن نفسه لأنّه ترك تلك اللحظات النفيسة تنقضي دون أن يتدخّل لفعل ما سارع صديقه إلى فعله.

رفع بِنْ عينيه ورأى خط النار الذي خلَّفه جافاهال وراءه، وكيف انصهر المعدن مثلما يخترق رأس السيجار الورقة. تعرّض القطار لخضَّةٍ عنيفة، وأخذ يتحرَّك ببطء داخل النفق. غزا دويٌّ قاطرة المحرِّك أنفاق متاهة المحطّة. التفت بِنْ نحوَ رفاقه ورمى يان بنظرةٍ كثيفة. -

اعتنِ بها. - أمره.

- لا يا بِنْ. - ترجَّاه يان إذ قرأ أفكار صديقه - لا تذهب.

- هلَّا عدت لوداعي؟ - سألته الفتاة بصوتٍ مرتعش .

- شعر بأنَّ مقلَتَيه تفيضان بالدموع.

- أحبُّكَ. - غمغمت شير.

- أحبُّكِ. - ردَّ بِنْ مدرِكًا أنَّه لم يقل تلك الكلمة لأحدٍ من قبل.



تسارعت حركةُ القطار وهو يحملهم بعيدًا في النفق. ركض بِنْ نحو باب المقطورة ثم ألقى بنفسه عبر الجرح الذي انفتح في الصفيحة المعدنيَّة، وراح يبحث عن جافاهال.

وعند المقطورة التالية، انتبه أنَّ مايكل وروشان يتبعانه. فتوقَّف على المنصة التي تفصل بين المقطورات، لينزعَ الشابك الذي يوحِّد المقطورتين الأخيرتين ورماه في الفراغ. وكادت أصابع روشان تلامس يده لعشر من الثانية، ولكن عندما رفع بِنْ رأسه ثانية رأى نظرات صديقيه الخائبة تبقى في الخلف بينما يمضي القطار وعلى متنه بِنْ وجافاهال بأقصى سرعة صوْب قلبِ ظلمات محطَّة جيتر. لم يبق غيرهما فعلاً آنذاك .

***

في كلٌّ خطوة يخطوها بِنْ باتجاه قاطرة المحرِّك، كان القطار يكتسب سرعةً خلال ركضته الجهنميَّة في الأنفاق. وكان الاهتزازُ الذي يخضُّ المعدنَ يُرنِّحُ الفتى في مساره بين الحطام متَّبعًا الخطَ المنير من البصمات التي خلَّفها جافاهال على الحديد. استطاع بِنْ بلوغِ المنصَّة التَّالية فتمسَّك بكلِّ قواه بقضبان الإسناد بينما كان القطار يدخل في منعطفٍ ضيِّق على شكل هلال ويرتمي في منحدرٍ يُفضِي إلى أعماق الأرض. ثم تسارع أكثر على إثر خضَّة جديدة وتبدَّدت كرةُ اللَّهيب في الظلام.



نهض بِنْ واستأنف ركضته متعقِّبًا أثر جافاهال، في حين كانت عجلات القطار تقدح على السكَّة الحديديَّة اللامعة، مثل السكاكين على الجليد .

وفجأة سمع بِنْ انفجارًا تحت قدميه وسرعان ما رأى ألسنة اللَّنب الغليظة تطوِّق هيكل القطار، لتهشِّم الخشب المتفحّم. فجرَّت النيران أسنان الزجاج المحيطة بالنوافذ المحطَّمة، كأنياب تبرز من بين فكَّي حيوانٍ كاسر. ارتمى بِنْ أرضًا ليتحاشى زوبعة الشظايا التي ضربت جدران النفق مثل دفقات الدم على إثر طلقة من مسافة قريبة .

وعندما نهض ثانية، لمَح طيف جافاهال في البعيد يتقدَّم بين النيران ففهم أنّه بات قريبًا من قاطرة المحرِّك. التفت جافاهال فعرف بِنْ ابتسامته الإجراميَّة رغم أنَّها ظهرت وسط انفجارات الغاز التي شكَّلت حلقات ناريَّة زرقاء وقطعت القطار كإعصار من بارود مجْنون.

- تعال خذني. - سمع صوتًا في رأسه.

أضيء وجه شير في ذاكرته. استأنف بِنْ سيره ببطء حتى المقطورة الأخيرة المتبقِّيَة. وعندما قطع المنصَّة الخارجيّة، أحسَّ بهبَّة هواءٍ بارد. لا بدّ أنَّ اقطار موشك على الخروج من الأنفاق ليتَّجه بسرعةٍ جنونيّةٍ نحو الرصيف المركزيِّ لمحطَّة جيتر





لم يكف يان عن التحدُّث إلى شير خلال رحلة العودة. فهو يعلم أنّ الفتاة في حال استسلمت للنُّعاس القاتل الذي يحاصرها فإنَّها لن تبقى على قيد الحياة أطول من المدَّة المطلوبة لرؤية ضوء النّهار خلف أنفاق المحطة. وكان مايكل وروشان يساعدانه على حملها، دون أن يتمكّن أيّ منهما من استنطاقها بكلمة. دفن يان هواجسه التي تنهشه في أعمق أعماق قلبه، وراح يروي حكايات وخرافات من كلِّ نوع، مستعدًّا للنبش فيها إن اقتضت الضرورة حتى آخر كلمة، لمجرَّد إبقاء شير يقظة. وكانت الفتاة تستمع إليه وتهزُّ رأسها وتوارب عينيها الزائغتين والناعستين. ويضع يان يدَها بين يدَيه، ليجسَّ النبض الذي كان ينطفئ ببطء لا محالة.

- أين بن؟ - سألتِ الفتاة .

نظر مايكل إلى يان ورسم على وجهه ابتسامة عريضة.

- بِنْ في مأمن يا شير. - أجاب بطمأنينة - ذهب يبحث عن طبيب، الأمر الذي يبدو لي خللاً في خطة الاحتراس نظرًا إلى الظروف التي مررنا بها. يفترض بِنْ أن أكون أنا الطبيب. أو أنني سأصبح طبيبًا يومًا ما. ما أسعد حظي بصديقٍ يشجِّعني دومًا.. وعند أول مناسبة يختفي ويذهب للبحث عن طبيب. لحسن الحظ أنَّ الأطباء الذين على شاكلتي قلَّة. فالمرء يولد طبيبًا، هذه هي الحقيقة. وأنا واثقٌ من شفائك، يطلعني حدسي على ذلك. ولكن بشرط: ألا تنامي. لم تغفي، صحيح؟ لا ينبغي أن تنامي الآن! جدَّتُك في انتظارنا على بعد مئتيْ متر عن هنا ولا أجدني قادرًا على سرد ما حدث على مسمعها. فإن حاولت مجرَّد محاولة ألقت بي في النهر، في حين



يتوجّب عليَّ أن أستقلَّ الباخرة بعد بضع ساعات. لذا ابذلي جهدكِ وابقي يقظةً وساعديني لمواجهة جدتك. موافقة؟ قولي شيئًا.

أخذت شير تلهث بشدّة. شحب وجه يان فجعل يهزُّها.

انفتحَت عينا الفتاة ثانية.

- أين جافاهال؟ - سألت .

- مات. - كذَب يان .

- كيف؟ - قالت شير بمشقَّة.

تردَّد يان برهة.

- سقط تحت عجلات القطار. لم نتمكَّن من فعل شيء. ب

دت شير تبتسم .

- أنت لا تجيد الكذب. - همست وهي تجاهد في لفظ كلِّ كلمة.

شعر الفتى بأنّه لن يستطيع الاستمرار كثيرًا بأداء هذا الدور.

- كذَّاب المجموعة هو بِنْ. - قال - أنا أقولُ الحقيقةَ دائمًا. جافاهال مات .



أغمضت شير عينيها فأومأ يان إلى مايكل وروشان ليستعجلا. وبعد نصف دقيقة، أنار الضوء في آخر النفق وجوههم وتبدّى طيفُ ساعة المحطَّة في البعيد. وعندما وصلوا وجدوا هناك سراج وإيزوبيل وسيث في انتظارهم. أطلّت خيوطُ الفجر الأولى مثل خط قرمزيّ في المدى، ما وراء الأقواس الحديديَّة الكبرى لمحَطَّة جيتر.

***

توقَّف بِنْ أمام مدخل المقطورة الأخيرة ووضع يده على المقبض الدوَّار. كان القفل محترِقًا. دوَّر الفتى المقبض ببطء، وأحسَّ بالمعدن ينهش جلده. تحرَّرت غيمةُ بخارٍ من الداخل. رفس الباب فانفتح. كان طيف جافاهال، ثابتًا في كتلة البخار الكثيفة المنبعثة من المراجل، يحدِّق إليه صامتًا. رأى بِنْ الآلة الشيطانيَّة تدوي بجانبه وعرف شعار الطائر الذي يحلُّق بين النيران منحوتًا على الحديد. كانت يد جافاهال على صفيحة المرجل المتخبطة، بدا أنه يمتص الطاقة التي تضطرم في الداخل. تفحص بِنْ تلك الشبكة المعقَّدَة من الأنابيب والصمَّامات وخزَّانات الغاز تهتزُّ حولهما.

- كنتّ مبتكرًا في حياة أخرى يا ولدي. - قال جافاهال - كنت قادرًا على اختراعِ أشياءٍ بيدي وقلبي. أمَّا الآن فلا أقدر إلَّا على التدمير. هذه هي روحي يا بِنْ. اقتربْ وانظرْ كيف ينبض قلبُ أبيك. لقد صنعتُ هذه الآلة بنفسي. هل تعلم لماذا سمَّيتها طائر النار؟



نظر إليه بِنْ دون أن ينطق بحرف .

- منذ آلاف الأعوام، كان هناك مدينة ملعونة، مثل كلكتا تقريبًا.
- شرح جافاهال - اسمها قرطاج. وعندما استولى عليها الرُّومان، استيقظ حقدهم على الروح الفينيقيَّة، فلم يكتفوا بتسوية المدينة بالأرض، ولا بقتل النساء والرجال والأطفال. بل دمَّروا كلَّ حجرةٍ فيها حتَّى أحالوها إلى غبار. لم يشفِ غلَّهم بذلك أيضًا لذا أمر كاتون قائدُ الجيش جنودَه برشِّ الملح عند كلٌّ زاوية من المدينة، بحيث لا ينبت في ذلك التراب الملعون أيّ برعم حي.

- لماذا تروي عليَّ هذا كلّه؟ - سأله بِنْ وقد أحسّ بالعرق ينساب من جوانحه وبجف في اللحظة ذاتها بسببِ الحرارة الخانقة التي تولَّدُها المراجل.

- كانتْ تلك المدينة مقامُ ديدون، الأميرة التي ضحَّت بجسمها في النَّار للتخفيف من وطأة غضب الآلهة، وللتكفير عن خطاياها. لكنّها عادت ذاتَ يوم، إذ تحوَّلت إلى إلهة. هذه هي قوَّةُ النار. مثل طائر الفينيق، طائر النار الجبار الذي تنمو النيران تحتَ جناحيه.

داعبَ جافاهال مخلوقه الفتاك وابتَسم .

- أنا أيضا بُعِثتُ من تحت رمادي، وإنّني مثل كاتون عدتُ لأرشَّ النار على مصير ذرِّيتي لأمحوها إلى الأبد .

- أنتَ مجنون، إن كنتَ تظنُّ أنَّك قادرٌ على الدُّخول في كياني لتبقى حيًّا. - قاطعه بِنْ. -



من هم المجانين؟ - تساءل جافاهال - هل هم أولئك الذين يرون الرُّعب في قلوبِ أمثالهم فيبحثون عن السَّلام بأيِّ ثمن؟ أم أنَّهم أولئك الذين يتظاهرون بعدم رؤية ما يحدث حولهم؟ العالم للمجانين أو للمنافقين، يا بِنْ. لا وجود لأنواع أخرى على وجه الأرض غير هذين النوعين. وعليك أن تختار إلى أيِّ نوعٍ تنتمي.

نظر بِنْ مطوَّلاً إلى ذلك الرجل، وظنَّ للمرَّة الأولى أنه يرى في ظله ما كان والده فيما مضى.

- وأنتَ يا أبت، أي نوع اخترت حين قرَّرت العودة لزرع الموت بين القلَّة الذين أحبُّوك؟ هل نسيتَ كلماتكَ نفسها؟ هل نسيت حكايتك عن دموع ذلك الرجل التي غدت جليدًا عندما عاد إلى دياره ورأى أنَّ أهلها باعوا أنفسهم لمشعوذٍ جوَّال؟ لعلَّك قادرٌ على وضع حدٍّ لحياتي أيضًا، مثلما فعلتَ بكلِّ الذين اعترضوا طريقك. لا أعتقد أنَّ هذا سيُحدِث فرقًا كبيرًا. ولكن قبل أن تقتلني، قل لي في وجهي أنَّك لم تبع روحك لذاك المشعوذ أنت أيضًا. قلها، وضع يدك على هذا القلب الناريّ الذي تختبئ خلفه، وستجدني أتَّبعك حتى إلى الجحيم .

أغمض جافاهال جفنيه وأومأ برأسه. وبدا وجهه خاضعًا لتحوُّلٍ بطيء، وتلاشت نظرتُه في أبخرة مضطَّرمة، محبطًا ومهزومًا. نظرة مفترسٍ جريحٍ ينسحب ليموتَ في الظلّ. شعر بِنْ أنَّ رؤية صورة الهشاشة المباغتة التي استمرّت لحظات قصيرة، أكثر روعًا ورعبًا من أي تجسّد فظيع أقدم عليه ذلك الشبح المعذّب. إذ إنَّه لم



يعد يرى في ذلك الوجه المتهالك الأسى والنار روحًا إجراميَّة، بل انعكاسًا حزينًا لصورةٍ بسبب أبيه.

نظر كلٌّ منهما إلى الآخر كأنَّهما صديقان قديمان وهائمان في ضباب الزمن.

- لم أعد أعرف ما إذا كنتُ أنا الَّذي ألَّف هذه الحكاية أم لا يا بِنْ.

- قال جافاهال في النهاية - لم أعد أعرف ما إذا كنتُ قد عشتُ تلك الذكريات أم أنني حلمت بها ليس إلَّا. لم أعد أعرف حتى ما إذا كنتُ قد ارتكبتُ تلك الجرائم أم أنَّها كانت صنيعةُ شخصٍ آخر. ومهما تكن الإجابة على هذه التساؤلات، فإنّني أعرف أنَّني لن أستطيع بعد أن أؤلِّف حكاية كتلك التي تذكرها أنت، ولا أن أتوصَّل لاستيعاب معناها. ليس لديَّ مستقبلٌ يا بِنْ. لا مستقبل ولا حياة. ما تراه أمامك هو مجرَّد ظلُّ روحٍ ميتة. أنا لا أحد. فالرَّجل الذي كنتُ عليه، أي والدك، مات منذ زمن بعيد حاملاً معه كلَّ الأشياء التي حلمت بها. وإن لم تعطني روحك لكي أعيش فيها إلى الأبد، فأعطني الطمأنينة. فأنتَ الوحيدُ القادرُ الآن على إرجاع حريتي. لقد أتيت لتقتل رجلاً ميتًا يا بِنْ. صن عهدك، أو اتَّحد بي في الظلمات .

وفي تلك اللحظة خرج القطار من النفق وسار على سكة الرصيف المركزيّ بسرعةٍ جنونيَّةٍ مستعرضًا عباءته النَّاريَّة المتصاعدة إلى السماء. اخترقت قاطرة المحرِّك عتبة الأقواس الكبرى في المبنى



الحديديّ وقدحت على السكة بمسارٍ منحوت في ضوء الفجر نحو الأفق.

فتح جافاهال عينيه فقرأ فيهما بِنْ الرُّعب والوحدة العميقة التي تحبس تلك الروح الملعونة.

وبينما قطع القطار الأمتار الأخيرة التي تفصله عن الجسر المدَّمر، فتَّش بِنْ في جيبه وأخرج العلبة التي تحتوي على آخر عود ثقاب احتفظ به. غلَّ جافاهال يده في مرجل الغاز فأحاطته غيمةٌ من الأكسجين بشلَّالٍ من بخار. انصهر طيفُه ببطء في الآلة التي كانت روحه تقيم فيها فالتفَّ عليه الغاز بسراب من رماد.

توجَّهت عينا جافاهال بنظرةٍ أخيرة إلى بِنْ فخُيِّل إلى الفتى أَنَّه يلمح فيهما ومضةَ دمعةٍ وحيدة تسيل على وجهه.

- حرِّرني يا بِنْ. - غمغم صوتٌ في ذهنه - الآن وإلَّا فلا.

أمسك الفتى عود الثقاب وأشعله. - وداعًا يا أبي. - همس

حتى لاهافاج تشاندرا تشاترغي رأسَه فرمى بِنْ العود المشتعل تحت قدميه.

- وداعًا يا بِنْ. وفي تلك اللحظة العابرة، شعر الفتى بحضور وجه محاطٌ بهالةٍ نورانيَّةٍ إلى جانبه. وبينما كانت النيران تضطرم مثل نهرٍ من بارود إلى أن وصلتْ إلى أبيه، نظرت إليه العينان الحزينتان



الغائرتان للمرَّة الأخيرة. ظنّ بِنْ أنّ عقله يخدعه عندما عرف فيهما نظرة شير الجريحة نفسها.

ثم انغمرَ طيفُ أميرة النور إلى الأبد في اللَّهيب بيدٍ مرفوعة وابتسامةٍ واهنةٍ على الشفتين، دون أن يتوصَّل بِنْ إلى معرفة تلك التي رآها تتلاشى في لنار. دفعه الانفجار إلى الطرف المقابل في المقطورة كتيَّار ماءٍ خفيّ ورماه خارج القطار المشتعل. وعندما سقط، احتمى بالنبات النَّامي في ظلِّ سِكَّةِ الجسر.

ابتعد القطار وتبعه بِنْ على المسار القاتل الذي تؤدي إليه السكَّة المتجهة نحو الفراغ. وبعد ثانية انفجرت القاطرةُ التي كان والده فيها بقوَّة رفعت دعامات الجسر الحديديَّو نحو السماء. وتصاعدت أعمدة اللهب إلى سحب العاصفة، لترسم شعاعًا ناريًّا يكسر السماء بمرآةٍ من نور.

سقطَ القطار في الفراغ وسقطت الأفعى الحديديَّة والمشتعلة في مياه النهر السوداء. دويٌّ يصمُّ الآذان خضَّ السماء فوق كلكتا وهزَّ الأرض تحت قدميه.

وانطفأت آخر أنفاس طائر النار حاملاً معه روح مخترعه لاهافاج تشاندرا تشاترغي إلى الأبد .

توقَّف بِنْ وسقط على ركبَتَيه بين السكك، بينما كان رفاقه يركضون لملاقاته من مدخل المحطَّة. وبدت السماء من فوقهم تمطر بمئات من الأدمع البيضاء. رفع بِنْ ناظريه وشعر بها على وجهه. كانت تُثْلج .



❋❋❋

اجتمع أعضاء نادي شوبار للمرَّة الأخيرة في فجر ذلك اليوم من شهر مايو عام ١٩٣٢ قرب الجسر المختفي على ضفاف نهر هوغلي، قبالة أنقاض محطّة جيتر. أيقظت ستارة الثلج مدينة كلكتا، حيث لم ير ٠ أحدٌ من قبل ذلك الرِّداء الأبيض الذي أخذ يكسو قبب القصور العتيقة، والأزقَّة ورحابة الميدان. وبينما كان الأهالي يخرجون إلى الطريق لتأمُّل تلك المعجزة التي ما كانت لتتحقَّق مرة أخرى، انسحبَ أعضاء نادي شوبار نحو الجسر تاركين شير بمفردها في حضن بِنْ. لقد نجوا جميعًا من أهوال تلك اللَّيلة. وقد رأوا كيف يهوي القطار المشتعل في الفراغ، وكيف تصاعد انفجارُ النار إلى السماء ليمرق العاصفة مثل سكين جهنميَّة. كانوا يعلمون أنهم لن يتحدثوا بوقائع تلك الليلة أبدًا على الأرجح، وأنَّهم إن اضُّطروا إلى ذلك يومًا ما فلن يصدِّقهم أحد. ورغم هذا أدرك الجميع في ذاك الصباح أنَّهم كانوا مجرَّد مدعوِّين، ركابًا عابرين بقطارٍ جاء من الماضي. ثم شهدوا صامتين على عناق بِنْ وشقيقته تحت انهمار الثلج. وكان النهار يقصي ظلمات تلك الليلة التي لا تُنسى.

❋❋❋

أحسَّت شير بلمسات الثلج الباردة على خدَّيها ففتحت عينيها. كان شقيقها يبتسم لها ويداعبُ وجهها بحنان .

- ما هذا يا بن؟



- ثلج. - أجاب الفتى - إنها تثلجُ على كلكتا.

أضيء وجه الفتاة برهةً.

- ألم أحدِّثك عن حلمي يومًا؟ - سألَته.

- أن تري الثلج ينهمر على لندن. - قال بِنْ - أذكره. سنذهب إلى لندن معًا في العام القادم. سنذهب لزيارة يان الذي سيدرس الطب هناك. ستثلج في كلِّ يوم. أعدكِ بذلك .

- هل تذكر حكاية والدنا يا بن؟ تلك التي رويتها عليكم في أول سهرةٍ أمضيتها معكم في قصر منتصف الليل؟

أومأ بِنْ .

- هذه هي دموع شيفا. - قالت شير بعسر - ستذوب عندما تطلع الشمس ولن تتساقط على كلكتا ثانية. رفع بِنْ شقيقته برفق وابتسم لها.

كانت عيناها الغائرتان اللّؤلؤيتان تمعنان النظر فيه.

- سأموت قريبًا، أليس كذلك؟

- كلا. - أجاب - لن تموتي إلّا بعد مضي سنوات وسنوات. خط حياتك طويلٌ جدًّا. أترين؟

- بِنْ. - قالتْ شير وهي تئنُّ - فعلتُ كلَّ ما استطعت فعله. من أجلنا.



عانقها أخوها بشدَّة. - أعلم. - قال بصوتٍ منخفض.

حاولتِ الفتاةُ أن ترفعَ جذعها وقرَّبت شفتيها إلى أذنه. - لا تتركني أموتُ وحيدة. – همست.

أخفى بِنْ وجهه عن نظرة شقيقته وضمّها إليه.

- أبدًا .

وظلَّاً متعانقين تحت الثلج في كنف الصمت، إلى أن انطفأ نبضُ شير مثل شمعةٍ في مهب الريح. وابتعدت الغيوم نحو الغرب شيئًا فشيئًا، في حين حمل ضوء الفجر معه إلى الأبد رداء الدموع البيضاء الذي كان قد غطَّى المدينة.

إنَّ الأماكن المسكونة بالشقاء والحزن هي المقام المفضَّل لحكايات الأشباح والرؤى. تختزن كلكتا في جانبها المظلم مئات من تلك الحكايات، التي لا يقرُّ أحدٌ بتصديقها، إلا أنَّها تبقى في ذاكرة الأجيال باعتبارها التأريخ الوحيد للماضي. ويكاد يقال إنَّ الناس المستنيرين بحكمة فريدة ويزدحمون في طرقاتها يدركون أنَّ الحكاية الحقيقيَّة لهذه المدينة في نهاية المطاف قد كُتبت على الدوام في الصفحات الخفيَّة لأرواحها ولعناتها الدفينة والغيبيَّة.

وربما كانت تلك الحكمة نفسها هي التي أنارت درب لاهافاج تشاندرا تشاترغي في دقائقه الأخيرة، وجعلته يعي بأنَّه قد تاه من غير رجعةٍ في متاهةِ لعنته ذاتها. ربَّما في عزلته العميقة كروحٍ مدانةٌ بأن تحيا جراح الماضي باستمرار، قد أدركَ القيمةَ الحقيقيَّة



للضحايا الذين دمَّر حياتهم وقيمة حياة أولئك الذين ما زال بالإمكان إنقاذهم. من الصعب أن نعرف ما الذي رآه في وجه ابنه بِنْ قبل ثوانٍ من السماح له بإطفاء نيران غيظه المشتعلة في مراجل طائر النار. ربّما، في جنونه، كان تشاندرا قادرًا للحظةٍ واحدة أن يعثر على عقله الذي انتزعه جلّادوه منذ أيامه في غرانت هاوس.

كلُّ الإجابات على هذه الأسئلة، تمامًا مثلما هي أسراره، واكتشافاته، وأحلامه وتطلُّعاته، اختفت إلى الأبد في الانفجار الرَّهيب الذي مزَّق السماء فوق كلكتا في فجر الثلاثين من شهر مايو عام ١٩٣٢، مثلما ذابتْ ندف الثلج بسرعة بعد أن لثمت الأرض.

ومهما كانت الحقيقة، بعد وقت قصير يكفيني أن أذكر أنه من غَرقِ ذلك القطار المشتعل في مياه نهر هوغلي، تبخَّرت بركةُ الدم الطازج التي أسكنت روح تلك المرأة المعذَّبة التي أنجبتِ التوأم.

عرفتُ حينها أنَّ روح لاهافاج تشاندرا تشاترغي وروح تلك التي كانت رفيقته رقدَا بسلامٍ أبدي. لم أعدْ أرى في منامي النظرةَ الحزينة لأميرة النور وهي تنحني على صديقي بِنْ.

وطوال تلك السنوات، بعد أن ركبتُ على متن السفينة التي أقلتني نحو مصيري في بريطانيا، في مساءِ ذلك اليوم نفسه، لم ألتقِ بأيٍّ من رفاقي. أذكر وجوه أولئك الفتية المذعورين وهم يودِّعونني من على رصيف ضفة نهر هوغلي، بينما كانت السفينة ترفع مرساتها. أذكُر عهودنا في البقاء متَّحدين وفي عدم نسيان ما شهدناه أبدًا.



ولكنِّي لا أنكر أنَّني في تلك اللحظة نفسها أدركتُ أنَّ تلك الكلمات ستزول مع ذوبان الثلج الذي كان يرحل في غسق البنغال المحترُق.

كانوا هناك جميعًا، باستثناء بِنْ. ولكن لا أحد منهم كان حاضرًا في قلوبنا مثله.

وبالعودة الآن بالذاكرة إلى تلك الأيام، أشعر أنهم جميعًا ما يزالون أحياء في مكان موصود من روحي، الَّتي أغلقتُ أبوابها إلى الأبد في ذلك الغروب بمدينة كلكتا. مكانٌ حيث ما زالت أعمارنا جميعًا ستة عشر عامًا، حيث روح نادي شوبار وقصر منتصف الليل سيبقيان على قيد الحياة ما حييث .

أما بخصوص ما حلّ بكلٍّ واحدٍ منا، فلقد محا الزمن آثار كثيرين من أصدقائي. عرفتُ أنَّ سيث خَلَف السيد دي روثيو على أمانةِ المكتبة وأرشيف المتحف الهنديّ، ليصبحَ أصغر من تولَّى هذه المهمة في تاريخ المؤسّسة.

وقد حصلتُ على أخبار إيزوبيل أيضًا، إذ تزوجت مايكل بعد مُدَّة. دام زواجُهما خمس سنوات، وبعد الانفصال عمدت إيزوبيل على التجوُّل حول العالم صحبة شركة مسرحيَّة متواضعة. لم تمنعها الأعوام من المحافظة على أحلامها. لكنَّني لا أعلم ما الذي حلَّ بها فيما بعد. أمَّا مايكل، الذي ما يزال في فلورنسا، حيث يُعلِّم الرسم في مدرسة، فلم يعد يلتقي بها. وما زلتُ حتى اليوم أتوقع أن أجد اسمها في عناوين كُبرَيات الصحف.



توفي سراج عام ١٩٤٦ بعد أن أمضى أعوامه الخمسة الأخيرة في أحد سجون بومباي، مُتَّهمًا بسرقةٍ ظلّ يحلف حتى النهاية أنَّه لم يرتكبها. كان حظه القليل سيهجره، مثلما تنبَّأ لاهافاج.

أما روشان فهو اليوم تاجر ثريٌّ ومتنفِّذ، يملك جزءًا كبيرًا من الأزقَّة العتيقة في المدينة السوداء، هناك حيث ترعرع عندما كان شحّاذًا متشرِّدًا. وهو الوحيد الذي في كل عام يواظب على عادة إرسالِ التَّهاني بمناسبة عيد ميلادي. عرفتُ من رسائله بأنه تزوَّج، وأنَّ عدد أحفاده الذين يتحركون في ممتلكاته لا يقارَنُ إلّا بعدد النقود التي تكون ثروته .

أمّا أنا، فكانت الحياة كريمة معي، إذ جنَّبتني الفاقة وأمدَّتني بالسلام اللازم لمتابعة هذه الرحلة الغريبة التي لا تفضي إلى أيِّ مكان. فبعد أن أنهيتُ دراستي، عُرِض عليَّ عمل في مستوصف الدكتور والتر هارتلي في وايت تشابل، تعلَّمت المهنة التي لطالما حلمتُ بها والتي ما زلتُ أعيش بفضلها حتَّى اليوم. ومنذ عشرين عامًا، بعد وفاة زوجتي إيريس، انتقلتُ إلى بورنموث، حيثُ مسكني وعيادتي في بيتٍ صغير لكنَّه مريخ يطلُّ على شاطئ بوول فمنذ فقدتُ إيريس، لا صحبةَ لي سوى ذكراها والسرّ الذي تشاركته في الماضي مع أصدقائي أعضاء نادي شوبار.

مرَّة أخرى، تركتُ الكلمة الأخيرة للحديث عن بِنْ. يصعب عليَّ حتى اليوم أن أتحدَّث عمَّن كان وما يزال صديقي المُفضَّل، مع أنَّي لا ألتقيه منذ ما يزيد على الخمسين عامًا. عرفتُ من روشان أنَّه انتقل للسكن في دار أبيه، المهندس تشاندرا تشاترغي، رفقة



العجوز أريامي بوز، التي على الرغم من قوَّة روحها لم تتمكَّن من تجاوز وفاة شير، فأنزلت بنفسها اكتئابًا طويلاً أغمض عينيها إلى الأبد في أكتوبر عام ١٩٤١. ومنذ ذلك اليوم عاشَ بِنْ وعمل بمفرده في الدار التي بناها والدُه. وقد ألَّف هناك كتبه إلى أنِ اختفى دون أن يتركَ أثرًا.

وذات صباح من شهر ديسمبر، عندما مرّتْ أعوامٌ طويلة حسِب خلالها الجميع، بمن فيهم روشان، بأنَّه قد مات، تلقَّيتُ مظروفًا بينما كنتُ أتأمَّلُ الشاطئ من الرَّصيف البحريِّ الصغير المقابل لبيتي. كان المظروف مختومًا بطابع كلكتا الرسمي، واسمي مكتوبٌ بخطٍّ ما كنتُ لأنساه حتى لو بلغتُ مئة عام. وجدتُ في المظروف نصف القلادة التي على شكل شمس، التي قسمتها أريامي بوز عندما فرَّقت بين شير وبن في تلك اللَّيلة المأساويَّة من العام ١٩١٦.

وفي هذا الصباح، بينما كنتُ في الفجر أكتب الأسطر الأخيرة من هذه الذكريات، ألقى الثلجُ الأوَّل لهذا العام رداءه الأبيض أمام نافذتي، وعادت إلي ذكرى بِنْ بعد مضيّ كلّ هذه الأعوام، مثل صدى لهمسة ناعمة. تصوُّرته يقطع طرقات كلكتا الهائجة، وسط الزحام، ما بين ألف حكاية مجهولة كحكايته، ففهمتُ للمرَّة الأولى أنَّ صديقي باتَ مثلي، رجلاً عجوزًا ستنهي عقارب ساعتِه دورتها قريبًا. كم غريبٌ شعورنا بأنَّ الحياة تضيع من بين أيدينا.

لا أدري إن كنتُ سأتلقَّى أنباءً عن صديقي بِنْ. لكنَّني أعرف أنَّ الفتى الذي ودَّعته إلى الأبد يوم أثلجت على كلكتا، ما يزال حيًّا في موقعٍ ما من المدينة السوداء الغامضة؛ وأنَّه يُبقي ذكرى شير مضاءة،



حالمًا بلحظة لقائه بها في عالمٍ لا شيء ولا أحدٌ يقدر على الفصل بينهما ثانيةً.

آمل أن تعثر عليها مجدَّدًا، يا صديقي.



تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

تحرير وتدقيق:

▪ **إسراء** ▪

▪ **mohamed** ▪

ترتيب وتصميم:

▪ أشرف غالب ▪



هذا الكتاب

لن أنسى أبدًا تلك الليلة التي أثلجت فيها السماءُ على مدينة كلكتا. كان التقويم في ميتم سانت باتريك يلفظ الأيَّامَ الأخيرةَ من شهر مايو ١٩٣٢ ويُخلِّفُ وراءه واحدًا من أحرِّ الشهور التي يذكرها تاريخ مدينة القصور.

كنّا ننتظر يومًا بعد يومٍ، بحزنٍ وخشية، قدومَ ذلك الصيف الذي سنتمُّ فيه عامنا السادس عشر، ما يعني فراقنا وحلَّ نادي شوبار، النادي السرّيّ والمخصَّص لسبعة أعضاء حصرًا؛ كان هذا النادي ملجأنا خلال الأعوام التي أمضيناها في الميتم. هناك حيث نشأنا بلا عائلة إلّا نحن أنفسنا، وبلا ذكريات إلّا القصص التي كنّا نرويها بعضنا على بعض حول موقد النار في قلب الليل، في باحة الدار القديمة والمهجورة الواقعة عند التقاء شارع القطن بشارع بريبرن: كان البيت عبارة عن حطام دارٍ كبيرة سمَّيناها **قصر منتصف الليل**.





